
غسان زكريا
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
في سجون البعث
إيبلا

غسان زكريا

في سجون البعث

In The Baath Prison

by
Ghassan Zakaria

Published in Great Britain in 1999
by Ebla (UK) Ltd
Printed & Distributed by Bissan book shop
P.O Box13-5261 Tel: 351 291 Beirut, Lebanon

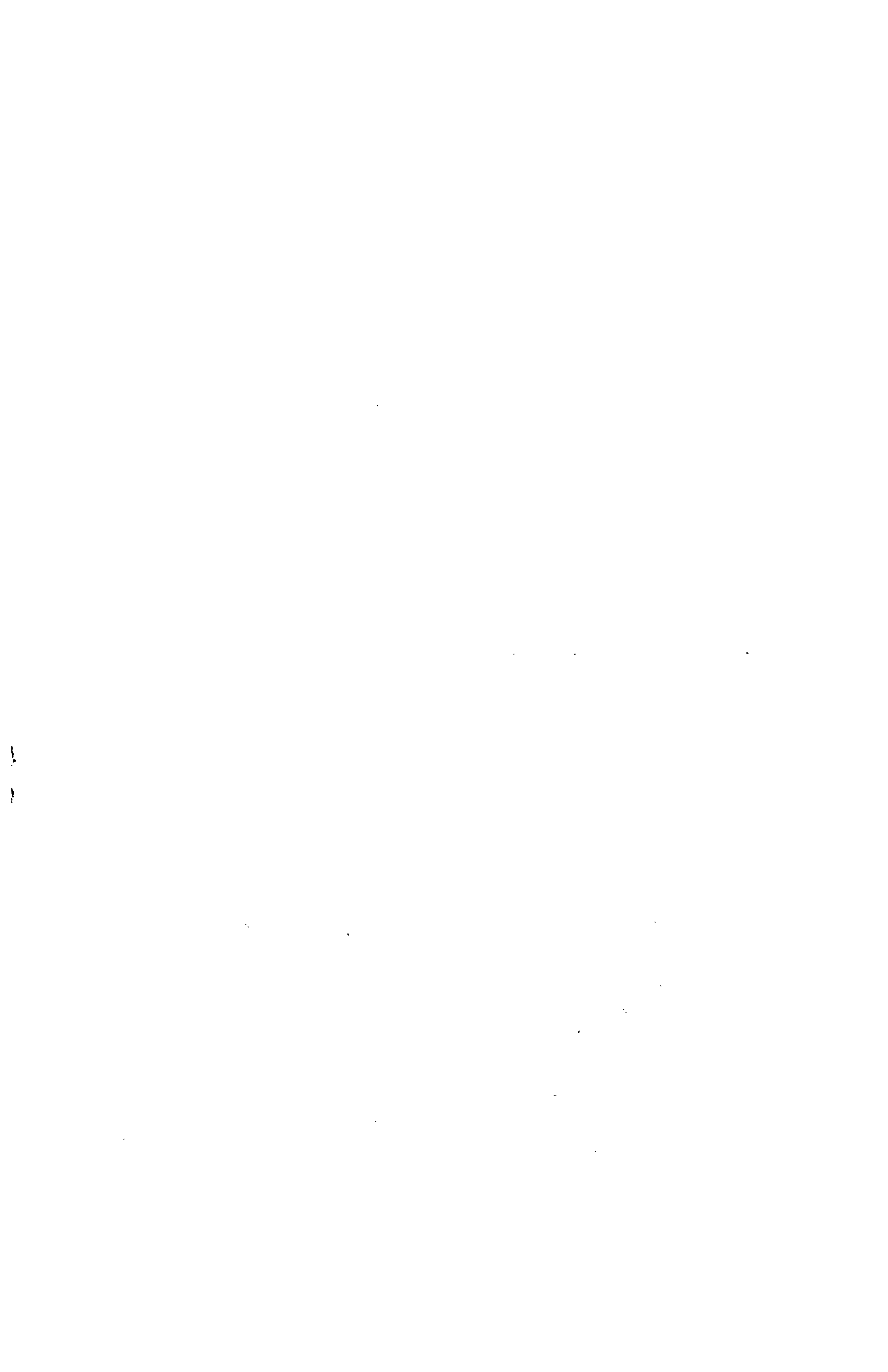
22 & 27 Beaufort Court, Admirals Way,
London E14 9XL
UK

التوزيع : بيسان للنشر والتوزيع والإعلام
ص. ب: 5261ـ 13 بيروت ـ لبنان
هاتف : 351291

British Library Cataloguing in Publication Data
Zakaria, Ghassan
In The Baath Prison
I. The Baath Party Era In Syria before 1970 - Politics
ISBN 1 - 85762- 001-1

الطبعة الأولى
1999
لندن

● تقتضي الإشارة إلى أن فصولاً من هذا الكتاب قد نُشرتْ على حلقات أسبوعية مسلسلة في مجلة «سوراقيا» بين 9 من تموز (يوليو) 1990 و15 من تشرين الأول (أكتوبر) 1990 وقد زيدت في هذا الكتاب ونقحت وحذف منها. وهي في أي حال من الأحوال ملك كاتبها ولا تلزم الآراء الواردة فيها والمواقف للناشر، شركة إيبلا (م.م) المحدودة المسؤولية، لندن.



تمهيد

نعم هذه مرويات اخرى!

هي ـ مثل مروياتي عن عبد الحميد السراج التي صدرت في كتاب «السلطان الأحمر» وطبع منه حتى الآن خمس طبعات ـ محاولة لكتابة تاريخ حقبات لم تدون بعد عن ظواهر حصلت ونجوم لمعت واحداث وقعت، فلم يتصدّ أحد لتدوينها أو الكتابة عنها، لالف سبب وسبب، أبسطه خوف من السلطان أو رعب من الزمان!

إلا ان هذه المرويات تفترق عن التي سبقتها بأنها لا تدون مسيرة شخص ـ كما فعلت مع السراج ـ بل تسجل حقبة من الزمن عانى فيها السوريون ـ وغير السوريين ـ الكثير الكثير فانقسموا الى فرعين: فرع يمالىء الزمان الحاكم والنظام والسلطان، وفرع يخلد الى السكون والنوم العميق والتستر بألف عذر وعذر، لكن النظام الدموي المعزول الذي ترأسه الدكتور نور الدين الاتاسي في العلن وصلاح جديد في السر فحكما وتحكما بقبضة عبد الكريم الجندي الفولاذية وعقله المريض كان له ان ينهار ويتلاشى بعدما زرع الرعب والخوف والدمار في كل بيت وفي كل حي وكل مدينة!

يقولون عادة انه لا يفل الحديد الا الحديد، في اشارة الى ان زحزحة العسكر من السلطة لا تتم الا عبر العسكر وبوساطة عسكر. بهذا يسقطون مساهمات الشعوب في تغيير الانظمة وقلب المعادلات ينسون ـ أويتناسون ـ ان الثورات لا تحققها الجيوش بل الشعوب، الاخيرة تقلب نظاماً اوتبدل نظاماً، لكن الشعب هو الاساس. هو المحرك. هو الوقود وهو المرجل.

لقد كنت بعض «وقود» التغيير الذي جرى في بلاد الشام فأنهى حقبة «التوتر» التي امتدت سبعة اعوام طويلة، ضاعت من عمر البلاد، من عمر الوطن، عمر القضية، من عمر الوحدة، من عمر التحرير ومن عمري ايضاً.

غسان زكريا

I
الهزيمة

I

«الحرب ... الحرب ... الحرب».

نقشت الجرائد على صدورها، رنت الكلمة في حناجر باعة الصحف، لف الخبر الاحياء والازقة بالفزع. انذار يطرق على ابواب الناس. تشنجت شوارع دمشق، استيقظ يوسف العظمة. مبارك الذي جدد ميسلون. تمسك بها صوت فيروز. هزها: «الان .. الان .. وليس غداً أجراس العودة فلتقرع». تحب دمشق صوت فيروز، تنام وتصحو عليه، استجابت. لبست ثياب القتال. اعطى الناس وجوههم لجبهات النزال.

«الحزب الحاكم» وعدهم بالنصر! منذ 8 آذار (مارس) 1963 وهو يعدهم بالخبز والملح و.. النصر! لونوا شبابيك بيوتهم بالازرق الغامق ليتقوا شر طائرات العدو ان اغارت ورمت قنابلها فوق رؤوسهم. صار الليل يزور دمشق باكراً. وانتظروا.

رزحت دمشق تحت عنف الهجمة الاسرائيلية. دب الفزع فيها. شلت الحرب أوصالها. أخبار القتال كانت تأتيها من الاذاعات الاجنبية. فالدمشقيون فقدوا من زمان ثقتهم بـ«اذاعة دمشق»، التي كانت تفصل أخبارها وما يتغرغر به المذيعون صباح مساء على مقاس العسكر و«الحزب الحاكم»، الذي بدأ في اليوم الرابع للحرب يشعر بمرارة الانكسار، فحاول احتواء خيبة الناس وغضبتهم والالتفاف على إحتمالات ردود الفعل.

وأشتد النزال. كبحوا جماح العساكر المنقضة. طعنوها من الخلف. اعطيت الأوامر بترك الخنادق والاستحكامات والتلال. تراجعت العساكر. ويوم

«الهروب الكبير» الذي تندر به الدمشقيون ضاع الجولان. احتل. سقطت القنيطرة تحت اقدام العسكر العبراني ومعها قسم من حوران. ارتفعت بيارق الاحتلال على التلال والسهوب. غمست دمشق وجهها بالثورة. حاروا على ابوابها. الهزيمة تملأها. والشمس التي لمعت الاوسمة على صدور المحتلين، لعقت دماء الشهداء وامتصت جلودهم.

الذهول تكمش بالشوارع، لون وجوه الناس، غسلها بالالام، أكلت الصدمة عيونهم، هزهم الانكسار.

«الحزب الحاكم» ابتلع الهزيمة المرة. وعد بالثأر، اختفى وجه يوسف العظمة، بقيت ميسلون في كتب التاريخ، بُح صوت فيروز «الآن.. الآن وليس غداً، أجراس العودة فلتقرع».

لأول مرة صار الدمشقيون يكرهون صوت فيروز.

II

تيقظت حواس دمشق. تمدد الحزن في صدرها. بدأ الناس يشعرون بمرارة الهزيمة مع قوافل العائدين من الجبهات، يحملون على أجسادهم غبار المعارك وفي خواصرهم وظهورهم جراح الانكسار.

ودار «الهمس» يوزع الاخبار، عن احتمالات «تغيير ما» واشتعل الحديث، ثمن يوم الهروب الكبير، ودوت في آذان الناس اسماء الضباط المسؤولين!

لم يكن يدور في خلد أحد ان هذا « الهمس» أوعز به «الحزب الحاكم» لامتصاص النقمة، بينما كان بتنظيماته من القاعدة الى القمة كافة، يخوض في الشام معركة انقضاض على حريات الشعب بقصد التستر على الهزيمة.

فما كاد غبار المعارك يندثر حتى بدأت أجهزة الاستخبارات تنشط وراء من اتهموا بـ «التآمر» على «الثورة» وعلى «منجزاتها» أيام الحرب وقبلها!

وأنتشرت موجة الإعتقالات بين فئة الشباب المثقف بينهم الطبيب والمحامي والمهندس والصيدلي وحتى .. الضابط المسرح! وتوزعت التهم: «محاسبة المسؤولين عن الهزيمة»، «قلب النظام»، «المطالبة بالدستور والحريات».

مالَ عليَّ، وقفت اصابعه عن لملمة حبات مسبحته السوداء، التفت يمنة ويسرة. استرد نفساً طويلاً وصلني صوته وقد تكمش الجزع في نبراته وهو يخبرني عمن روى له، عمن سمع من أخبار الإعتقالات وعن الرعب الذي ينشره العقيد عبد الكريم الجندي.

كُنْتُ وهو يكلمني أمرجح نظري في بيوت بلودان الشتيتة، لحظات قلبت الأفكار في رأسي، ماعدت سمعته. لم أهتم، فلقد عودنا «الحزب الحاكم» بين الفترة والفترة علي حملات إعتقال يوقت لها وينظمها ويرتبها ضمن إطار من الإخراج الدرامي، كأن يجند أجهزة اعلامه للصراخ: بأن «إسرائيل» تحشد قواتها على الحدود! أو أن «الامبريالية» و«الاستعمار» والولايات المتحدة الأميركانية.. يحاولون الاطاحة بالثورة، بنظام الكادحين والعمال.

أو.. أن يعمد «الحزب القائد» إلى إلهاء الناس بمعارك جانبية:انتصاراته على شركات البترول I.P.C وتوقيعه عقد البدء بإعمار سد الفرات، أو في أقل الحالات تدشينه معمل بصل في حماة أو قضائه على «عصابة» لتهريب دخان سعودي تسللت عناصرها عبر الحدود!

غرق صديقي في الصمت، سبح بمسبحته، أعادتني طرطقة حباتها الى رشدي. رميت على وجهه نظرة باهتة، انتبه لها، ساءه عدم إهتمامي. ثقلت كلماته على صدره، لم يستطع مقاومة الرغبة في اثارتي. جرفه الكلام.

ليس الأمر مجرد شائعات. المهندس وليد القضماني والدكتور مروان المحاسني والصيدلي غسان المحاسني، قد تسللوا يوم امس (14 حزيران «يونيو» 1967) عبر سهل الزبداني – سرغايا الى الجبال المطلة على البقاع.

لسعتني كلماته. فتحت عيني كأني اريد ان اتأكد من صحة كلامه. رأيت الغضب يتكور في عينيه. تعثر بحركات يديه. امتص شفته السفلى. ترك الريق عليها. تناثرت عباراته. خرجت من بين شفتيه الغليظتين مليئة بالغضب:

عناصر استخبارات عبد الكريم الجندي داهمت . منازلهم مروعة النساء والاطفال، دافعة بزوجة الصيدلي غسان المحاسني الى اللجوء الى السفارة المصرية (فهي مصرية الجنسية) طالبة الحماية من عناصر عبد الكريم الجندي. وكأنه قال في داخله: «هل صدقت الان..». أرتاحت قسمات وجهه. تمددت. انتشى بالانتصار. لحقني بعينيه، حنى رأسه واجماً شعرت بشيء ثقيل يجثم على صدري. تعجلت في سحب سيجارة من علبة «وينستون» كانت على الطاولة. أحسست بالحاجة الى أمتصاصها. سحب ولاعته الذهبية من جيبه. احمر رأس السيجارة من نارها. سحبت منها نفساً طويلاً. تغرغرت بالدخان. شعرت بانقباض. مضت فترة صمت. أحسست بوقع السقوط في الخيبة. أدركت أن «رياح التغيير» التي لفحت عقول الناس عقب الهزيمة والهروب الكبير لم تكن غير «صناعة محلية» أطلقها عبد الكريم الجندي ورجال جهازه الرهيب. وأن «الحريات» و«الديموقراطية» و«حكم الشعب» و«العودة إلى الدستور» و... و... و.. ما كانت كلها غير أدوات تخدير أستعملها «النظام الثوري» فترة، أسترد خلالها وعيه وأنفاسه وجمع صفوفه وأستقبل بها مسؤوليه النازحين إلى الشمال السوري وقد أعتقدوا أن دمشق لا محالة ساقطة تحت اقدام الاسرائيليين.. ثم ما لبث النظام أن عاد لينقض على الشعب بضراوة وعنف ذكراني بما كان على زمن «السلطان الاحمر» عبد الحميد السراج.

أحس بإنقباض. نكس رأسه لحظات. عاد يفرج عن حبات. كفت مسبحته عن الدوران بين اصابعه. سمعني اقول وقد هزني كلامه: الشعب. الهزيمة مرغت كبرياء الشعب بالإنكسار المر. التغيير ... التغيير مطلوب.

باغته كلامي. تأملني. جمع مسبحته. حشرها في جيب سترته. لمح ذهولاً في عيني. اندفع يبدده: الشعب الذي هدهدته الآمال والطموحات منذ 8 آذار (مارس) 1963 يعتبر ان الهزيمة هي هزيمة النظام الحاكم لا هزيمته. الشعب تجوهره الأزمات. وهو قادر على الأنقضاض على الثورة فيما لو توفر له قائد نازه النفس

جسور لا يعرف الزيف والمخادعة ولا يسكر بالسلطة.
شعرت بالأختناق. هربت من وجهه. عدت أرمي نظري على بلودان. كان الغروب في الشجر. وأول الليل بدأ يأتي بالنسيم البارد المغناج غمغمت: «أيتها البلاد العواقر التي تقتل الأبطال ... موتي بالهزيمة».

III

«من أعطاك الأوامر؟».
« مدير مكتب الأمن القومي».
مد الصل يده الى الملف. سحب ورقة منه قال:
« الأمر صريح».
أومأ إلى صل آخر. أقترب. فتح ثالث باب سيارة «لاندروفر».
«انا ابيع الجرائد والمجلات منذ خمس عشرة سنة. الكل يعرفني جيداً».
« موشغلنا.. مو شغلنا».
بدأ المدني يقلب الجرائد والمجلات كأنه يبحث عن الممنوع بينها.
« أين المنشورات السرية التي توزعها؟».
«أية منشورات أخي...».
إنهال عليه الصل بالضرب، تجمع المارة. زأر المدني. تفرقوا. أكمل صفع بائع الجرائد.
« كل ما في الكشك مصادر...».
«منشان الله ... منشان الله عندي عيال».
مسح بائع الجرائد بكمه دماً سال من أنفه. تأمله «العنصر» بحنق. تقدم العنصر الآخر. جره من ذراعه. مزق له قميصه. ركله. حشره في السيارة. جعر محركها. نهبت دواليبها الأرض نهباً. اختفت في زحمة الشارع وأختفى معها «بياع الجرائد» في زنزانات «الأمن القومي ـ القيادة العامة» في شارع أبو رمانة، الذي كان في سابق العصر والأوان لعبد الحميد السراج، سلطان الشام الاحمر.
من قال: إن لكل زمان دولةو ... مكاناً؟
عَمِلَ عبد الكريم الجندي على مصادرة هذه البناية وإرغام سكانها على تركها، مقيماً فيها «مكاتب الأمن القومي ـ القيادة العامة» ومحيلاً بعض غرف اقبيتها إلى زنزانات غير آبه بأنها واقعة ضمن منطقة سكنية مطوقة بمنزل السفير الأميركاني وبسفارتي أسبانية ورومانية، متجاهلاً ان أصوات المعتقلين وصراخهم وإستغاثاتهم وأنين الوجع من سياط الجلادين وسياخهم وسكاكينهم وهم يغرسونها في اللحم الحي أثناء عمليات التعذيب المتواصلة التي كانت تبدأ بعيد منتصف الليل، قد تسمع واضحة في منازل الجيران..
كانت مهمة عبد الكريم الجندي أن يرعب ويروع دمشق. حماية الثورة وظيفته. حمايتها من أعدائها. من الشعب. من كل من لم يؤمن بالوحدة والحرية والإشتراكية. وبأن التاريخ قد بدأ في 23 شباط (فبراير) 1966 يوم انقضت

«ثورة» على «الثورة» فإذا برئيس الجمهورية الفريق أمين الحافظ يضطر لأن يخوض حرب شوارع في دارته بحي أبي رمانة، وأن يصمد ويصمد، ثم أن يستسلم لآسريه الذين نقلوه إلى سجن «المزة»!

ظنت دمشق أنها أرتاحت من عبد الحميد السراج ... فجاءها عبد الكريم الجندي يتحكم بها ويظلم تحت شعار «الوحدة والحرية والاشتراكية»!

IV

17 كانون الثاني (يناير) 1967.

يَبِسَتْ ضلوع دمشق من البرد. تبلّد الضوء. الغمامات السوداء أخفته. وعدت بالمطر. هطل المطر. غسل الشوارع. صارت مستنقعات وسخة تنغرس فيها دواليب السيارات. الشتاء يربك دمشق.

رَفَعْتُ ياقة معطفي. أندسست في الشارع. البرد يتكوم في مفاصلي. يتربع على رؤوس أصابعي. أسرعت الخطى وأنا أقطع شارع الفردوس حيث مكتبي، الذي حولته إلى مكتب لمجلة «الحسناء» اللبنانية يوم عينتُ مديراً لها في دمشق. فلقد كان ذلك اليوم موعد إرسال المواد التحريرية الأسبوعية. (كانت «الحسناء» تصدرها «الشركة الشرقية للنشر والمطبوعات» برئاسة الدكتور مروان حنا ونبيل خوري ثم أشتراها غسان تويني وألحقها بـ«التعاونية الصحافية» التي تصدر جريدة «النهار»).

شَعَرتُ بانقباض غريب وأنا أدخل المبنى. أستمر وأنا أضغط على زر المصعد الكهربائي إلى الطابق الثاني. لم أعره بالاً. وإن كنت تعمدت النظر في عناوين الجريدة التي كان يحملها شاب وقف في المصعد إلى جانب في محاولة للهرب من ضيق بدأ يتجمع في صدري. هزني توقف المصعد. فتح الباب فمه. خرجت منه، مددت الخطوات إلى المكتب. نفضت كل الأفكار المتلاطمة من رأسي. سبقني رنين الهاتف. جن صوت جرسه. رفعت السماعة باليد اليمنى وأنا أحاول باليسرى التخلص من معطفي.

جاءني الصوت متودداً:

ـ «مدير الأنباء الأستاذ علي الجندي يرغب في حضورك إلى الوزارة».

فسرت شعوري بالإنقباض.

ـ « خير...خير...».

أعدت أرتداء المعطف. تغيرت نبرات الصوت. أصبحت جازرة.

ـ «الأستاذ الجندي في إنتظارك بعد نصف ساعة».

أرتخيت على الكرسي. دارت نظراتي في المكتب. طافت في رأسي الظنون. فكرت أن أتّصل بأحد أبلغه بما حصل وإلى أين أنا ذاهب. تولاني شعور بأنني لن أعود. قفز أمامي وجه عصام المحايري. فكرت أن أتّصل به. فمكتبه قريب من مكتبي. عدلت عن الفكرة. أحسست أن حلقي جف. أفرغت في جوفي كوب ماء. بحركة لا شعورية رميت نظرة عجلى على الساعة في معصمي. جمعت أوراقاً على

المكتب. أعطيتها إلى السكرتيرة. تعجلت في الخروج. أستسلمت لعجقة الشارع. لسعني البرد. مسامير تنخر في وجهي. جالت الأفكار في رأسي. حاولت أن أجد مبرراً لإستدعائي، «الحسناء» مجلة نسائية إجتماعية. هربت إليها من الكتابة السياسية. فهي لا دخل لها بالساسة وبالسياسة... ترى هل أزعجتهم زياراتي المتكررة لمكتب عصام المحايري المحاذي لمكتبي...

علي الجندي هو شقيق الدكتور سامي وإنعام وعاصم وهو أبن عم العقيد عبد الكريم الجندي. تراه كلفه بإبلاغي «أمراً ما».

الثورة القومية الإجتماعية الثانية في بيروت كانت ما تزال طرية في أذهان عسكر دمشق.. ولكن الحركة القومية في الشام قد حلت منذ عام 1955 ولا نشاط علنياً للقوميين فيها.

مصصت سيجارة، حبستها بين أصابعي، رميتها. دست عليها بعصبية. سترت جسدي بالمعطف وأندفعت بإتجاه وزارة الإعلام.

أدار فنجان القهوة بين اصابعه. دفن حافته بين شفتيه. قلبه دفعة واحدة. مسح شفتيه بلسانه. تملاني. لملم علامات الإستفهام عن وجهي. ابتسم. تفحص أوراقاً كانت في ملف أمامه. طواه. أنتظر أن أبدأ الكلام. لم أفعل. بقيت ألحق حركاته بعيني. سقط نظره على وجهي. رآني متحفزاً. أفرج عن الكلام بتفاخر وشت به نبرة صوته:

«آسف...آسف أن أبلغك عن منع دخول «الحسناء» الشام بدءاً من هذا اليوم».

رفع رأسه لما رآني اتهمز للكلام.

« لا تسل عن الأسباب. لا أعرفها. لم أبلغ بها. هذا ما وصلني. وهذا ما كلفت أن أنقله إليك بوصفك مدير مكتب المجلة في دمشق».

وكاد يقول هذا ما كلفني «العقيد» به؟

تجمع عنادي في نبرات صوتي:

« ولكن... هكذا من دون سبب. ثم على الأقل إسمحوا لي بإبلاغ جهاز المجلة في بيروت قبل البت في إجراء المنع الفوري. هذا لا يجوز...».

أزعجته الكلمة الاخيرة. تبرم. قطب. لوى عنقه بخفة. بلع كلامه. وقف. زرّ سترته. مد يده. ضغط على يدي. مشى معي إلى الباب. تركه مشقوقاً. أحسست أنه يلاحقني بنظارته.

لفني الأمتعاض. شعرت كأن العيون تتربص بي ساعة خرجت من مبنى وزارة الإعلام. هاجمني غضب مقيم. حاولت إيجاد تفسير منطقي لمنع «الحسناء» من دخول الشام. لم أجد سوى التضييق عليّ. منعي من العمل.

حاولت عبثاً بالتعاون مع جهاز المجلة في بيروت السعي لإلغاء هذا التدبير «الثوري». فكانت الأبواب توصد دوني. وسطت صديقي عبد الوهاب قطرميز لدى النقيب سليم حسن في إدارة الإستخبارات العامة عله «يمون» على علي الجندي فيحل القضية! ولكن بدل أن يحلها فَيُلغى المنع. أستدعيت بعد أسبوع بإشعار رسمي مطبوع إلى «فرع التحقيق» في الإستخبارات العامة. لألتقي الملازم أول محمود أيوبي.

لم يطل الكلام. قال بصوت مليء بالغضب إن «سيادة العقيد» قد بلغه «تهديدي» لأبن عمه «الأستاذ علي الجندي» عبر النقيب حسن. وإن «سيادته» غاضب وثائر علي وعلى النقيب.

عرفت أن أمراً ما يُدبَّر لي. وإن «ثوار» الثورة أعينهم علي محمرة. صنفوني من المغضوب عليهم. أصبحت أضع قدماً في «الحرية» وقدماً في «السجن». وقد أستدعى إليه «بأمر عرفي» ساعة يأمر «سيادة العقيد». فعدت إلى «الصديق» أوسطه من جديد لإنهاء الموضوع مقابل أستغنائي عن «الحسناء». ففعل و... فعلت.

V

«عاطل عن العمل .. يريدونك هكذا».

تمتمت بسري وأنا أمر يعيني على وجهي المتعب المرتسم أمامي على المرآة. تكاسلت شفرة الحلاقة في قضم الشعيرات التي مدت رأسها من مسام الجلد. رميتها. تركت الشعيرات تشرئب.

«اليوم منعوك من العمل. وغداً .. السجن مثلك مثل مئات المغضوب عليهم في دولة المخابرات..!» مر الماء الساخن على وجهي. شعرت بحرارته. تسابقت الافكار في رأسي.

«يريدونك ان تنفجر من داخلك. أن تصرخ. ان تعترف بحقهم في صلبك. في التحكم بك من أجل الوحدة والحرية والاشتراكية».

ماجت الصور في مخيلتي: «البلاد لم تقم من قعر الهزيمة»..

سحبني صوت زوجتي من الغرق في الصور المتدافعة المتلاطمة امامي.

«في احشائها يكبر طفلي»..

أخفيت عن وجهها وجهي المضطرب. دفنته في كتب التاريخ. تاريخ سورية عدت إليه. فقد كنت أهملته منذ أن نلت إجازة التاريخ القديم في الجامعة الأميركانية في بيروت أصبحت أقتل الفراغ بها. أعيد أرشفة تاريخ الأمة السورية منذ الفجر إلى الضحى حتى يومنا الحاضر. لم أترك كتابا عن التاريخ السوري إلا وقرأته. حتى أن زوجتي، وكانت في أشهر حملها الأخيرة. بدأت تشكو من صدي لها وإنصرافي عنها وإنشغالي بزينون الرواقي وبسرجون وهنيبعل وآشور ومعاوية وهارون.

كان عصام المحايري يشجعني على المضي في دراساتي وأبحاثي ويثير فيّ همة البحث العلمي. نقضي الساعات في مكتبه. يتركني أحكي عن الكنعانيين والسومريين. يلفته أسترسالي. يتذكر. يقاطعني:

« أسد الأشقر (سبع بولس حميدان) يمضي الأسر في القراءة والكتابة. أقرأ له في «الأسبوع العربي»، ردّاً عليه إن كان عندك ما يخالف رأيه».

يخرج من درج مكتبه نسخة من «الأسبوع العربي» هربت إليه من بيروت. فلون حبر المجلة اللبنانية كان أحيانا لا يعجب «الحزب الحاكم» فيصادرها.

كنت ازور عصام المحايري كل اسبوع مرات عدة. هذا الرجل جوهرته المحن. استلان خشونة السجن. لم تفتر عزيمته. ظل منتصباً امام جلاديه. طواه السجن ما ناف عن السنوات الإحدى عشر. ظل هو ...هو، على العهد.

كنت ابحر في وجهه الى الماضي. اذكر يوم مقتل عدنان المالكي، كيف انقضوا على القوميين الاجتماعيين. حرقوا. كسروا. اعتقلوا. كيف اقتاده اكرم الديري من بيته. كيف تناوب الجلادون بسياطهم على جسده العاري. يمضي عهد ويمضي رجال ويأتي عهد ورجاله معه. ويبقى الظلم والتحكم والاستزلام و.. الهزيمة. ضجت هذه الافكار في رأسي. رفعت نبرات صوتي:

– «الى متى نظل هكذا، من هزيمة الى اخرى. نمضي سعياً وراء «العيش» لا نلقاه. بينما يتحكم المتحكمون باسم الشعارات في قضاء هذه الامة وقدرها. والنهضة القومية الاجتماعية في الاسر في لبنان وخلف السجن الكبير في الشام».

أزاح نظارته عن عينيه. مسح زجاجها. اعاد تركيزها على انفه. قال بهدوء:

« لكل شيء زمان ومكان. النهضة متجددة. مستمرة فيك. فيَّ. في ذريتنا. في الالاف المنتشرين هناوهناك. في احفادنا من بعدنا».

ترك نظره على وجهي لحظات. أحسست انه كان يعني كل كلمة قالها. «النهضة مستمرة». طنت هذه الكلمة في رأسي. هل كان هناك تنظيم حزبي سري في الشام؟ من كان المسؤول عنه؟ هو لم يشر مرة واحدة الى وجود مثل هذا العمل الحزبي. وأنا لم اسأل.

« أورنينا. من اين التسمية وماذا تعني؟».

تمشى بعينيه على وجهي وانا اخبره انني رزقت بطفلة اسميتها اورنينا. انتشيت بسؤاله. لم اقاوم الرغبة في الشرح. تولاني الزهو:

« التسمية عمورية من مدينة ماري الفراتية. وتعني بالعربية نور الوجود».

فوجىء عصام المحايري بكلامي. افسح على شفتيه لضحكة قطعها بالكلام:

« ابنتك الاولى اسمها «اوغاريت» تسمية كنعانية – فينيقية. والثانية اورنيذا وتقول انها عمورية ... في بيتك يا صديقي تتم الآن وحدة الهلال الخصيب».

خطف من فمي ضحكة. استرسل بها. تقاسمها مع مأمون الجزائري وانطون دحدوح وثالث لم أعد اذكر اسمه. استرد فجأة جده. عاد الى وقاره. تجهم وجهه تغيرت نبرات صوته:

« اسمعتم شيئاً عن اعتقال قوميين في دير الزور؟».

غامت الاشياء في عينيه. حنى رأسه مطرقاً. ساد صمت بليد. درت بعيني على الوجوه. غالبت تجمد الكلام على طرف لساني. فتحت عيني على اتساعهما. كرت الاسئلة. تسابقت في طرحها مع انطون دحدوح.

« متى وكيف. متى ولماذا؟».

رفع رأسه. انشغل في التطلع الى سقف المكتب. كأنه يريد ان يهرب بعينيه الى مساحة بيضاء خالية من الوجوه والصور:

« لا ادري... لا ادري لماذا ولكنني أعرف من؟».

وعدد بعض الاسماء. علق في ذهني اسم ابراهيم الهنيدي. ثم التفت ليرى تأثير كلامه على وجوهنا. اشتعل قلق مقيم في داخلي. قطعت حبل الصمت الذي كبلنا.

هل من خطر اعتقال اي منا؟

وأردفت متمتما بسري: «هل من خطر عليك بالذات؟».

عصرت الكلمات في ذهني. شعرت بالضيق. قفز امامي شريط صور ماضية عن زمن «السلطان الاحمر» حاولت مرارا ان ابعدها عن مخيلتي. سحبت خطواتي في الممر متجهاً الى مكتبي.

VI

الإثنين 19 شباط (فبراير) 1968

العناوين ذات العناوين: تقفز من الحبر. تلطمك على خديك. تذكرك دائماً انك في دولة «الحزب القائد». قائد مسيرة الوحدة والحرية والاشتراكية!

تزهق. تفتش في الصباح عن شيء آخر تقرأه وانت تسكب في عروقك البن الاسود. لا تجد. انت تكره الكلمات المتقاطعة. اذن .. انت لست قارئاً جيداً لصحف «الحزب الحاكم».

علكت جريدة «البعث» بين اصابعي. لفتني خبر في آخر الصفحة الاولى. مداهمات. مصادرات. اعتقالات لأعداء النظام.

انكمش حس غريب في داخلي. توجست شراً. ساعة يختنق النظام يعتقل. يفتح النظام الحاكم السجون. دفنت افكاري مع السيجارة في صحن الدخان.

العاشرة والنصف. لكزني الوقت. قمت الى المكتب. طوال الطريق لم يغب الخبر عني. كانت احرفه تنط امامي. تستجمع على الرصيف. انضدها بعيني. على مدخل بناية مكتب عصام المحايري، شاهدت الفتى غسان ساعي المكتب. رمى السلام بوجل. ارتعش، تكمش نظره في وجهي. سألته:

« الاستاذ في المكتب. اريد زيارته؟».

اقترب مني، مال على اذني. تطلع يمنة ويسرة. همس:

« اما عرفت ..اما عرفت».

بلع ريقاً تجمد في حلقه. استجمع انفاسه:

« لقد اخذوا الاستاذ بعد منتصف الليل».

تناولته من ذراعيه. هززته كأني اريد ان ارجعه الى وعيه:

« من ... من اخذ الاستاذ؟».

مال عليّ أكثر. عاد الى الهمس:

« عناصر الاستخبارات .. الاستخبارات. ولقد اغمي على والدته فأصر على عدم الذهاب معهم الا بعد احضار الطبيب. وافقوه. ولما استعادت نبضات قلبها مضى معهم».

طرزت جبيني حبيبات عرق بارد. تولاني الذهول. سألته:

«هل فتشوا البيت. هل عبثوا بأوراق الاستاذ في المكتب».
ابتعد عني. حدّق بي بخوف. تلعثم. ركض من امامي:
« لا أدري ... لا أدري ... لا أدري».
همدت. احسست بشلل في مفاصلي «ساعة يختنق النظام يفتح السجون».
رددت بسري. وقفت امام باب مكتبي. ضاق صدري. شعرت انه زنزانة. أدرت وجهي. اسرعت الخطى في الممر ابحث عن الشارع عن وجه اعرفه.
حط المحامي بشير الموصلي نظره على وجهي. رآني متجهماً. استوقفته:
«هل علمت باعتقال الاستاذ؟».
علمت... أعتقد انه توقيف احترازي بسبب معرفتهم انه رئيس مؤقت للحزب.
شعر انه اخطأ لما ارتسمت علامات الدهشة على وجهي.
رئيس مؤقت ... ماذا تعني بذلك؟
انتحل الاعتذار. لملم كلامه. ندم انه التقاني. همس:
«من الافضل ان «تضب» لسانك وتلازم بيتك. انت مراقب. وزياراتك للاستاذ مسجلة بالتاريخ والساعة والدقيقة».
اطلقت ضحكة تربعت على شفتي:
«مراقب بسبب زياراتي... وماذا سيفعلون بك. فأنت في مكتب واحد معه؟».
شعر بالزهو:
«انهم يا استاذ يعلمون جيداً انني «تركت» الحزب من زمان. ومع انني ازاول مهنة المحاماة في مكتب واحد مع الاستاذ عصام محايري الا انه تمر الايام لا اراه فيها ولا اكلمه ... بخاطرك».
وقفت هامداً. لحقت به بعيني حتى دخل مبنى مكتب عصام محايري. حركني بائع الجرائد:
ـ بدك جريدة «البعث» ... أخي.

●●●

ومرت اسابيع ثلاثة.
كانت الاشاعات خبز وملح دمشق مع الاعتقالات تنتشر كالوشم بين الناس. تتوسع. تطاول الكثيرين من افراد «الثورة المضادة».
عبد الغني قنوت، وزير الشؤون الاجتماعية والعمل ايام الوحدة وذراع اكرم الحوراني اليمنى ... معتقل.
خليل الكلاس، وزير الاقتصاد على زمن الوحدة وذراع اكرم الحوراني اليسرى ... معتقل.
محمود الجيوش، وزير التموين في اكثر وزارات «ثورة آذار» ...معتقل.
دريد المفتي، رئيس البعثة السورية في اسبانية ... معتقل.
... النظام فتح السجون...

II

في ضيافة «الشيخ حسن»!

I

تنهد الفجر. نفضت الغمامات السود عنها كل مطرها الذي حملته على مضض الى دمشق من سفرة طويلة في السماء.

حبات المطر كانت تنقر على زجاج الشباك. تنتحب. تحدث صوتاً رتيباً. تنشب اظفارها في جلد الزجاج الاملس. تنزلق. ترسم اشكالاً غريبة امامي. تسيل ويسيل معها نظري. يستهويني انتحار قطرات المطر على شباكي.

طاب لي الاستسلام للافكار التي احتوتني. المطر يسكب في داخلي خدراً ناعماً يطرد النعاس من عيني. خواطر مختلطة كالومض برقت في رأسي: منذ ان بدأت مخالب النظام الحاكم تنغرس في جلد الابرياء، سرح الرعب فوق دمشق. خطف النظام حناجر الناس كي لا تشتعل بالصراخ. غير وجوههم. اصبحت بلا ملامح. يضج فيهم الخوف وفي رؤوسهم تطن الشعارات الجوفاء. صار الجار يحاذر جاره. يخاف على دسيسة يدبرها عليه. يخاف ان يكون صوتاً مسموعاً في آذان اعوان عبد الكريم الجندي. فيختفي في عتمة السراديب.

جنّ المطر. تقاطر بشدة. هلوس مزراب التوتياء الذي يمد لسانه الطويل على الحائط المبلول للمبنى المقابل. أعولت ريح مرت في الشوارع المهجورة تلطم تنك الزبالة. تتركها تتدحرج وتطن. ولا ترتد الا بعدما تحطم خشب شباك او تعاكس غصن شجرة منتصبة عند مدخل مبنى، تململ منها وظل يتمايل حتى انكسر.

احسست بارتعاشة في داخلي. همدت. هربت الصور امامي. رددت ستارة الشباك. مشيت خفيف الوطء من خوف ان تستيقظ زوجتي وطفلتي على

حركتي، الى غرفة المكتب حيث كنت اقبع الساعات الطويلة مع الكتب ألملم منها واجمع تاريخ سورية القديم. تفطنت الى ان زوجتي ذهبت بالطفلة لتقضي اسبوعاً بزيارة اهلها... فأكثرت من الجلبة. ادرت جهاز الراديو. لم اطق سماع الاصوات التي تقول لك «صباح الخير» وانت لا تجده. خنقت الاصوات بكبسة زر. شعرت ان عروقي ما ارتوت بعد من البن الاسود. فزرقت فيها ما تبقى في الفنجان.

ارتخيت على الكرسي. تناثر نظري مع دخان السيجارة الذي كان يتراقص في فضاء الغرفة.

هو ذا شهر آخر ينقضي وأنا احاول أن أجد ما يسد النفقات اليومية. أعيش معيشة تدبيق. أجرجر القلم على الورق. يهرب الحبر من الكلمات. تنز أصابعي على القلم. أكدح لآتي بالكفاف في ظروف سياسية ضاغطة يعيشها كل من فكر بكلمة وكتب حرفاً.

شعرت بانقباض. مرتِ وجوه لا أعرفها امامي. خلفها اطل جلاد يحمل سوطاً مغمساً بالدم. ارتعبت. ثقل ضيق على صدري. كابدت لأزيح الصور من مخيلتي. تحركت فكرة في رأسي: «السفر... السفر الى لبنان» تمتمت بسري الكلمات عدة مرات.

كانت بيروت خشبة الخلاص. سبقني اليها آخرون. فما ردّت عليهم بابها. اعطتهم الامان. ووجدوا فيها الخبز والملح.

قلبت الفكرة في رأسي. انتشيت بها لحظات. ثم .. عدت اشعر بالتردد. ففي مثل تلك الحالات تزدحم الظنون على الظروف.

حط نظري على صورة زوجتي على المكتب. رن في رأسي بكاء طفلتي اورنينا، تحركت دمعة في عيني. غدرتني. تمشت على خدي. عصرتها بأصابعي.

تثاءبت الشمس. نخرت اشعتها جلد الغيم الاسود. طلع على دمشق نهار آخر ...يئن.

II

الا تعرف ان لكل مواطن في الجمهورية العربية السورية اضبارة خاصة في دوائر الامن. في مكتب لبنان، في الجوازات، في مكتب الامن السياسي، في الاستخبارات العامة، و... في كل مخفر من مخافر الحدود البرية والجوية والبحرية.

قال صديقي وقد وضح الضيق على وجهه لمّا ابصر في عيني شيئاً من الاستغراب. خفض نبرة صوته مال على اذني:

«... مبدأ الشك قاعدة الحكم في الشام».

هاج في رأسه الكلام. اعتدل في جلسته. امتص آخر قطرة من فنجان القهوة:

« كل مواطن مذنب حتى يثبت العكس وكل صحافي جاسوس ما لم يؤمن بالوحدة والحرية والاشتراكية... لذلك فقد اتخذت اجهزة امن النظام الحاكم مبدأ

منع سفر اي صحافي ما لم يحصل على اذن مسبق من المكتب الصحافي في دائرة الامن السياسي... اذا وافق المكتب ابرق الى ادارة الهجرة والجوازات بالموافقة فيمنح الصحافي اجازة سفر بقيمة خمس ليرات سورية ونصف.
(اصبحت عام 1970 عشر ليرات سورية ونصف)

تدافعت كلمات صديقي في ذهني وأنا امد الخطى الى دائرة الهجرة والجوازات، خالجني شعور متناقص، بددت تشاؤمي بأفكار اخرى اعجبتني، راجعتها بسري، شعرت معها بشيء من الراحة.

انتصب امامي، مربوع القامة، نحيف الجسد، ترك الجدري على وجهه جورا شوهته. دارت عيناه في محجريهما دورة سريعة. علك كلامه علكاً:

« نعم .. أمور يا استاذ...».

غرق نظري في الجور على خديه قلت بصوت خفيض:

«طلب اذن سفر ... و...».

لم يدعني اكمل. سحب ورقة دفعها الي بحنق، كتمت غيظاً كان بدأ يتسرب الى ملامح وجهي. بقي الموظف منتصباً امامي. احسست بلسع نظراته على وجهي. شد انتباهي انه لم يسألني اي سؤال. تركني انهي الاجابة عن الاسئلة في استمارة طلب السفر من دون أن يتدخل. أرفعت نظري عن الورقة من امامي. قرأها بعينيه، فتح ملفاً، دفنها فيه، مسح سؤالا عن شفتي:

« مع السلامة .. انتظر الجواب في غضون أيام... غيرو .. غيرو ... غيرو... تفضل اخي ... إنت... إنت تفضل».

وأومأ الى شاب وقف خلفي كان ينتظر دوره.

وانتظرت، اربعة ايام عددتها بالدقائق والثواني. اكلني القلق. جاءني الجواب بالرفض ومنع السفر. فعلى ما يبدو انه بعد موجة الاعتقالات في كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) 1968 اتخذ النظام الحاكم قرارا بمنع سفر الصحافيين من خوف ان يسربوا معهم عبر الحدود اخبار تلك الاعتقالات والمداهمات التي كانت ماتزال ناشطة في كل مكان من الجمهورية.

امتلأ رأسي بشيء اشبه بالغضب، وهبت نفسي للظنون. العلامة الحمراء تكبر الي جانب اسمي. شعرت بأنهم احكموا اغلاق السجن الكبير عليّ يمنعون عني الحرية.

قلبت بأصابعي اوراق دفتر ارقام الهاتف. حط نظري على اسمه: «محمد الحسن ـ المكتب الصحافي في الامن السياسي» لمعت فكرة الاتصال به وتوسطه في امر اجازة السفر...

لقد كان محمد الحسن من سكان طرطوس نزح منها الى دمشق عام 1966 فعين في «الامن السياسي»، وافرز الى «المكتب الصحافي». زارني في مكتبي مرات عدة، «لينظم لي ملفي» واخذ المعلومات عني وقتها ... مني.

بحركة لا شعورية رسمت رقم مكتبه على قرص الهاتف، جاءني صوته مستفسراً، طلبت منه ان يمر بي في مكتبي. فعل. تركني احكي. طلبت مساعدته، شرحت له عن حاجتي الى السفر الى لبنان للبحث عن عمل. ولعله يوصلني

برئيسه النقيب رفيق غريب، الذي كنت اتصلت به مرارا وفي كل مرة كان يرتد الي الجواب بأنه «غير موجود»!

انتفخ بالخيلاء، ما ظن انه سيأتي اليوم الذي اسأله فيه مساعدة. وشى بريق عينيه بالزهو. وضع رجلا فوق الاخرى:

« بسيطة ... يا استاذ. على عيني والله. خذها مني. سأتصل بك وأرتب موعداً في أقرب وقت ممكن».

مرر ابهامه على شاربيه واودع سيجارته صحن الدخان. فرقعت ضحكة محمد الحسن. تيقظت. سحبني من افكاري الشاردة: «متى الخلاص من هذا السجن الكبير ... ايها الزمان الاحول الذي يميت كرامة الانسان كلما صاح الديك وطلع نهار على الشام»...

لذت بالصمت .احتويته بنظرة لكزته. قام. رمى السلام. استحضر كل خبرته في التودد. تجمد وجهي. ندمت انني سألته المساعدة. خرج من المكتب. ما عدت رأيته. ما عاد اتصل بي. والنقيب غريب ظل «غير موجود».

العلامة الحمراء كانت قد غطت اسمي.

III

الاربعاء 13 آذار (مارس) 1968

الدنيا عيد. «الاضحى» كان في يومه الخامس. تزينت له دمشق وتبرجت. تحب دمشق الاعياد. تجد فيها فسحة للنسيان. لطمتني تلك الافكار وانا اندس في شارع الفردوس حيث مكتبي. دارت نظراتي في وجوه المارة الذين يملأون الشارع صخباً. «بعضهم يمضي العيد في السجن الكبير وبعضهم في السجون الصغيرة المعتمة». مرت تلك الخاطرة على ذهني. لم تدعني افلت منها. تحول الشارع الى حبس كبير تطل من قضبانه وجوه مشققة بالسكاكين. اصبح الرصيف ملطخاً ببقع الدم. صارت اصوات المارة اشبه بالانين. بصراخ الوجع. احسست بالتقيؤ. تمالكت نفسي. الوجوه تقترب من وجهي. الايدي الممدودة من خلف القضبان تلطخ قميصي بالدم. اسندت ظهري على عمود الكهرباء في وسط الرصيف. ابتلعت ريقاً بارداً تجمد في حلقي. شعرت بالعطش. مررت لساني على شفتي رطبتهما بريقي. فتح صبي كفه في وجهي يستعطي. بان الكف مغروساً بالمسامير، ينز الدم والقيح من قداويح المسامير. والجلد انسلخ عن اللحم الحي. صرخت بالصبي. ارتعب. ابعدت كفه عني . رفعت ياقة معطفي. جرجرت الخطى المتثاقلة باتجاه المكتب.

كان صديقي ينتظرني امام مدخل البناية. هزني من ذراعي لما رآني اتلاشى. ادخلني المصعد الكهربائي. كبس الزر. اعطاه الاوامر ان يحملنا الى الطابق الثاني حيث مكتبي. خفت أن اقول له انني اصبحت اسير هواجسي والتهيوءات. تصنعت ان سبب شحوب وجهي هو الارهاق والتعب. وغيرت الحديث.

صوت المصعد الكهربائي كان يدوي فيرجع الينا صدى كحفيف اشباح

ترقص فوق القبور. السكون كان يتمدد في الطابق الثاني.
« لا احد يعمل في العيد إلاّ أنت ...».
امتعض صديقي وأنا ادير المفتاح في باب المكتب. لم أجبه. تهالكت على الكرسي. فككت ربطة عنقي. أخذت نفساً طويلاً. تمشى الى اعصابي خدر اراحني. تركني صديقي، (رده الله من غربته تاركاً إسمه للزمان)، الى الغرفة الثانية. تحركت فناجين القهوة بين اصابعه. هربت افكاري الى الورق المبعثر على مكتبي، وبدأت أقرأ.
قضم الوقت عقارب الساعة. كان التعب بدأ يتولاني. ارهقني النقاش الطويل مع صديقي. زرت بعيني الساعة في معصمي: السابعة والربع مساء.. انكمش الكلام على لساني. يبست اصابعي على القلم. دفن صديقي آخر قطرة من فنجانه في جوفه. عب آخر نفس في سيجارته. قام يبحث عن معطفه. ضج المبنى بهدير المصعد الكهربائي نازلاً الى الطابق الارضي. جمد وجه صديقي. نقل نظره على وجهي. ارتبك:
« من يكون الآتي في مثل هذه الساعة وليس في المبنى غيرنا؟».
إختنق بآخر كلمة. ارتدى معطفه بسرعة. فتش عن سيجارة في علبة السجائر. سحبها. حشرها في زاوية فمه. نسي ان يشعل رأسها.
بقيت هامداً. اتابع بأذني حركة المصعد. الان توقف. بابه الجرار فتح بعصبية. الباب انغلق. ماذا ينتظرون. هدر المصعد من جديد. تثاقل في صعوده. وصل الطابق الاول. جف حلقي. افرغت كوب الماء فيه. ارطبه. انتظرت ان يتوقف. ان يحدث بابه الجرار جلبة عند فتحه. لم يتوقف المصعد. بقي يهدر صاعداً يتثاقل في صعوده. يئن ويعن. وصل الى الطابق الثاني. توقف. فتح باب المصعد الجرار. لاذ صديقي بالصمت. زحف الذهول على وجهه. احتله. استقر في عينيه. بقي هامداً. لا يقوى حراكاً. كلمته بعيني. حاولت ان اسرب منهما اليه عدم الاهتمام والمبالاة.
دعسات متمهلة نقرت على بلاط الممر. كانت تقترب منا. رويداً... رويداً. رجل. رجلان. انهما دعسات رجلين. تمهلا امام الباب. نزلت قبضة احدهما عليه بخفر. تراجع صديقي عن الباب. صرخنا:
« تفضل ...».
سد الباب رجل ضخم الجسم. عريض الكتفين. واسع الصدر. قفز فوق الخمسين بسنوات. كث الشعر. عيناه لا تستقران على حال. ترقصان في محجريهما. خلفه انتصب شاب في مقتبل العمر. طويل القامة مبسوط الملامح. بدا معتدا بشاربيه. فلا يبطل في تمرير ابهامه عليهما.
أينعت ابتسامة. قطفها الرجل المسن بشفتيه الغليظتين، فاهتزت لها ملامح وجهه:
« من منكما الاستاذ غسان ؟».
« أنا هو...»
ابتلعت باقي الكلام مع ريقي:

« اتسمح بكلمة؟».

فتح الباب. انتظرني ان اخرج منه الى الممر. اقفله بعدي. بقي الشاب مع صديقي داخل المكتب.

مد يده الى جيب سترته الداخلية. اخرج منها ورقة مطبوعة على «الستنسيل» المعروف جيداً. فتحها. ابقاها بين اصابعه. قربها من عيني. اذكر انني قرأت فيها شيئاً عن الاستخبارات العامة وفرع «الامن الداخلي» وانني مطلوب «للتحقيق» وذيل الملازم اول ابراهيم بركات، رئيس فرع التحقيق، الكلام بتوقيعه.

ألقى العنصر المسن السيجارة على الارض. فركها بحذائه. لفني الاضطراب. من امامي وجه زوجتي. سمعت صوت أمي ينـاديـني. طـافت فـي رأسـي وجـوه كثيرة. ما عدت تبينت ملامحها. سالت نظرات الرجل على وجهي. اطلق سعالا حاداً من صدره. حركني:

«متى أذهب؟»... كف عن السعال فجأة. استرد نفساً طويلا:

« فوراً اذا سمحت. ولمدة نصف ساعة فقط».

استمهلته كي اتدبر اموري في المكتب. لم يمانع. وكأنه تذكر. تسارعت الكلمات على شفتيه:

« هل معك سيارة؟».

« لا ... لا...».

« اذن .. ننتظرك في الطريق بسيارتنا».

سألني صديقي بعينه قبل فمه ألف سؤال. انكببت على اوراقي اجمعها وأنا اكلمه:

« الاستخبارات تريدني. قد اذهب ولا أعود. فانتظر حتى الثامنة والنصف وبعدها اتصل بعبد الوهاب قطرميز. لكن اياك ان تخبر زوجتي او امي او شقيقاتي».

نزهت عيني في المكتب للمرة الاخيرة. أطفأت النور فيه.

تلعثم صديقي. غاصب الكلام:

« لا تخف .. لا تخف ستعود قريباً».

IV

قرصني البرد. ارتعشت. ربيع الشام يَعدُ بالبراعم وفي الليل يعشق البرد. تسترت بالمعطف السميك. اصطدمت اصابعي وانا احشر يدي في جيب المعطف بعلبتي سجائر. واحدة «ونستون» فيها خمس سجائر، والثانية «فايس روي» لم افتحها و35 قرشاً سورياً لا غير.. ضحكت. اقترب العنصر المسن مني. مشى امامي الى حيث سيارة «لاندروفر» تحمل لوحة سوداء غريبة الارقام. قفز الشاب من السيارة. فتح بابها الخلفي. جلست. جلس الى جانبي. بينما الرجل المسن احتل المقعد الى جانب سائق يزين وجهه القاسي الملامح بشاربين معقوفين كسيفين عربيين. رمقني بنظرة وشت بالاستهزاء. حك رأسه. ادار المحرك. هدر.

حمحم. أطلق العنان للسيارة.

لا أذكر اننا توقفنا على اشارة ضوئية حمراء. كانت الطريق مفتوحة امامنا. في شارع البرلمان وفي ساحة 17 نيسان و.. بالكاد رأيت سيارات في شارع بغداد. المسافة بين مكتبي ومكتب الاستخبارات بانت سريعة. كالمسافة بين الحرية والسجن.

وصلنا ... وصلنا.

رَبَتَ العنصر الشاب على كتفي. فرقعت ضحكة السائق. قطب لها العنصر المسن.

انتصب المبنى امامي. طوابق ثلاثة عدا الاقبية والطابق العلوي «الروف» احتلتها ادارة الفرع الداخلي للإستخبارات العامة التابعة لمكتب الأمن القومي.

مد العنصر المسن الخطوات امامنا. ابتلعت بخطواتي دعساته المتسارعة. خاطب بغمزة من عينه اليمنى عنصر الاستعلامات. ظننت اننا سنتوقف عنده. لكزني العنصر الشاب من كتفي. شدني من ذراعي. لحقت بهما.

هبطنا درجاً. سرنا في ممر ضيق. فتح فمه على ردهة صغيرة خالية من الاثاث. حيطانها مقشرة لم تذق طعم الدهان ولا مرت على أرضها مكنسة. يتدلى من سقفها الاغبر شريط كهربائي تجمعت عليه ذبابات ميتة. في آخره لمبة تلفظ ضوءاً شحيحاً يعارك العتمة ولا يقوى عليها. في وسط الحائط باب مغلق.

« إستلم الأستاذ منا ... يا عبد العزيز».

قال العنصر المُسن. حرك العنصر الشاب زاوية فمه يحاول ان يبتسم. وخرجا.

تقدم مني شاب طويل القامة. نحيف البنية. دقيق الساقين. أبيض الوجه لامع الشعر. أحول العينين. وبحركة سريعة مرت أصابعه على صدري. خصري. رجلي. أخذ محفظة أوراقي. ترك لي ولاعة «الدوبون» والسجائر والـ 35 قرشاً سورياً.

« إنتظر هنا...».

خرج الصوت من فمه رخيماً. نقل خطاه بتوءدة نحو الباب. فتحه واختفى. تأرجحت في مخيلتي الافكار. تراه من ينتظرني خلف هذا الباب؟ لم يغب العزيز طويلاً. فتح الباب. أومأ. دخلت.

إصطف في الغرفة ثلاثة مكاتب على واحدة منها آلة كاتبة في شدقيها ورقة تتدلى وراء المحدلة. تنزل اصابع الموظف على احرفها بسرعة. تتبعها فرقعة ازعجت الموظف الآخر الذي كان يتسلى في حل الكلمات المتقاطعة في جريدة «الثورة» ... بينما كان الموظف الثالث ينكب على الكتابة على ورقة امتلأ نصفها. في زاوية الغرفة تقوقع سرير مغطى ببطانية عسكرية بنية اللون.

« السلام عليكم...».

استدارت رؤوس الموظفين الى مصدر الصوت. تجمعت عيونهم على وجهي. أجاب واحد منهم:

« وعليكم السلام...».

عاد الموظف الى «العزف» على الآلة الكاتبة. ترك الآخر جريدته وخرج. أما الثالث فأشعل سيجارته وارتاح من الكتابة. جلست على كرسي خلف الباب. ازحت الكرسي على مهل الى جانب مدفأة عتيقة. تلذذت بلسع حرارتها. دغدغتني. شعرت انها تسحب البرودة من رؤوس اصابع قدمي. ألح علي إدماني على التدخين. سحبت سيجارة من علبة الـ «ونستون». اخذت نفساً طويلاً منها. قطع علي تلذذي بها صوت اقترب من الباب. استنفر له الموظفان. انعجقا بالحركة. تثاءب الباب. فتح فمه. اطل منه رجل قصير القامة. أبيض الشعر املسه. عيناه غائرتان في محجريهما. ترك تحت انفه شعيرات بيضاء اجهد النفس في ترتيبها. فتش علي بعينيه اولاً. وقف أمامي كأنّه لا يعرفني:

« أنت غسان زكريا؟».

«... أنا هو».

«أنا المساعد تيسير... قل لي أين تقطن؟».

أجبته. تابع اسئلته بوتيرة سريعة:

« هل زوجتك في المنزل؟».

« لا ... مع طفلتي في زيارة عائلتها. كان من المفروض أن أعود بهما بعد نصف ساعة».

لم يهتم. تجاهل جملتي الأخيرة:

«نريد ان نفتش البيت. هل من مانع؟».

غالبت ابتسامة كادت تفضح ما يجول في رأسي. هذا الرجل يسألني بتهذيب مفرط ان كنت امانع في تفتيش بيتي. أما كان من الأفضل لو سأل نفسه أما من مانع قانوني لجلبي أنا بالذات؟

لاح الإنتظار في عينيه. أسرعت في الإجابة:

«أبداً.. ها هو المفتاح».

أخرجت علاقة المفاتيح من جيب سترتي. إبتسم. قال:

« لا ... ستذهب معنا ».

أومأ الى الباب. وقفت. انبسطت أساريره. فتح الباب. خرج. تبعته. لحق بنا عبد العزيز الى سيارة «اللاندروفر».

رمقني السائق بحنق والغيظ يرقّص شاربيه المعقوفين كأنه يريد ان يقول: «ماخلصنا منك بعد»؟

V

توقف المساعد تيسير عن الحديث. تبين له وهو يمد يده على علبة السجائر انه تفوه بعبارة لا معنى لها. شعرت أنه لام نفسه من تغير لهجته. بدا لي لا يجيد الحديث إلاّ بما حفظه عن ظهر قلب. دارت نظراته في المنزل. لملم بعينيه زواياه. ترك لأصابع عبد العزيز أن تفتش. أن تقلب الأثاث. دواليب الملابس. أدراج

المكتب. الملفات. الأوراق ورقة ورقة.

تابعت حركات عبد العزيز بعيني. كتمت غيظاً كادت تفضحه ملامح وجهي:

«أليس بين كتبك كتب حزبية. مقالات. منشورات تحريضية. شعارات. بطاقات حزبية. زوابع؟».

كانت أصابعه الغليظة تمرق على الكتب في أرفف المكتبة، كتاباً... كتاباً.

تجاهلت تصرفه الأرعن. تصنعت عدم فهم السؤال:

«أي كتب ... أي منشورات وأي زوابع؟».

حرك شدقيه بحركة غريبة. وشت عن غضب مقيم. رفع حاجبيه الكثيفين، ولكنه أرخى عينيه في إستهزاء وسخرية:

«هذا الحزب القومي الذي أنت فيه يا أستاذ لا ينفع ولن ينفعك أنت بالذات. فحاذر اللعب بالنار فقد تحرق أصابعك».

تمالكت نفسي. حاولت ببرودة إحتواء نظراته التي بانت فيها إمارات الغضب والإمتعاض:

«إن كنت تسأل عن كتب قومية. فأنا احتفظ بأربعة منها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً».

بسرعة سحبت من بين الكتب التي تغص فيها الأرفف: «نشوء الأمم»، و«نحن ولبنان»، و«الصراع الفكري في الأدب السوري»، و«الإسلام في رسالتيه». انتشلها من يدي بغضب. قلبها مراراً. عدت أقول:

« هذا ما عندي، أما المقالات والمنشورات والشعارات و... الزوابع. فهذا بيتي أمامك وقد بدأ زميلك بتفتيشه».

إنتفخ بالزهو. مر على عينيه بريق الإنتصار. يحمل في يديه ما يدينني. تظاهر بأنه لم يكتف. مد يده على أرفف المكتبة من جديد، بدأ يرفع الكتب عنها، يقلب صفحاتها بسرعة. ثم يرمي بها على الأرض. وقعت بين يديه صورة لي مع الأمير علي خان. أطلق ضحكة:

«لافرق بين الصحافي وموظف المخابرات ...».

رآني مندهشاً اتحفز للجواب فخطفه من بين شفتي:

«تدخلون مثلنا بيوت الناس. تعرفون عنهم كل شيء، تهتكون أسرارهم».

خفتُ أن أثيره بردي عليه: «نحن لا نؤذي احداً ولا ندخل بيوت الناس من دون استئذان ونعتقل من دون حق». تسترت وراء ابتسامة شعر انها خبيثة. فغير الحديث.

إتجه نحو عبد العزيز بنظرة مستفسرة. هزَّ العنصر رأسه. أبصرت الغضب يملأ عينيه. إرتعش داخلي. غمغمت بسري «ماذا بعد ... ماذا بعد».

إنتحى به في زاوية غرفة النوم. زحف نظري على الباب أتوق الى من يطرقه لمن يباغتني بزيارة فيعرف أنني «أسير المخابرات».

« تفضل معنا ».

نهرني المساعد تيسير.

«الى أين؟».

سألت ببلاهة و... خرجت.

VI

عَبَّ الموظف دخان سيجارته. نفثه على مهل. لحقه في عينيه وهو يتناثر في فضاء الغرفة. تمايلت بخصرها أمامه. لفت جسدها النحيل بفستان ضاق عند الخصر. لعبت أصابعها بخصلات شعرها المنسدل على كتفيها.

سخا في مغازلتها. تنبهت الى العيون في الغرفة. مالت عليه. سحبت من يديه. تناولت ملفاً عن المكتب و.. خرجت.

لحقها بعينيه. تنهد. تيقظ. كأن عيوننا قد لسعته. رمقني بحنق. إبتسمت. تنسل غضبه. أحسست بارتعاشة باردة. قربت الكرسي اكثر من المدفأة. تحرش بي الموظف:

« عدت اذن؟».

إكتفيت بهز رأسي. ظل ينتظر الجواب:

« أعادوني بعد تفتيش بيتي...».

لم تعجبه كلمتي الأخيرة. تغير لون وجهه. ندم أنه تحدث إلي. لعبت في فكرة الظنون. خاف أن أسترسل في الكلام معه أن يتهم بأنه على معرفة بي. عاد الى أوراقه. ضحكت.

ومضيت أعد الدقائق. مرت أمامي الصور متتابعة:

زوجتي. طفلتي. أمي... هل أخبرهم صديقي بأنني هنا؟

هدني التعب. تكومت على الكرسي. غفوت.

الساعة العاشرة والنصف. هزني الموظف. رفعت رأسي المثقل. رأيته يبتسم. فتح الباب. وقف العنصر عبد العزيز ينقل نظره علي وعلى شخص آخر خارج الغرفة:

« الملازم غادر المكتب الآن. سننقلكما الى مكان آخر حتى الصباح».

وأشار إليّ أن ألحق به. في ردهة البناء التقيت للمرة الأولى المحامي عمر أبو زلام. كان يرسم الإشارات بيديه. يعترض بصوت جهوري على توقيفه من دون أسباب موجبة ولا مذكرة توقيف.

تناوله العنصر بين ذراعيه. جره الى الخارج. دفع به الى سيارة «اللاندروفر» ذاتها. جلست الى جانبه، والعنصر عبد العزيز الى جانب السائق. مرر سبابته على شاربيه المعقوفين. إنتظر إشارة من عبد العزيز. أدار المحرك. وترك السيارة تقضم المسافات. تسلل عبر الحارات الضيقة. عبر «باب توما» و«الشاغور». ولم يخرس محركها إلاّ أمام بوابة حديدية طويلة. قرأ عمر أبو زلام في عيني إستفسارا مريراً. لكزني. همس: «إنه سجن الشيخ حسن».

مَدَّ العنصر عبد العزيز قامته الطويلة باتجاه سيارة «تاونوس» خمرية اللون. انحنى. ادى التحية للضابط الجالس في المقعد الخلفي. تحدث اليه. لم نفهم ما دار بينهما. فتح الضابط باب السيارة. تمهل في مشيته نحو البوابة الحديدية.

انهال العنصر عبد العزيز بقبضته عليها. اطل شرطي من سطح المعتقل. صاح:
«من؟ من هناك؟».
« الملازم ... الملازم. إفتح».
طلع صوت العنصر عبد العزيز.
فتحت من البوابة نافذة صغيرة. أطل منها وجه شرطي آخر سرعان ما تحركت بيده المزاليج وفتحت البوابة.
دخل الضابط. لحق به عبد العزيز. بقيت البوابة مفتوحة. ضاق صدري. أحسست بالاختناق. دقائق حسبتها دهراً. عاد العنصر عبد العزيز الى سيارة «اللاندروفر» أومأ. نزلنا عمر أبو زلام وأنا. مشى. تبعناه الى البوابة. دلفنا الى دهليز طوله أربعة أمتار. في طرفه الأيسر بوابة حديدية وفي نهايته باحة مستطيلة الشكل مساحتها لا تزيد عن الخمسة عشر متراً مربعاً.
في طرفها الجنوبي الأيمن باب خشبي يفتح على غرفة. وفي طرفها الشرقي باب خشبي آخر يفتح على حمام. أما الطرف الغربي – الجنوبي فقد ارتفع باب يخفي المراحيض ودهليز يقود الى بابين لغرفتين. وفي الطرف الشمالي منه مدخل لسلم يصعد الى الطابق الثاني.
وقف العنصر عبد العزيز أمام مكتب. توقفنا. نقر على بابه. سمعنا صوتاً خشناً دخل. دخلنا. انتصب بقامته المديدة أمام الملازم. تحول الى تمثال. ابتسم لنا الملازم. حاول تبديد ما كان علق في أذهاننا ونحن نقطع الدهاليز والممرات اليه. أبدى أسفه لحضورنا عنده لحساب الإستخبارات. في وقت متأخر من دون معرفة منه لسبب حضورنا:
«سأترككما الان هنا، حيث سيقوم المسؤول أبوعدنان ببعض الإجراءات. وغداً أراكما ».
أسرع في الكلام وفي الخروج من المكتب. لحق به العنصر عبد العزيز. وبقينا ننتظر.
«إذن نحن هنا لحساب الإستخبارات ؟».
همست. إلتقط عمر أبو زلام كلامي وعلّق:
« لكل جهاز أمن في هذه الدولة سجنه ومعتقله. والكل يا صاحبي من فوق الى تحت فاتح لحسابه».
تسليت ونحن ننتظر المسؤول في تنزيه نظري في الغرفة. على المكتب الصغير جهاز هاتف. شعرت وأنا أراه بالراحة. اعتقدت بسذاجة أنه همزة الوصل بين السجن والحرية. في زاوية الغرفة سرير حديدي، وجهاز كهربائي تخرج من خاصرته عدة اسلاك، وعصا الفلق وبعض قضبان خيزران.
أعادني صوت العنصر ابو عدنان الى صوابي:
« يا إخوان اعطوني كل ما معكما من آلات وساعات وربطات عنق وأشرطة أحذية وأحزمة وأدوية ومحافظ وأوراق...».
كرت كلماته متسارعة. صاح به عمر أبو زلام:
« ولكنني مريض. أحتاج الى حبة دواء كل ساعتين، فكيف تأخذه مني؟».

بقي العنصر صامتاً. إنتعش عمر أبو زلام. ظن أنه أثّر بلهجته الحارة على العنصر. ظن نفسه امام قوس محكمة. بدأ يرافع:

«ألا يكفي أنكم جئتم بي الى هنا من دون مذكرة توقيف. منتهكين ابسط قواعد الدستور والحرية والديموقراطية. ثم ... ان لدي دعاوى للناس. ومكتب محاماة، ماذا سيقول الناس عن محام يختفي هكذا فجأة؟».

جحظت عينا العنصر. وقف. أزاح الكرسي برجله. إصطكت أسنانه فتقلصت شفته السفلى. تضخمت عروق رقبته وهو يتكلم:

«بلا غلاظة ومجادلة. أخي ... لقد أتوا بك الى هنا. وسلموني إياك مع الأخ (وأشار إلي) وأنا أنفذ الأوامر لا أضعها.. هل فهمت. أما الدواء فسيصلك كلما طرقت على الباب».

شعر العنصر بالزهو لما إمتقع وجه عمر أبو زلام. فأعطى لزهوه مداه:

« محامي. محاماة. دعاوى وغير دعاوى موشغلي أخي. فهمت؟».

تناول العنصر قضيب خيزران ضرب الهواء به:

« هل جلخوكما قبل مجيئكما الى هنا؟».

لوّح بقضيب الخيزران مشيراً بيده إشارة «التجليخ» أي سنّ السكاكين والأمواس على حجر الصوان.

بلعت ريقي. سكت عمر أبو زلام. أبصرته يحدق بي من زاوية عينه.

صاح العنصر بشرطي وقف على الباب:

« إفتح للصحافي باب الجماعي تحت، وللمحامي باب الجماعي فوق...».

III

قاووش أبي عدنان

I

غلا الدم في رأسه وفار. إنتفخ وجهه بالحنق . تورمت رقبته. نفرت العروق منها. رفع قضيب الخيزران بعصبية. ضرب به الهواء. أحدث صوتاً أشبه بالعنين. هوى به على حذائه. غمغم بكلمات لم نفهمها. صرخ بالشرطي أن يحضر مرة ثانية. تحول نظر عمر أبو زلام الى الباب . لحقت حركة رأسه بعيني.

ساءه أن لا يلبي الشرطي بسرعة. كان يريد منذ اللحظة الأولى أن يرينا سطوته. أن ينشر في أعصابنا هيبته. يحاول أن يفهمنا أنه سيد «الشيخ حسن» الآمر الناهي. لا قبله ولا بعده من يضارعه في الحزم والهيبة والسطوة. أفشل الشرطي خطته. ضاق بالإنتظار. شعرت أن وجهه ازداد انتفاخاً. أنه سينفجر في أية لحظة فوق كتفيه.

مسح وجهه بمنديل. إمتص آخر نفس من سيجارته. خرج الدخان من أنفه. لحس شفته السفلى. رمى السيجارة على الأرض بعصبية. فركها برأس حذائه. أدار لنا ظهره. عاد يتمتم. إستدار بسرعة كأنه كان يريد أن يرى تأثير حركاته علينا. مشى الى الباب بدعسات تلوي تحتها بلاط الغرفة. فتح الباب. مدَّ رأسه منه. صرخ:

« مُتْ بغيظك. تضاءل أمامي. تكوّر... تكوّر مثل أفعى تلعق جراحها وتموت بسمها».

راجعت هذه الكلمات بسري إنتشيت بها. تحركت ابتسامة من زاوية فمي امتدت على شفتي. أبصرت عمر أبو زلام قد انفرجت أساريره. لكزني. انتشى هو الآخر بمرآى السجاَن وهو يتلوى حنقاً.

دفع الباب بقوة. دوى صوته. عاد الى قضيب الخيزران بحركة عصبية ازدادت وتيرتها. سمعنا قضم حذاء على الأرض. دعسات مهرولة تقترب من الغرفة. نقر خفيف على الباب. جحظت عينا أبي عدنان. تنبه. إستيقظت فيه شهوة غريزية لرد اعتباره أمامنا. رَعَدَ:

«تفضل ...تفضل لشوف».

شق الشرطي الباب على مهل. أزاحه عنه. إنتصب مرتجفاً مثل قصبة سكر ممصوصة. قصير القامة. نحيف الجسم هزيله. خفيف الشعر أملسه. ما طَرَّ شاربه بعد. مسح الوجل الملامح عن وجهه فتركه شاحباً. خرج صوته مهزوزاً:

« أمرك سيدي...».

إعتز بآخر كلمة. جلس فوق قمة الدنيا. رمى علينا نظرة خيلاء. وصلتنا معانيها ودلالاتها واضحة. استرجع غيظه. تجمع كله في عينيه المحمرتين. في قبضته المشدودة على قضيب الخيزران الرفيع والقاسي. هوى به على كتف الشرطي بقوة: اهتز جسده النحيل. ظل واقفاً. بلع ألمه. جرّحت عينيه دمعات تجمدت فيهما. حنى رأسه بذلّ ظاهر. أرعد أبو عدنان:

«مرة ثانية سأكتفي بالهمس فتحضر... فهمت .. فهمت يا (...)».

« حاضر... حاضر سيدي».

لم يكتف. نزل بقضيب الخيزران على كتف الشرطي الواقف أمامه مثل قصبة ممصوصة مرة ثانية. عاد الشرطي يتلوى من الألم. خارت قواه. ما عاد إستطاع ضبط أعصابه فأخذ يصرخ من دون وعي منه:

«أمرك ... أمرك سيدي. أنا داخل عليك يا سيدي... إرحمني ...داخل عليك يا سيدي».

شعرت بالاختناق. بحاجة الى الزعيق. طرزت جبيني حبات عرق بارد. مسحتها بسرعة بيدي. وددت لو انتزع قضيب الخيزران من يد ذلك الرجل الأرعن القاسي القلب. أن أنهال عليه ضرباً وركلاً. أحسست بألم حاد تكمش في صدري. تشنجت أعصابي. شعر عمر أبو زلام باضطرابي. مال عليّ. شد على يدي همس:

«لا تتحرك من مكانك...».

ردّني الى صوابي. رمى أبو عدنان قضيب الخيزران من يده. حرك قبضته مرات عدة. فركها. كأنه يريد تسييل الدم في الشرايين بعد انحباس. سحب سيجارة «أمية» من علبة سجائر كانت مرمية على مكتبه. أشعل رأسها. دفنها بين أصابعه. عبّ نفساً طويلاً منها. إنتشى بالدخان الخارج من فمه وأنفه. خطف كلامه خطفاً:

« أنت يا أخ (أشار إلي) تفضل معنا. وأنت يا أستاذ (أشار الى عمر أبو زلام) إنتظر هنا حتى أعود...مفهوم؟».

ضغط عمر أبو زلام على يدي مرة ثانية ونشر على وجهه ابتسامة.

توقع أبو عدنان جواباً. اكتفى عمر أبو زلام بهز رأسه. هَمْدَرَ أبو عدنان. إزداد انتفاخ وجهه من الغيظ.

II

حشر الشرطي رأس المفتاح في القفل. فتحه. أدار مفتاحاً ضخماً آخر في الباب الحديدي. حشرج المفتاح وهو يكمش بأسنانه القفل. رفع الشرطي مزلاجاً مدّ لسانه الطويل من الباب الى الحائط. فتح قفلا ثانياً. أزاح الباب الحديدي. دفن المفاتيح في جيبه. انتحى جانباً. افسح الطريق لابي عدنان. مدّ خطوات متمهلة امامي. لحقت به. تبعنا الشرطي.

أبصرني الشرطي ارمي عليه نظرة حانية. بادلني بابتسامة خجولة وددت ان اهون عليه. ان اسأله عن وجع كتفه. سعل ابو عدنان. استرددت الكلمات التي وقفت على شفتي. أكملت السير خلفه.

لا أعرف ماذا انتابني عندما دخلنا ممراً طوله لا يزيد عن المتر الواحد. فتح فمه المعتم على ممر آخر. رائحة العفن المتسربة من حيطانه الرطبة المشققة ردتني الى صوابي. ماذا افعل هنا؟ اي ذنب اقترفت؟ الى اين يسير بي هذا السجان القاسي القلب؟

انقبض قلبي. تولاني الذهول. غامت الاشياء من امامي لحظات. شعرت برعدة. بخوف غامض. تيقظت كل حواسي. اغمضت عيني ارتب الصور المتلاحقة في رأسي. ترى هل عرفت زوجتي باعتقالي؟

كيف ستتدبر امرها مع طفلتي؟ وامي كيف ستتلقى الخبر؟

عاد بكاء طفلتي أورنينا يرنّ في رأسي. ارتعش داخلي. انتابت أبا عدنان نوبة سعال حاد. كاد أن يغمى عليه من شدة السعال المتمسك بحلقه، وبحركة سريعة بصق على الأرض بلغماً. أحسست بالتقيؤ. تعجل في خطواته. تسمر أمام باب حديدي كبير. ركض الشرطي لما رآه توقف. أحس بلسع قضيب الخيزران على كتفه. خاف ان يجعله ينتظر. أخرج المفاتيح من جيبه بحركة عصبية. بالكاد تمكن من ادخال رأس المفتاح بالقفل. إرتبك. أزعجه ارتباكه. إمتقع وجهه القاسي الملامح. حاول مرة ثانية اخفق. فلقد عصي المفتاح على اصابعه. هَمْدَرَ أبو عدنان. دفع الشرطي الشاب جانباً. أبعده عن الباب. عضّ على لسانه وهو يحرك المفتاح بين أصابعه. ابتسم أبو عدنان. فلقد انتصر على الباب. فتحه. دفعه بقبضته. فأفرج الباب عن غرفة واسعة. وقف على الباب كأنه صاحب نزل شعبي يرغّب الناس بغرف نزله:

« تفضل أخي .. تفضل قاووش أوقلي 5 x 6 أمتار. كل شيء فيه».

وشى فمه بابتسامة هزء صفراء. بادلته مثلها. تنبه لها. استرد بسرعة وقاره. تحفزّ. قطب. أشار بيده. دخلت وقف الى جانبي يسرح النظر «بنزلاء» قاووشه:

«يا إخوان .. ديروا بالكم على الضيف الجديد!».

قطع كلماته بنبرات حادة. ربّتَ على كتفي. خرج. دارت المزاليج والأقفال خلفه.

III

أمسكوا وجهي بعيونهم.

على الأرض وفوق حصر من القش. تمدد على بطانيات عسكرية قاتمة اللون ستة اشخاص اصغرهم سناً كان في بداية العقد الثالث من سنيه.

«مرحباً يا شباب ...».

همدروا دفعة واحدة:

« مرحباً ... بالاخ».

غادرت عيونهم تفاصيل وجهي. تفلّت من انتباههم. ابتسم لي شاب كان يجلس في زاوية الغرفة. خلعت معطفي. امسكته بيدي اليسرى. نزعت حذائي حملته باليمنى. مشيت خفيف الوطء على الحصر باتجاه الشاب. سحب بطانية كانت مطوية الى جانبه. فرشها لي بمحاذاته. جلست فوقها واسندت رأسي الى الحائط.

في الزاوية حيث جلست. بانت الغرفة واسعة. على حيطانها المشققة العالية كان يتكيء سقف كلح من الرطوبة صار موشى ببقع عفن خضراء وسوداء يتجمع عندها الغبار والدخان. اعمى من كل بصر الا من كوة في وسطه يشرئب منها النور.

تسمع بين الفينة والفينة ضجيجاً يميت سكون الليل. خلف تلك الحيطان العالية حيطان أخرى. مساجين يعدون ايامهم بالطباشير البيضاء. كل يوم بخط أبيض صغير. على حيطان السجون يعلق المساجين اعمارهم وينتظرون الوقت.

تتذكر ان هذه الغرفة الواسعة هي ضمن سجن رهيب. وسط مقبرة من أكبر مقابر الشرق الادنى. في احشائها رفات معاوية الاول والثاني وعبد الملك بن مروان وشكري القوتلي و... جميل مردم بك.عاد الذهول يتمشى في عيني. إمتلأ رأسي بالاسئلة. استعرضت في لحظات ما جرى. طاف وجه المساعد تيسير في ذهني. تخيلته امامي يهز رأسه حنقاً. يجتر كلامه:

«كتب. مقالات. شعارات. زوابع»

تطن كلماته: «هذا الحزب القومي الذي انت فيه لا ينفع .. حاذر اللعب بالنار».

«الحزب القومي». تحركت هذه الكِلمة على لساني مرات عدة. تذكرت يوم رفعت يدي في السادس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) 1952 اقسم اليمين واتعاقد مع زعيمه ومؤسسه. مرت أمامي مئات الوجوه. إعتقالات. مداهمات. سياط تنزل على الظهور المشققة. «الالام تجوهر الحزب». أحسست بالاعتداد. أنا هنا لانني قومي إجتماعي. جاء دوري لادفع ما سدده غيري قبلي في السراديب والسجون والمعتقلات ثمناً للايمان بعقيدة تساوي وجودهم.

ارتعش داخلي. هبت نسمة «آذارية» لاسعة من كوة السقف. لفحت الغرفة. اصطكت لها اسناني. مرت على انفي روائح المرحاض. شعرت بالغثيان وبحاجة للتقيؤ. مشى على البطانية صرصور معسه الشاب بقبضته.

IV

كان متكئاً فجلس. يرتدي «منامة». يعتمر طاقية صوفية سميكة شغلت بالسنانير. سترت رأسه. اخفت تحتها شعره الاسود المجعد. اكلت نصف جبينه. براق العينين اسودهما. لا ترتاحان من الدوران في محجريهما. علاهما حاجبان رفيعان بدا من قسمات وجهه المرتاحة انه استلان خشونة السجن. تدثر بأكثر من بطانية وظل يرتجف من البرد. الى جانبه علبة محارم ورقية «كلينكس» وثلاث علب سجائر «لاكي سترايك».

«هنا في «الشيخ حسن» كلينكس ولاكي سترايك»! تمتمت بسري. اهتاج فيّ ولعي بالتدخين. سحبت السيجارة الاخيرة من علبة الـ «ونستون». حبستها بين شفتي. فتشت عن الولاعة. لم أجدها. سحب عود كبريت. حكه على المساحة البنية في العلبة. اشتعل. وقفت يده امام رأس السيجارة. اخذت نفساً طويلاً تبددت الصور مع الدخان المتراقص امامي. تملأني. زحف نظره على وجهي. تجمع في كلامه سؤال ألحّ عليه:

«مين ... الأخ؟».

أجبته بنبرة اردتها متزنة. هادئة. تبينت من عينيه انه لم يعجبه جوابي. فهو لم يكن يفتش عن اسمي ومهنتي وعنوان بيتي ومكتبي. إنما عن شيء آخر:

« في أي تنظيم أنت؟».

جاءني سؤاله متقطعاً. ارتبت به. دار نظره في وجهي يتلهف على الجواب:

«لقد سئلت خلال تفتيش عناصر الاستخبارات لبيتي. عن كتب حزبية. مقالات. شعارات وزوابع للحزب السوري القومي الاجتماعي».

سوى من وضع طاقيته على رأسه. مسح فمه بابهامه. اشتعلت اللهفة في عينيه تستعجل الكلام من فمي:

«منذ ان حل الحزب سنة 1955 بعد مقتل العقيد عدنان المالكي. توقفت عن نشاطي الحزبي.

ظننت اني احتلت عليه. وشت عيناه بالخبث. يعرف انني اكذب .. استدركت:

«لا شك انهم يعرفون أن ارتباطي بالحزب قد انتهى. فلا شيء يخفى عن الاستخبارات، أليس كذلك؟».

جاءت الفرصة ليكشف نفسه. ليكسر البرقع الذي يخفي خلفه وجهه الحقيقي. أكملت بسري. لم يرتبك. تجهم وجهه. كأني رميت في مستنقعه حجراً. وجد نفسه يقول بغضب:

« بلد زفت... لا يريدون من يقول ويعترض. بلد عسكر و...حرامية».

امتدت يده الى علبة الـ «لاكي سترايك». لعبت السيجارة بين اصابعه. امتصها. تغرغر بدخانها. نفثه بعصبية. قلت بلهجة المقتنع:

«أعتقد انني هنا بسبب زياراتي المتكررة لعصام محايري».

التفت شاب يكنى بأبي عمر، كان يجلس القرفصاء ناحية الصوت. وقف.

فرقع عظم سلسلة ظهره. تقدم مني. قال بلهجة وشت بالزهو:
«الأستاذ عصام محايري قلت. النائب والمحامي عصام المحايري عنيت في كلامك؟».
هززت رأسي بالإيجاب. استرد نفساً طويلاً. قال:
«عصام محايري كان معي قبل ان باغتونا في القاووش ذات ليلة ونقلوه الى «الفرع الداخلي» وهناك عدت والتقيت به ثانية. كان مرهقاً. هادئاً. يبتسم باستمرار».
«هل هو الآن هنا؟».
وضحت على وجهي لهفتي. قلب شفته السفلى. حرك كتفيه بحركة غريبة تشدق الكلام:
«لا أعتقد ... لا أعتقد. أظن انه مازال في «الفرع الداخلي» أو... في مكان آخر، من يدري؟».
اغتاظ لتدخل الرجل في الحديث. نهره بعينيه. عاقبه بنظرة فهمها الرجل. ابتعد. استدار. عاد الى بطانيته. وتمدد فوقها.
ارتد نظره اليّ. لوى عنق سيجارته. مرغ رأسها بالأرض. مد يده مصافحاً.
«أنا المحامي مزيك (ما عدت اذكر اسمه الأول) من حلب. اعمل في مكتب الأستاذ عبد الفتاح الزلط. أعرف هنا بـ «ابو عبدو».
تنحنح. همدروا. هززت يده مصافحاً. عاد يخطف كلماته خطفاً:
«قبل ان تسأل، انا اشتراكي التنظيم. بمعنى آخر أنني أقرب الى الاستاذ أكرم الحوراني مني الى الأستاذين ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار».
تحايلت على قسمات وجهي. نشرت فيها اهتماما. انتشى. أكمل:
«هذا زميلي ميشال غنوم من إدلب، ينتمي الى تنظيم الإشتراكيين العرب، والأخ الذي حدثك عن عصام المحايري هو ابو عمر قومي عربي من دمشق. أما الاخوان (واشار الى ثلاثة تقاسموا زاوية في الغرفة) فهم من عرب اربد في الاردن».
دَبدَبَ التعب في مفاصلي. كانت الساعة تميل الى الواحدة بعد منتصف الليل. شعرت ان الرطوبة تنخر عظامي. أحكمت تبكيل أزرار سترتي. تمددت. أوجعني الحصير الخشن. وسادتي كانت حذائي. أرخيت عليه رأسي. رميت على جسدي معطفي أتدثر به. فتقدم مني البدوي الأردني. رفع المعطف عن جسدي. لفني ببطانية حملها اليّ. فاحت منها رائحة العفونة همس:
«نم... نم ... جرب أن تنام. فالليلة على ما يبدو هادئة حتى الآن».
تلعثمت الكلمات على لساني. عاد يهمس:
«حفلات الضرب والتعذيب تجري كل ليلة. فنم طويلاً لانك لن تنام في الليالي المقبلة».
جرب ضحكة على شفتيه. وجدها في غير محلها. فاسترد عبوسه. تجهم وجهه. عاد الى زاويته.
اقحمت عيني في العتمة. اغمضتهما البرد. يتجمع في ظهري. يشل حواسي.

إنساب موال من فم البدوي. رندحه بصوت خفيض:

السمر قهوة معطرين بهال

والبيض لو فرعن حسرة تهد الحيل

تنهد البدوي حسرة. كان بدأ ينتشي بعشق الليل. اسكته صوت رجل يتمدد الى جانبي. قرصني البرد. شرب النعاس من عيني حتى الثمالة. سكر وسكرت. فنمت.

V

الخميس 14 آذار (مارس) 1968

هزني أبو عمر، أيقظني. أحسست بصداع كأنه سكين حاد يشطر رأسي. حَطَّ النور المنبعث من كوة السقف على وجهي. مر مثل شهب نار في عيني. سحبت حذائي من تحت رأسي. ابتسم ابو عمر:

«صباح الخير..».

طلع صوته مختنقاً بدخان السجائر العابق. استقويت على تلعثمي. تغاصبت على الابتسام. سمعنا جلبة في الخارج. دار مفتاح في الباب الحديدي. تجمعت العيون على الباب. اكمل المفتاح دورته في القفل. همد الجميع. فُتح الباب. سده شاب في مقتبل العمر. رش ابتسامة على وجوهنا. تلقفها الجميع بالهمدرة. صرفوا النظر عنه. لقد اعتادوا عليه، فهو اول من يفتح الباب عليهم واول وجه يرونه في الصباح.

« اسمه يحيى. يأتي كل صباح ليسألنا ماذا نريد ان نأكل؟».

لملم أبو عمر علامات الاستفهام من عيني. «ماذا نريد ان نأكل»؟! راجعت هذه الكلمات بسري. مال ابو عمر على اذني. تابع:

«ان كل واحد منا له «تعيين» 150 قرشاً يومياً. يعني ان مخصصاتنا نحن السبعة عشر ليرات سورية ونصف. نستطيع ان نطلب بها ما نشاء!».

زنت كلماته في رأسي. ضحكت. ماذا يمكن لهذه الليرات السورية القليلة ان تطعم سبعة رجال امضوا ليلاً طويلاً على بطون فارغة الا من لسعات البرد؟

سعل العنصر. شد انتباهنا. سحب ورقة من جيبه. فتش عن قلم. نسي انه وضعه خلف اذنه اليمنى. تذكر. سحبه. هز رأسه. مرّر رأس القلم على لسانه كأنه يريد ان يذيب الرصاص. ضغط عليه بين اصابعه. تحضر للكتابة. قال بصوت جهوري:

« شو الاكل اليوم يا اخوان؟».

شد على الكلمة الاخيرة، انتظر. علت الاصوات. تضاربت النبرات. لم يستقروا على رأي. تنحنح الاستاذ ميشال غنوم. فرض هيبته. سكت الجميع. تكومت العيون على شفتي المحامي. حك رأسه كأنه يريد ترتيب الكلمات فيه. تقدم من العنصر. تملاه لحظات. أعطى العنصر كل انتباهه. قال المحامي ميشال غنوم:

«نكون من الشاكرين لو تفضلتم علينا...».

همدر البدوي الاردني. تأفف واحد آخر. انتبه الاستاذ غنوم انه افرط في تهذيبه. غيّر لهجته. أسرع في الكلام. أعاد ترتيب الجملة:

«نريد زبدة مع علبتي بازلاء ووقيتين من اللحم المفروم وأربعة كيلوغرامات خبز».

كان العنصر يردد خلف الاستاذ ميشال غنوم كل نوع طلبه. انعجق لسانه. سبق يده على الورقة. اختلطت الارقام في رأسه. جمع. ضرب. تبين للعنصر ان المتبقي لنا في ذمته وفي ذمة الدولة ليرة وعشرة قروش. فالتفت إلينا المحامي غنوم قائلاً: «اتريدون فاكهة»؟

«لكان ... لكان أخي ...».

طلع صوت الاستاذ مزيك. لم يعترض احد.ضحك العنصر بخبث. فهم الاستاذ غنوم ماذا يخفي من وراء ضحكته. استدرك:

«إذن يا إخوان، مدوا ايديكم الى جيوبكم. كل واحد يدفع ربع ليرة فوق المبلغ المتبقي لنا فنجمع ثمن كيلو برتقال».

تحمس الاستاذ مزيك. رفع طاقية الصوف عن رأسه. وضع فيها قطعة الربع ليرة. مر علينا واحداً واحداً. مددت يدي على جيب معطفي. دفعت حصتي. بقي معي عشرة قروش.

رنّت القطع النقدية في يد العنصر الشاب. طوى الورقة. اعاد تركيز القلم خلف اذنه. أغلق الباب خلفه. تلوى المفتاح بين اسنان القفل. أحدث صوتاً غريباً.

بدأت الحياة تدب في مفاصل القاووش.

«بالدور .. بالدور يا شباب. بالدور خيو...».

وقف احدهم على باب الحمام الصغير. فحت منه رائحة المرحاض. شعرت بالغثيان. خرير الماء المنساب من قسطل تتمدد على طوال الحائط في آخره حنفية صغيرة تكاد تلامس الارض، (بحيث تضطر الى الركوع على ركبتيك اذا اردت ان تغسل وجهك)، كان ينقطع. فتعلو الاصوات متذمرة، يبدأ احدهم بطرطقة حديد القسطل، فيعود الماء يمشي في جسده المهترىء الذي اكله الصدأ.

انتحيت جانباً. اسندت ظهري الى الحائط. تاه بصري في الوجوه كأنني اتعرف عليها أول مرة. استرعى انتباهي رجل عملاق ممتلىء الجسم واسع الصدر ضخمه. عريض الكتفين. مفتول الساعدين. مجعد الشعر اشعثه. حاد السمرة.مخيف اذا نظرت في عينيه السوداوين وهما تدوران تحت حاجبين كثيفين. يغطي شفته السفلى بشاربين تطل من بينهما شعيراتهما شعيرات بيضاء. بينما ترتخي شفته الغليظة السفلى. كأنه «غول» يطلع من كتب الاساطير. الى جانبه وقف اثنان على شكله وشاكلته في القامة والهيئة. عرفت احدهما. فقد كان البدوي الاردني الذي سحب المعطف عن جسمي ولفني ببطانية.

تقدم مني. بدد كل عبوسه وتجهم وجهه بابتسامة استرخت على شفتيه. بادلته مثلها. بدا لي في لحظات ان تحت هذا الجسد الضخم يختفي طفل. مد يده مصافحاً:

«أبو جاسم من إربد ...».
غرقت يدي في كفه. عصر اصابعي بين اصابعه الغليظة المشققة. زاد في طيبته. بان فيه وجه الطفل الذي يختفي وراء قسماته الحادة. ضحك:
«يبدو انك تزور «لوكندات» الدولة المجانية لاول مرة...».
اعطى لضحكته مداها. ضحك البدوي الآخر على ضحكته. اكتفى الثالث بمصّ عقب سيجارته.
«لا بأس عليك. ستعتاد على كل شيء هنا. بعد أيام ستنسى اين انت. سيصبح من الطبيعي ان تشتم رائحة المرحاض، ان تشاركك الصراصير بطانيتك، ان تأكل في صحن واحد تمتد اليه الاصابع الوسخة تعجن الخبز في المرق. قاوم ذلهم وتحقيرهم لك. لا تجعلهم ينتصرون. لا تجعلهم يميتون فيك الانسان الحر. اما هذه الحيطان العالية. فستراها تنهار حجرا .. حجرا امام عينيك».
سكت، تنبه انه افرط في الكلام. واخذ نفسه انه القى محاضرة في رفع المعنويات امامي. غيّر لهجته:
«نحن تجار جمال، الشام مجال تجارتنا، نقصدها من اربد في السنة الواحدة عشرات المرات. وننزل نحن الثلاثة في فندق تعودنا عليه، فندق «النجاح» في حي السنجقدار بدمشق».
اخذ نفساً طويلاً. انتظر ان اسأله السؤال المعتاد لماذا انتم هنا والى أي تنظيم تنتمون؟ أرضيت الرغبة في عينيه، فعلت، سألته. تحضر للرد عليّ.قاطعه ابن عشيرته كأنه لا يريده ان يتكلم:
«لا نعرف ..رموا علينا تهمة نحن براء منها. لا دخل لنا بما حصل ... نحن تجار جمال فقط...».
ساءه ان يقاطع. نهر زميله بعينيه فابتعد عنا. تنهد. قال أبو جاسم:
«كنا في الفندق. لقد هدنا التعب بعد سفرة طويلة. أظنه كان فجر الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) 1968 عندما استفقنا على دوي انفجار مرعب. عرفنا فيما بعد ان احدهم وضع قنبلة على فم سوق الحميدية. فجأة انتشر رجال استخبارات عبد الكريم الجندي في دائرة قطرها اربعة كيلومترات من مكان الانفجار. كان فندق «النجاح» في قلبها. يفتشون عن الغرباء. فالغريب عادة المتهم رقم واحد. صعدوا الى غرفنا. سحبونا من أسرّتنا. جرونا من مركز الى آخر. من «الفرع الداخلي» للاستخبارات الى «الفرع الخارجي» الى «الامن السياسي» الى «المخابرات العامة». تناوبت علينا سياط الجلادين. «شبحت» اربعة ايام. يتدلى جسدي العاري من سقف غرفة رطبة. اربعة أيام بلا اكل ولا شرب. أبول على نفسي. على مدى ساعات النهار والليل كان جلادون ثلاثة يتناوبون على ضربي وأنا معلق في السقف . ينهالون عليّ بسياطهم المجدولة من اسلاك حادة».
جحظت عيناه. ارتجفت شفته السفلى. بحث بعصبية عن سيجارة. اشعلها. انتشى بنفس طويل منها. ارتاح قليلاً. عبّ نفساً آخر. أكمل:

«في الغرفة الثانية كنت اسمع زميلي يئن تحت لسع سياخ النار على صدره. كلما صرخ. ترجى واستغاث. امعنوا في غرس سياخ النار في جلده. يكررون عليه السؤال ذاته: من كلفك بوضع القنبلة؟ وقد تمادوا في قساوتهم ان ادخلوا زميلي الثاني الى الزنزانة حيث كنت معلقاً بذراعي بالسقف. اجلسوه على كرسي. ألصقوا اشرطة كهربائية تدلت من آلة صغيرة في صدره وظهره وصدغه. اداروا الكهرباء فيها. فبدأ يتلوى مثل الافعى من لسع الكهرباء. حتى اغمي عليه. وأنا لا اقوى على شيء سوى الصراخ. ولم يكتفوا. رشوا وجهه بماء مثلج ولما استفاق من غيبوبته انهالوا عليه ركلا على خاصرته حتى شقوا الجلد وبدأ ينزف دماً. تركوه هكذا حتى الصباح».

احسست بالإنقباض. جفّ حلقي. وددت لو يصمت. رأيت عضة السوط على يده وهو يرفعها في فضاء الغرفة. تصببت عرقاً بارداً. لم ينتبه لشحوب وجهي. عصّت دمعة كدت اراها تغدره. تابع امتصاص سيجارته ومعها كلماته:

«ألمي الكبير يا أخي... عندما أحضروني بعد حفلة تعذيب الى مكتب عبد الكريم الجندي. أومأ الى أربعة كانوا في الغرفة. انهالوا عليّ بالركل والسياط. انهرت. ركعت على ركبتي من الاعياء. سدد عبد الكريم الجندي رجله الى صدري و دفعني. استلقيت على ظهري. فتقدم مني وداس على صدري بحذائه الموحل. لم استطع ان اتحمل الذل اكثر. تناولت رجله بيدي رفعتها عن صدري. انتفضت واقفاً على الرغم من جراحي وآلامي الجسدية. هجمت على عبد الكريم الجندي. احاول ا اطبق يدي على عنقه. انهالت السياط على ظهري. لم ارتد. تستر عبد الكريم الجندي بطاولة مكتبه. صحت به: الرجال لا تجلد الرجال ولا تدوس عليها يا ابا حسين. الرجال تقاتل الرجال يا حضرة العقيد. وما عدت عرفت ماذا حدث. وجدت نفسي في اليوم الثاني في زنزانتي اغرق في بركة من الدم يسيل من جسدي».

«سيادة العقيد الجندي...»، تمتمت في سري. كان نتاج حقد طبقي عاشه في طفولته ونماه في شبابه. مثله مثل سلفه عبد الحميد السراج، سلطان الشام الاحمر، فما كان يطيق تحدياً من احد. استمرأ السلطة واستتبه شرد الاحرار من أجلها. اعتبر ان سحق اي مواطن سورياً كان ام عراقياً، اردنياً فلسطينياً ام لبنانياً، هو بعض من القومية العربية. فما كان يفرق بين اسير واسير. فالنظام البوليسي القمعي الذي اقامه عبد الكريم الجندي وصلاح جديد ومن كان معهما من ضباط تلك الحقبة لم يبق كرامة لاحد. أرعب الجيران وهز عواصم دول الطوق. فما كان غريبا انني رأيت فيما بعد اسرى من تلك الدول. وأذكر فيما اذكر انني التقيت برجل عراقي كان قد امضى عشرة اعوام في زنزانة بمعتقل «الشيخ حسن» قبل ان يفرج عنه بعدما اصابه الجنون والعته. نكر زوجته لما رآها وتنكر لاولاده وهج ... هام على وجهه بعيدا عن عائلته.

ناداه زميله البدوي. سحب نظره عن وجهي. اراحني من عينيه الحادتين. ركض باتجاه الحمام قبل ان يفوته دوره.

VI

رفعت رأسي المثقل. كان النور ما يزال يتوهج من الكوة. بدأت اشعر بمرارة السجن. استيقظت حواسي. انا داخل المعتقل الذي دشنه اديب الشيشكلي وهدمه حيدر الكزبري بعد محاولة التحرر من الوجود المصري، بعدما اعاد تشييده ضباط حركة الثامن والعشرين من ايلول (سبتمبر) 1961، الذين راحوا يتنازعون السلطة والسلطان، يرفعون الدكتور ناظم القدسي(توفي في الأردن سنة 1998)، الى سدة الرئاسة. ثم يختلفون معه. يسحبون تأييدهم له. يزجونه في المزة. لا يجدون بديلاً، يعيدونه من سجن المزة الى قصر المهاجرين مع احر الاعتذارات. يطلقون الحريات. يندمون. يعتقلون فئة اصبحت تتكنى بالناصرية متأثرة باعلام «صوت العرب» واحمد سعيد. الذي حاول ان يظهر «الريّس» جمال عبد الناصر على انه السلطان صلاح الدين الايوبي في القرن العشرين.

لعبت الافكار في رأسي، ودارت التساؤلات، ماذا خلف تلك الحيطان العالية؟ حب الاستطلاع لم تخنقه في اعماقي رهابة المعتقل. عزمت على استكشافه، اردت أن اعرف من فيه وما فيه؟

عاد وجه عمر ابي زلام يقفز امامي. أخذوه الى «الجماعي فوق». كيف السبيل اليه؟ شعرت بحاجة الى التحدث اليه. استمد منه رأياً. نصحاً. مشورة. لعله يفيدني. لعله يعرف ماذا حل بعصام محايري. والف ... الف لعل..

تنسلت هذه الافكار امامي واحدة واحدة... عندما عادت المزاليج للثرثرة. الباب يتحرك من جديد. رجل قصير القامة منبسط الملامح يبرز في وسطه:

« قوموا للتنفس...».

صرخ العنصر عبد المجيد، المسؤول النهاري عن القاووش، «التنفس» لمن لا يعرف، يعني في لغة السجون الفترة التي يقضيها الاسير او السجين، (وشتان بين الكلمتين)، في تطواف في باحة المعتقل أو دوار في دهاليزه، كي يبقى السجين على حالة من النشاط والحركة، تساعده على تحمل ضغوط السجن، فضلاً عن عذاباته وعنفه وقسوته.

انفرجت أساريري. سأكون خارج هذه الغرفة القذرة النتنة. سأهب جسدي للشمس. سيدخل الهواء النقي الى مسام جلدي. سأغتسل بالضوء.

«من سيتطوع اليوم لجمع القمامة من الزنزانات وتفريغ براميل الزبالة؟».

حرك العنصر عبد المجيد شدقيه بحركة غريبة فخرجت كلماته ملتوية. لم أفكر طويلاً. وجدت في «التطوع» فرصتي لاستكشاف المعتقل. لدخول زنزاناته، للتفتيش عن عمر ابو زلام. صرخت بأعلى صوتي:

ـ «أنا ... أنا أتطوع».

تجمعت العيون على وجهي. تحمس الاستاذ مزّيك لكزّ أبا عمر. صرنا ثلاثة.

حملنا براميل الزبالة الكبيرة. مشينا خلف الشرطي، الذي سار بنا الى بوابة حديدية ضخمة. فتحها بمفتاح كبير. مسح آثار الصدأ عن اصابعه. شتم.وقال

كلاما لم نفهمه. وقفت مذهولا أمام ممر طويل معتم. بارد. تفوح منه رائحة العفونة. على طرفيه تصطف أبواب حديدية صغيرة. عددها ثمانية في كل جهة. في وسط كل باب طاقة مستطيلة يفتحها السجان لتمرير الطعام ثم يقفلها. بمزلاج صغير.

توقفت امام باب الزنزانة الأولى. انتظر ان يفتح الشرطي بابها. عضّ على شفته السفلى وهو يدخل المفتاح في القفل. عصي المفتاح بين اصابعه. شتم. اعاد المفتاح الى القفل مرة ثانية. سمع صريره وهو يتكمش بأسنان القفل. انشرح صدره. ضغط على الباب. ركله. انفتح. فإذا بي وجهاً لوجه أمام الدكتور جورج حبش.

IV

وجهاً لوجه مع «الحكيم»!

I

إمتعض الشرطي وتكلف الوقار، هجم ضوء باهت على زاوية الزنزانة، قام الدكتور جورج حبش ففرك عينيه يخفف عنهما وهج الضوء. إقترب مني. أختفت قسمات وجهه خلف شعر لحيته الكثة، تحركت ابتسامة تمددت على شفتيه. رددت عليه بمثلها احسست انه ابتلع كلمة مع ريقه. خاف ان يسمعها الشرطي. فالكلام ممنوع مثل الحرية. تضايق الشرطي. تنحنح. اهتز كرشه. لكزني بعصا غليظة كان يتسلى في مرجحتها بين يديه، فهم «الحكيم». ابتعد. عادَ الى زاوية الزنزانة اليمنى حيث مصطبة عليها بطانية بنية اللون. جلس. كنت اشعر بعينيه ترافق حركة يدي وهي ترتطم بفضلات طعامه التي تركت في الزنزانة رائحة كريهة. ألملمها على مهل وارميها في الكيس. تثاقلت حركة يدي. حمت بنظري على الزنزانة.

كانت مساحتها لا تزيد عن ثلاثة امتار مربعة. في زاويتها اليسرى مرحاض وحنفية يضطر الى القرفصة لاستعمالها ومغسلة صغيرة. حيطانها كانت مليئة بالكتابات،(كما سأروي فيما بعد)، تروي حكايا واسماء الذين نزلوا بها سجناء واسارى منذ ايام اديب الشيشكلي الى ايام عبد الكريم الجندي. لقد علقوا مدة سجنهم على الحيطان وراحوا. في اعلى الحائط الغربي كوة صغيرة يزنرها حديد مجدول مبروم. يكابد الضوء وهو يمر من بينها. تجره الأسلاك الشائكة فيسيل على آخر رمق، باهتاً، متعباً، على الحيطان الرطبة.

تمددَّ على المصطبة. عاد يسرح نظره على القمة التي اصبحت عالمه الوحيد. لا صحيفة. لا كتاب. العتمة تستحيل دفتراً يفتح صفحاته السوداء. «يخرطش»

عليها بعينيه ما يشاء. لا أحد يقرأها غيره. تصبح العتمة عنواناً للنضال، للعزم، للثبات على المبادىء والافكار.

سار نظري الى وجهه. بعض الضوء غسله. أعادني في لحظات الى سنوات بعيدة. لما التقيته لأول مرة في ردهات الجامعة الأميركانية في بيروت. كانت تضج في رأسه فكرة «القومية العربية». وكتابات قسطنطين زريق وساطع الحصري. شكّلَ وهاني الهندي، مع ثلاثة كانوا معهما، مجموعة بيروت لمّا سمي وقتها «حركة الفداء العربي»، التي اتهمت بمحاولة اغتيال أديب الشيشكلي. بعدما تبلورت أفكار «الحكيم». «حركة القوميين العرب» إنضم اليها الدكتور وديع حداد والدكتور أحمد الخطيب، في أواسط الخمسينيات. فتوجه هاني الهندي الى سورية وأحمد الخطيب الى الكويت وجورج حبش ووديع حداد الى الأردن. يدخلون في نقاش مع القوميين الإجتماعيين. يختلفون معهم. يحتد الخلاف بعد مقالات أنطون سعادة «العروبة أفلست». تحالفوا مع جمال عبد الناصر و«البعث». عادوا واختلفوا مع عبد الناصر و«البعث». ثم مع انفسهم بدءاً من سنة 1963 وبعد هزيمة الأيام الخمسة في سنة 1967 أصبحوا شيعاً استمر بعضهم على دين العروبة فيما بعضهم الآخر تمركس وإعتنق مبادىء كارل ماركس. قلة انتهجت الإشتراكية العلمية وقلة أخرى الماركسية ـ اللينينية. أما هو فكانت فلسطين في باله والكفاح المسلح لاسترجاعها.

ضرب الشرطي عصاه على الباب. طَنَّ حديد الباب. هزني. عدت الى وعيي. بقي جورج حبش ممدا على المصطبة. رمقته بنظرة اخيرة. حركه. هزه. انتصب. اعاد على وجهه ابتسامة. سحقها الشرطي بسعاله. احكمت القبض على الكيس. رميته خلف ظهري. كان «الحكيم» لم يزل واقفاً لمّا اغلق الشرطي الباب عليه في الزنزانة رقم 6.

●●●

وقفت في الممر مذهولاً وانا انتظر الشرطي ان يفتح باب الزنزانة المحاذية لزنزانة الدكتور جورج حبش. قفز من أمامي وجه عنصر الامن السياسي محمد الحسن الذي كان يحاول جمع معلومات عن صحافي ذلك العصر. استرجعت كلمته وهو يغلي ويفور. يردد امامي ما حفظه من فم قادته:

«ليست هناك هزيمة. انها معركة خسرناها سنرد عليها. بتثوير الشعب. سنرد عليها بارسال الفلاحين والعمال لقض مضاجع المحتلين في الجولان. سنستعيد القنيطرة في شهر او شهرين».

تسابقت الأفكار في رأسي. رحت أتنقل بينها:

مر شهر انقضى بعده آخر واشهر بعدها. افواه الشعب كمت. السجون فتحت. والبلاد ظلت تتغرغر بالهزيمة. العبرانيون سيجوا محافظة القنيطرة بالاسلاك الشائكة. نصبوا في الاجزاء الغربية من محافظة حوران مراكز المراقبة الالكترونية. فتكرس الوجود الاسرائيلي على الارض البركانية السمراء الخصبة.

فما من طلقة سمعت في تلك الفيافي والمفاوز إلاّ طلقات بعض الفدائيين الفلسطينيين، الذين كانوا يتسللون اليها من مرتفعات «جبال عجلون» ومنحدرات «هضاب اليرموك». كان الهمس يدور في الشام عن حرب الغوار التي كان يشنها بعض الشباب الفلسطيني المجهول الهويّة والقيادة. كانت أسماء جورج حبش، نايف حواتمة، أحمد جبريل، وصلاح خلف. تهمس بالخفاء. ويغيب إسم ياسر عرفات. لعلهم وقتها كانوا يتكتمون عليه حفاظاً على سرية التحرك وأمن القتال.

خطف الشرطي أفكاري. ربت على كتفي. فانتحيت جانباً. علق المفتاح في قفل باب الزنزانة. راحت بعدها أبواب الزنزانات الأخرى تفتح الواحدة بعد الاخرى. الوجوه تقفز من العتمة أمامي. حكمت القواص. دريد المفتي. عمر أبو زلام. و ... غيرهم من الذين لم يبق من حفر وجوههم في الذاكرة غير خطوط باهتة.

•••

هدني التعب. تكومت الوجوه في ذهني. شعرت بحاجة الى الصراخ. الى الزعيق. الى الانقضاض على الشرطي. افزر كرشه العارم بقبضتي.

ثقل الكيس على ظهري الرائحة الكريهة المنبعثة منه جعلتني اشعر بالغثيان.
على البوابة الحديدية الكبرى للمعتقل كان الاستاذ مزيك مع أبي عمر في انتظاري.

« مين شفت فوق؟».

علك الاستاذ مزيك كلماته علكاً. كرجت امامه الأسماء بصوت هامس. كلما ذكرت أسماً هز رأسه متعجباً. انتشى. أورقت على شفتيه إبتسامة إعتزاز. تملى الشرطي بتكبر لم أعرف سببه.

حرك الشرطي مزلاج البوابة الضخمة. تثاءبت. فتحت فمها الكبير على مداه. لفح وجهي للمرة الأولى نسيم نقي. تسارعت نبضات قلبي. أدركت لماذا يموت الشهداء دفاعاً عن الحرية. وجدت نفسي اسرع الخطى الى حفرة على يمين المدخل كانت متخمة باكياس النفايات تفح منها روائح كريهة. سددت انفي. رميت الكيس فيها بسرعة. تطاير الذباب والهوام المتكوم فوقها. بدأ الشرطي ينش الذباب عن وجهه متذمراً.

ابتعدت عن الحفرة وقف الاستاذ مزيك الى جانبي. هدهدت نظري في المدى البعيد. على بعد امتار كانت الحياة تمشي في شرايين منطقة «الشيخ حسن» في حي الميدان جنوب دمشق. الناس يمرون بالمقبرة. لا يتطلعون. لا يلفتهم اي شيء غير طبيعي فيها. مر رجل خنق الخمسين وزاد عليها سنوات، توقف امام المقبرة يرتاح. ظننت انه تقصد الوقوف. الا يعرف ان خلف تلك الاسوار العالية اقبية وسراديب؟ تولتني رغبة بأن اصرخ في وجهه. ان أقول له ان تحت القبور سراديب تبتلع احرار هذه الامة لانهم ارتكبوا «جريمة» مخالفة نظام ادعى الوحدة والحرية والاشتراكية، والاعتراض على قمعه وتسلطه وجوره. ان في السراديب

ضحايا ضابط استخبارات سمحت له الاحكام العرفية المعمول بها منذ الثامن من آذار (مارس) 1963 ان يعتقل الناس ويسلبهم حريتهم الشخصية بلا رادع من قانون ولا احترام لدستور.

تصبب العرق البارد من جبيني. جف حلقي. هممت بالركوض باتجاه الرجل. شعر الاستاذ مزيك بارتباكي. شدني من ذراعي. لم ينبس بكلمة. نهرني بعينيه.

صرخ الشرطي. حرك آخر الرشيش الصغير في يده. ضغط الاستاذ مزيك على يدي. مشى ابو عمر امامنا. عادت البوابة الحديدية الضخمة تقفل فمها على مهل. حانت مني التفاتة الى الخلف. كان الرجل قد اختفى.

II

الجمعة 15 آذار (مارس) 1968

توتر الليل. اختنق الهمس. مشى عنين السياط الينا. نشر الذعر. لفنا الانين والصراخ والبكاء. ارتعش داخلي. ضاق صدري. احسست بالاختناق. مضت فترة صمت. توحش صوت جلاد. راح يكسر قضبان الخيزران على كعوب الارجل. تذكرت البدوي الاردني: «حفلات التعذيب تبدأ بعد الحادية عشرة».

لم اعد اطيق سماع اصوات المعذبين تحت الجلد واللسع بالكهرباء والاسياخ المحماة على النار. حشرت اصابعي في اذني. ظلت الاصوات تنخر رأسي. قفزت امام عيني وجوه مشققة بالسكاكين. مضرجة بالدم. اجساد عارية تتلوى وقد سلخ الجلد عن لحمها. اصابع سحبت منها الاظفار تنز قيحاً ودماً. أرجل منتفخة، زرقاء، احتبس الدم فيها بعد الساعات الطويلة في «القلق».

تحرك المزلاج، اختنق النفس في صدري، تكومت العيون على الباب. فتح الباب عنصر لم نره من قبل. اقشر الوجه يخلو من الشعر الا بعض وبرات تحت انفه حسبها على الناس شارباً. باهت النظرات غدارها. على قميصه بقع دم. وقف على الباب. فرقع اصبعه. نتر كلامه نتراً:

«مين فيكم ميشال غنوم؟».

بحركة واحدة انتقلت العيون على وجه ميشال غنوم. انتصب. لمّ شعره باصابعه. تقدم من العنصر. استدار نصف استدارة. رمى علينا نظرة. ابتسم. هزّ العنصر برأسه. خرج. عادت المزاليج تثرثر خلف الباب.

الوقت يتثاقل في مشيته على الساعة. والليل بليد. صرت اكره الليل. اكره ان تطل النجوم من الكوة في اعلى السقف وساعة يرقص القمر في المدى الاسود. الليل صار جلاداً يسلخ جلد الابرياء.

متى دوري، هل غداً يأتي دوري لاسلم نفسي الى الجلادين؟

قفز السؤال الى ذهني. ارعبني. تخيلت العنصر الاقشرُ الوجه ذاته، يشدني من ذراعي، يقودني الى محقق مارد بدين، تمرس على استنطاق الاسارى بالتعذيب. يستلذ بالجلد. يسكر على اوجاع الاخرين.

ماذا تراه سيسألني؟ .. انا لا اعرف سبباً لاعتقالي.

جف الريق في حلقي. نسيت سيجارة الـ «فايس روي» تحترق بين أصابعي. امتصصت آخر نفس فيها. فركت رأسها على الأرض بعصبية. رطبت شفتي السفلى بلساني. الوقت يقضم أعصابي. أتراهم يعذبون ميشال غنوم؟ أهذا أنينه الذي أسمع؟

البدوي الأردني الى جانبي يغط في نوم عميق. كيف يمكن له أن ينام وفي الخارج صراخ وأنين وسياط تنهال على الظهور، ولسع كهرباء يمشي في الشرايين والأعصاب؟

«لقد اعتاد على الأنين والصراخ». اقنعت نفسي، وانا اتمتم بسري هذه الكلمات. غفرت له نومه الثقيل. أزعجني الحذاء تحت رأسي. الحذاء صار وسادتي التي اريح عليها رأسي المثقل، المتعب. مر امامي وجه العنصر عبد المجيد، رجل مزدوج الشخصية، هم جعلوه هكذا. في النهار طيبة وحناناً وعطفاً ومواساة للذين يستحقون، في الليل ضرباً وتنكيلاً وتعذيباً، فإن كانت مناوبته الليلية رضخ للامر العسكري، اختفى فيه الرجل الطيب وظهر الرجل المتوحش الذي لا يتورع (وقد رأيته يفعل) عن ربط «الفلق» برجلي رجل الاعمال فرحان سحلول. فيرفعه مع ابي عدنان، ينهالان عليه ضرباً بقضبان الخيزران الواحد بعد الآخر من دون توقف ولا رحمة ولا راحة مدة ساعة كاملة. حتى اغمي على فرحان سحلول، فقام العنصر عبد المجيد برش وجهه بالماء المثلج ثم ينهال عليه صفعاً فيما فرحان سحلول لا نبض فيه ولا حياة لساعات طويلة.

شبكت شعري على رأسي. اسندت ظهري الى الحائط. تسربت الرطوبة منه. شعرت بها تنخر عظامي. تتمشى في العمود الفقري. تصل الى رأسي. جمد نظري على الباب. توحش صوت العنصر الاقشر الوجه، دفع ميشال غنوم بقوة. اقفل الباب. استفاق البدوي الاردني. اشرأبت الرؤوس. طلعت من تحت البطانيات. انزرعت العيون في الآتي من التحقيق. بقيت جالساً. ارتخت اعصابي. لم ار دماً على وجهه. لم يمزقوا ثيابه كما تخيلت. إنتفض الأستاذ مزيك. وقف. اقتربت من ميشال غنوم. كان وجهه شاحباً، شعره مشعثاً. لم تمسسه يد ليلتها.

« قبل أسبوع سلخوا جلده».

قال البدوي الأردني وعاد الى النوم.

III

حرَنَ بابور الكاز «البريمو». حقنه ميشال غنوم كالعادة مرات عدة. نفر الكاز منه، قرب عود الكبريت، ظل الكاز ينفر وما اشتعل.

« الكاز مخلوط بالمي بابا...».

قال أحدهم يهدىء من غيظ الاستاذ غنوم ويرفع عنه اللوم.

«احكشه بالإبرة سيدي، ربما كان رأسه مسدوداً».

قال ثالث وهو يتحرق لكوب شاي صباحي. وبابور الكاز كان وسيلتنا الوحيدة لطهي الغداء والعشاء الذي يتولاه ميشال غنوم. وأمل بعضهم بكوب

شاي، وشرط اللذة في احتساء الشاي عندهم، احداث صوت من كل رشفة يطيب لها المذاق ويعمر بها الرأس.

وان ارتحت لدقائق معدودة من رائحة المرحاض الكريهة التي تعبق في الصباح، فإنك لا ترتاح من رائحة الكاز وهلوسة البابور ليل نهار. فما ان ينتهي الاستاذ غنوم من اعداد شاي الصباح والطهي ظهراً، حتى يبدأ الاستعداد للعشاء وبين الظهر والعشاء تتأفأف وتقرقر على نار البابور أباريق الشاي.

أطلت عين الشمس من الكوة. نخرت اشعتها حيطان القاووش الكالحة. تعاركت حرارتها مع الرطوبة. تاه نظري في وجه ميشال غنوم. بدا مرتاحاً على الرغم من التحقيق الطويل معه. لم يبدر منه ما يشير الى تعرضه لاية مضايقات. أردت ان اسأله عن التحقيق والمحققين، عن اشياء كثيرة أخرى. ضغطت على الكلمة الاولى عصرتها في شفتي، حولت نظري عن وجهه. تركته يتعارك مع بابور الكاز. انهمكت في ترتيب البطانية. رفعتها انفض الغبار عنها. كرج صرصور من تحتها. بدأ البدوي الاردني يهرش رأسه. معس قملة سحبها من شعره بين اظفاره. امتعض الاستاذ مزيك. سعل ابو جاسم تفّ بلغماً. توقف خرير الماء ينساب مثل الخيط الرفيع من فم الحنفية.

طلع صوت «أبوعمر» يسأل عن الصابون. لم يجبه احد. تحمس ابو جاسم. ضرب البابَ بقبضته. صرخ للعنصر الواقف خلفه:

«صابون ...صابون يا إخوان».

لم يرد عليه احد.

زمجر بابور الكاز. احمر رأسه حنقاً. انتصر ميشال غنوم عليه. انتشى. غلى الماء في ابريق الشاي وفار. دارت كؤوس الشاي بين الاصابع وعلى الشفاه. تناثر دخان السجائر من الافواه والانوف. ازداد سعال أبي جاسم تفّ بلغماً. تنحنح الاستاذ مزيك. زاد امتعاضه. تمطى البدوي الثالث، فحت رائحة المرحاض.

« بالدور يا شباب ... بالدور أخي... بالدور».

طلع النهار في القاووش.

«صباح الخير يا إخوان».

●●●

ظننا أن العنصر يحيى أتانا يسأل عن الطعام لما تحركت المزاليج وفتح الباب. العنصر عبد المجيد يرمي على ارض القاووش شاباً وسيماً. مربوع القامة نحيل الجسم. املس الشعر اسوده. يرتدي بزة كحلية اللون. أغمي عليه من الضرب. ينز الدم من فمه واذنيه. عرفته على الفور. فقد كان رفيقاً لي من عائلة اسكندر من «جبلة» الساحلية. ركضت اليه. لحق بي أبو جاسم، رفعناه عن الارض. اجلسناه على بطانيتي. مسحت الدم من فمه واذنيه. بدأ يسترد وعيه. عرفني . إرتاحت أساريره. تمدد على البطانية. نام. فلقد انتزعته عناصر

استخبارات عبد الكريم الجندي ليلة زفافه من بين عروسه واهله الى سيارة «اللاندروفر». قادوه مسافة 400 كيلو متر الى «الشيخ حسن» وبعدما اوسعوه ضرباً مبرحاً من دون ان يعرف سبباً للاعتقال والضرب ... رموه بيننا.

ومثله فعلوا بالياس (أبو صبري) عبد المسيح، (من «الحسكة» على ضفاف «نهر الخابور» في اقصى شمال شرق بلاد الشام)، الذي جاءوا به إلينا في الليل بعد رحلة شهر من العذاب في الاقبية والسراديب. بدأت بجلده وتعذيبه في مركز استخبارات بلدته وزادوا في تعذيبه في دير الزور. جلدوه حتى أغمي عليه في حلب. أوسعوه لطماً على أذنيه في حمص حتى افقدوه السمع. وقبل رميه في «الشيخ حسن» مارسوا عليه في «الشيخ تاج» في حي الحلبوني، اللسع بشحنات الكهرباء حتى إنهار. بدا هزيلاً، شاحب الوجه، يرتجف مثل ورقة خريفية.

يرتاح هنا القلم بين أصابعي كي لا يفيض كيل الألم عند بعض الذين ما يزالون أحياء، ولكي لا تهتز أرواح من اخترمهم الموت، وان تكن الذ اكرة قد أرهقها التذكر وراح الزمان يغيب الوجوه وبعض اسماء الضباط الجناة الذين تناوبوا على التحقيق والتعذيب.

IV

أربعين صار عددنا في غضون خمسة أيام. صرنا أربعين أسيراً. نفترش الأرض. ضاقت المساحة التي كنت انام فيها. كما ضاق فضاء القاووش بالانفاس والروائح. بقي بابور الكاز يهلوس وينفث رائحة الكاز التي تختلط برائحة المرحاض. وبدلاً من أن تختبىء الصراصير تحت البطانيات فقد ضاقت المساحة عليها هي الاخرى. فصارت تمر على ملابسنا وعلى وجوهنا. مثلها مثل الفئران والجرذان التي بدأت تخرج من المرحاض وتسرح بيننا.

تملكني الإنقباض. توقف تفكيري عند التحقيق. لماذا تأخر استدعائي. حاولت من أبي عمر ان اقف على ما يدور في التحقيق. احضر نفسي له. فهو قبل خمسة اسابيع مر على المحقق والجلادين.

غاب نظره. سرّحه في فضاء القاووش. تنهد. استعاد الصور امامه. قال:

« النقيب تيسير الفرا حقق معي».

سكت. رمقني بنظرة عجلى. استرد الكلام:

«هو حقوقي. مثقف. ربعة في القامة. حاد القسمات. ثاقب النظر. يجرح بعينيه قبل لسانه. لكنه جلاد قدّ من حجر».

وضح الإضطراب على وجهه. عبس. ارتطمت كلماته بلسانه. أعاد تلفظها. تأنى في مخارجها:

«النقيب الفرا يسمعك بصبر حتى النهاية. يدعك تحكي. يجعلك تصدق انه صدق نكرانك لكل التهم. ترتاح. تظن انك انتصرت عليه. القيت عليه محاضرة. ساعة كاملة اظن. بهذوء مد ورقة بيضاء امامي. طلب مني ان اكتب كل حرف. كل كلمة قلتها له. تحمست. عصرت القلم باصابعي. كتبت. بقي هادئاً. انتظر حتى

وضعت نقطة النهاية بجانب آخر كلمة. سحب الورقة. مر عليها بعينيه بسرعة. بدأ لون وجهه يتغير. اصبح احمر. يكاد الدم ينفر من خديه. عيناه اصبحتا مثل عيني ذئب جائع في الفلوات. يتحين الفرصة للانقضاض على فريسته. تحولت اصابعه الى مخالب. نفرت اظفاره. اصبحت شفرات حادة تتوق الى تمزيق لحمي الحي. انقبض قلبي. اخافتني نظراته الحادة».

أحسست بأن شيئاً ما يتفجر في داخله. عض على شفته السفلى. حدّق بي على إتساع عينيه. نفرت عروق رقبته.

بعدها ضرب النقيب الفرا بقبضته على الطاولة. انتفض الذئب الجائع في داخله. صرخ:

«أنت تكذب، أنت تراوغ، سأجبرك على الكلام... ثم أومأ. فانقض عليّ ثلاثة عناصر بسياطهم. نزلت على رأسي وظهري وصدري في آن واحد. أغمي عليّ. صحوت على نشقات «الإتير». وما ان تمالكت روعي حتى وضعوني الى جانب بطارية كهربائية راحت تلسعني. كلما صحت من الألم واستغثت. أومأ الذئب. يريد ان يفترس. ان ينتشي. ان يشتم رائحة الدم واللحم الحي. فيزيد العنصر شحنات المولد الكهربائي. أغمي عليّ مرة ثانية. تنشقت «الاتير». صحوت. عادوا الكرة بسياطهم. اغمي علي مرة ثالثة. فما استيقظت الا في غرفة إسعاف في مستشفى. فوق رأسي ممرضة. والى جانبي طبيب يزرقني بحقن في ذراعي واليتي. قبل ان يوصي احد العناصر بأن أرتاح بعد الذي تعرضت اليه. والا فإن جهازي العصبي قد يصاب بعطل لا براء منه فأتعرض لشلل او إغماء لا يقظة لي منه».

ابتعد بنظراته عن وجهي. تفرس في وجه نزيل جديد يربط رأسه بضمادات سال منها دم تجمد على جبينه. سكت لحظات. ثم قال بلهجة حازمة:

«حملني العنصر بمساعدة أحد الأطباء الى سيارة «اللاندروفر» لأعرف وأنا في الشارع انني كنت في المستشفى الفرنسي في «حي القصاع». كما ادركت عندما حمل العنصر التقرير الطبي الى النقيب تيسير الفرا أن أيام تعذيبي قد انتهت».

طاف في رأسي سؤال ألح عليّ:

« لم يأخذ النقيب الفرا منك اذن كل ما أراد من معلومات؟».

تنبه أن السؤال ضغط على الجرح. وصلتني نبراته ممزوجة بالألم:

«أعتقد انه اخذ مني ما أراد. فلقد دخلت في فترات غيبوبة. كنت احقن بالمخدرات. اطلقت بلا ريب العنان للساني. عرفت ذلك من الشباب الذين فوجئت برؤيتهم في الزنزانات هنا».

« ما عادوا عذبوك؟».

طلع سؤالي خجلاً... قال:

«لا... لكنني اعيش حالة صحية رديئة. فلقد هبط ضغط دمي الى درجات قصوى. كما زادت الحساسية في جلدي. ولا ادري ان كنت سأغادر هذا المعتقل الرهيب حياً ام ميتاً».

شد على الكلمة الأخيرة. مر في عينيه بريق حزين. استجمع نفسه. حك بقعاً حمراء طفت على يده:

«ليسوا كلهم على شاكلة تيسير الفرا. الملازم اول محمد النابلسي اكثرهم تهذيباً واقلهم لجوءاً الى العنف وحفلات التعذيب والجلد. اما اذا وقعت بين مخالب الرائد أنيس خير بك. فيا ويلك وسواد ليلك. فالرجل هو رئيس الفرع الخارجي في الاستخبارات العامة. لا يعرف الشفقة ولا الرحمة. ويا ويلك أيضاً إن هوت على وجهك صفعة العقيد عبد الكريم الجندي...».

غالبت ذهولي. تلعثمت بالسؤال:

«من هو أنيس خير بك هذا؟».

ضحك. فطن الى ذهولي:

«خير بك يلي عبد الكريم الجندي في المسؤولية. عنده في هذا المعتقل الرهيب حسابات جارية. يدخل فيه ما يشاء ومن يشاء في الوقت الذي يشاء. ويخرج منه ما يشاء ومن يشاء في الوقت الذي يشاء. عتليت الجسد. هباًر. مفتول الساعدين. سريع الغضب. ضربة كفه قد تصرع جاموساً. لقد لطمني مرة فأصبت بحالة اغماء استمرت ساعات طويلة».

أبو عمر كان في الرابعة والعشرين من سنيه، طالباً في كلية الهندسة في جامعة دمشق. تسللت الى رأسه افكار «القومية العربية» ممزوجة بالماركسية الاشتراكية. فما ان اعتنق الاثنين حتى دب الخلف بين جورج حبش ونايف حواتمة. كل ناصر الواحد على الاخر. صار لكليهما اتباعه وانصاره. ابو عمر اتجه الى يسار اليسار. اصبح عضواً في «الجبهة الديموقراطية» لتحرير فلسطين. بعدما انشق نايف حواتمة عن جورج حبش راح يشكل تنظيماً في جامعة دمشق. استقطب عشرات الطلاب الذين ينتمون الى الفئات الكادحة في المجتمع الدمشقي. فوحد الفكر الماركسي بينهم. صار من لا يتحدث عن الصراع الطبقي والاشتراكية العلمية والتمايز الاجتماعي، وكل من لا يشتم اميركة واعوانها في الغرب «الامبريالي»، وكل من يرتدي ربطة عنق ولم يرتب شاربيه على شكل 8 تيمناً بثورة الثامن من آذار (مارس) 1963، او يرفعهما مثل جناحي نسر، هو عميل للامبريالية والبورجوازية. هو اقطاعي رجعي وخائن. أولئك الفتية الذين عايشتهم عاما كاملاً في واحد من ارهب معتقلات عبد الكريم الجندي، كانوا يعبرون عن جيل الضياع القومي والتباين الاجتماعي. عن جيل اختلطت عنده الرؤية، فما عاد يفرق بين «الاممية» و«القومية». جيل حاول ان ينقل نظريات ماركس ولينين من بطاح سيبيرية وروسية الى ... الشرق القديم.

V

19آذار (مارس) 1968

غَسَا الليل. جنّ. رقصت السياط في ايدي الجلادين. تلطم الهواء، تعن وهي تهوي على الاجساد العارية. كان صوت الصراخ والزعيق يتكسر على الحيطان السميكة. يخترقها أكثر من أي ليلة مضت. كما كان صوت المسؤول ليلتها

(إعتقدناه ضابطاً)، يختلف في نبراته عن أصوات الذين ألفنا سماعهم. كان صوته يرافق عنات السياط وانين المجلودين. توحش صوته. صرخ بأحدهم:
«احجي يوَلْ... احجي خالد».

وتستمر اللطمات والصفعات. نسمع تكسر قضبان الخيزران. يعلو صراخ المجلودين. تعلو معها شتائمهم وتحدياتهم لجلاديهم. بعدما يتعب الجلادون. في الرابعة صباحاً تجرجر الضحايا الى الزنزانات والقواويش. واحد لا يقوى على السير لانتفاخ رجليه. آخر ينزف دماً من فمه وانفه. ثالث يغطي عينه الزرقاء من اللطم عليها. ورابع يضغط على ضلوع صدره التي كسرها السوط المجدول باسلاك الحديد.

الا ان عنفوان الاسرى وتحديهم لرجال الاستخبارات ما كان أمراً نظرياً. كانت هناك كمية من الكره والاحتقار مغروسة في قلب كل أسير تراها في عينيه. تحسها في كلماته، تكاد تلمسها، تتحول الى سؤال مرسوم على كل وجه: لماذا أنا هنا والعدو على الابواب، العدو اخذ الجولان، أخذ غرب حوران، كاد أن يأخذ سعسع وقطنا ويدق على أبواب دمشق.

يمر الليل. لا أنام. يحترق الوقت مع سجائري بين أصابعي. يأتي صباح آخر. يوم آخر. الوجوه ذات الوجوه. والإنتظار يأتي بالموت.

●●●

و... نخرج الى التنفس. نتحرك في الممر المحيط بزنزانات الطابقين. من نوافذنا المسيّجة، المزنرة بالحديد، نحاول ان نتحدث الى من فيها. وهم في عزلتهم الممضة. لا يعرفون ليلهم من نهارهم الا اذا سمعوا صوت المؤذن من مآذن دمشق العتيقة ان الفجر قد لاحَ على أهل الشام أو صلاة الظهر قد أزفت. أو لوحت الشمس صلاة العصر، أو من صوت مؤذن يصلي على جثمان ميت يمرون به امام المعتقل، (في الطريق ذاته الذي مررت به مع عشرات الوف المشيعين. نمشي وراء نعش شكري القوتلي الذي فُجع بهزيمة 1967 فمات في بيروت بعيداً عن العاصمة التي رفعته الى سدة الرئاسة مرات ثلاث).

وأمُرُّ بالنوافذ. اهمس لاسرى الزنزانات:
«أنت الذي في الزنزانة رقم 3 من أنت؟».

أدور حول الممر دورة كاملة فاعود أسمع صوت الاسير يذكر إسمه ويسأل عمن أكون. في الدورة الثالثة اجيبه. فيسأل عن التنظيم الذي أنتمي إليه. في الدورة الرابعة اجيبه...

أدور. أسأل وأجيب. حتى يصرخ العنصر. نساق مرة أخرى الى القاووش. ينشر الليل بيارق العتمة من جديد. تبدأ حفلات التعذيب والصراخ والأنين...والموت. الذي ننتظره على لسان محقق، تحت سوط جلاد، في قبضة سكينه، في شريط الكهرباء المغروس في الخواصر وأطراف الأصابع، فلقد كنا موقوفين بأمر عرفي غير مكتوب. تحت رحمة المحقق والجلاد. خارج أسوار

المعتقل الرهيب. كان وزير الداخلية محمد عيد عشماوي يصدر أوامره العرفية بموجب قانون الطوارئ الذي أعلنته حكومة الإنقلاب العسكري في الثامن من آذار (مارس) 1963.

لكن الوزير لم يكن الحاكم العرفي الوحيد. فكل ضابط من ضباط أمنه تحول الى حاكم عرفي، له حساب خاص في سجون ومعتقلات جمهورية الملايين السبعة. يعتقل بلا أمر مكتوب فيبقى إسم الأسير خارج السجلات. فإن مات تحت التعذيب لا مسؤول يُطال ويحاكم.

الأسير هو كائن غير موجود في جمهورية عبد الكريم الجندي.

V

... أمام المحقق

I

21 آذار (مارس) 1968

رمى الصمت في الليل ظله الثقيل. حركة الحراس على أسوار المعتقل كانت تنشر الحذر. وطء نعالهم كان يحدث أصواتا غريبة فوق سقف القاووش. امتدت الايدي الى الطنجرة الكبيرة. اصبحت حركة الايدي آلية بين الطنجرة والافواه الجائعة. سال المرق بين الاصابع. مرت كؤوس الشاي على الشفاه. اصبح الصمت مرعباً. الوجم حط في العيون. سكنها. الوقت يتنسل ببطء بين عقارب الساعة، ولا شيء في الخارج يتحرك.

« تأخزوا... تأخروا الليلة، ماذا يحدث خارج القاووش؟».

همس أبو عمر ارتاب الأستاذ مزيك. تمشى ميشال غنوم الى الباب. دسّ أذنه فيه. قلب شفته السفلى. عاد يدوس على الأرجل الى ركنه. تسلى البدوي الأردني بقرقعة أصابعه. انزعج أبو صبري عبد المسيح. إنهمك البدوي الآخر في هرش لحيته. إنتفض الأستاذ مزيك. قال بعصبية:

«أمر غريب، امر غريب. لا بد أن شيئاً حدث لا نعرفه!».

رمى نظرة عجلى على السقف، اقترب مني همس:

« زادوا عدد الحرس، يجب أن نعرف ماذا يحدث في الخارج...».

رفع البطانية عن كتفيه، قام. لحقت به. تبعنا ميشال غنوم، دخل أبو عمر في جدال مع أبي صبري عبد المسيح. سعل أبو جاسم وتف بلغماً. أخرس أحدهم صوت بابور الكاز.

ما أن وصل الأستاذ مزيك الى الباب حتى انهال طرقاً عليه:
«إفتحوا... إفتحوا... أنا مريض... أنا مريض».
ثرثرت المزاليج. تحركت ببطء. دار المفتاح في الباب. دفعه العنصر عبد المجيد. رمى علينا نظرة مستفسرة. اجاب عنها الأستاذ مزيك:
«أشعر بصداع يشطر رأسي، هل لي بحبة وجع رأس، بحبة أسبرين؟».
ابتسم العنصر عبد المجيد بخبث بان في عينيه. استدار ببطء. أومأ الى عنصر آخر. طلب منه احضار حبة أسبرين. ثم مرجح كلامه بين آذاننا...
«ناموا هذه الليلة مرتاحين. الضباط لن يأتوا. هناك معركة ضارية على الحدود. الجيش مستنفر وما من أحد متفرغ لكم الليلة...».
حلّق بضحكته. تمادى بها حتى انتشى:
«معركة، كيف. اين. متى؟».
تلاطمت الكلمات. تسابقت على شفاهنا. رفع العنصر يده. اعلن علينا البلاغ العسكري.
«في الكرامة. المعركة في الكرامة. الفدائيون الفلسطينيون والجيش الأردني يصدون ببسالة هجوماً مدرعاً اسرائيلياً كبيراً. ما عرفناه حتى الآن عن سير المعركة إنهم كبدوا العدو خسائر مذهلة في العتاد والرجال. القيادة الأردنية طلبت من قيادة الجيش السوري وضع ألوية الجيش لأسلحتها كافة في حال استنفار خوفاً من هجوم إسرائيلي للتخفيف من حدة المعركة على حدود فلسطين».
تراجع عن الباب. أغلقه. انساب صوت ميشال غنوم ينشد قصيدة نجيب الريس. علت الأصوات:

ياظلام السجن خيم	إننا نهوى الظلاما
ليس بعد السجن إلاّ	فجر مجد يتسامى

II

22 آذار (مارس) 1968
إنشغل الحارس بجهاز الراديو الصغير، نقله بين يديه. حشر اذنه فيه. همدر. اطلق السباب. هز رأسه. لوى عنقه. مشى. لحق به الصوت الطالع من جهاز الراديو. اقترب من باب القاووش. تدثر القاووش بالصمت.
صار صوت المذيع أوضح. حشر ميشال غنوم اذنه في الباب يسترق السمع وينقل إلينا ان المعركة مستمرة. الفدائيون الفلسطينيون يستبسلون. خلفهم مدرعات الجيش الأردني.
بدأ الصوت يتلاشى. زَهِقَ الحارس من صوت المذيع. أدار ابرة الراديو. طلع صوت ام كلثوم. انتشى الحارس. ابتعد عن الباب. دار الهمس. عدنا نتحرق

للمزيد من الاخبار. ننتظر ان يفتح حارس اخر الباب فينقل الينا ما سمعه من جهاز الراديو. فمنذ ان غاب الضباط عن المعتقل تغيرت معاملة الحراس لنا. صاروا يتمادون في التحدث إلينا. في نقل الأخبار والأجابة عن أسئلتنا.

إمتعض ميشال غنوم. عاد الى ركنه. تضايق الاستاذ مزيك من عدم مبالاة البدوي الاردني لما يحدث. أحسست ان الاستاذ مزيك اوقف على لسانه عبارات فطن الى انها ستكون جارحة لو نطق بها.سحب سيجارة «لاكي سترايك» من علبة خبأها تحت البطانية. تسلّى بمضغ دخانها. اهتم ابو صبري عبد المسيح بالاستفسار من ميشال غنوم عما سمعه. تدخل ابو جاسم في الحديث، نهره ميشال غنوم بنظرة شعر ابو عمر انها قد تغضب البدوي. فشده من ذراعه وابتعد معه الى ركن آخر.

كان ميشال غنوم بين الفينة والفينة يحط بعينيه على وجهي. يود استدراجي الى الحديث. بقيت صامتاً تملكني شعور بالزهو. تدافعت الافكار في رأسي. شعرت لاول مرة منذ الخامس من حزيران (يونيو) 1967 اننا متى قررنا نستطيع مقاتلة «اسرائيل». نستطيع أن نسحق عساكرها. ان نغسل وجوهنا من الهزيمة. مباركة دماء الشهداء التي تعيد عز الامة والوطن. أعجبتني الكلمات الأخيرة. راجعتها في ذهني. تمتمتها مرات عدة. غمت معها. تخيلت نفسي محمولاً على الراحات وسط غابة من الايدي التي ترفع البيارق. تتقدم. لا تهتم بالرصاص وبدوي القذائف. ترتفع أكثر. تعلو. تصير الايدي وجوهاً. تقتحم آخر معاقل العدو وتنتصر.

لكزني أبو صبري عبد المسيح. ارتجف داخلي. إندثرت الصور المتلاطمة في مخيلتي. أعادني الى صوابي. تنبهت الى ان الصمت عاد يطبق راحتيه على القاووش والعيون مكومة على الباب.

علت الأصوات في الخارج. تدافع الحراس. لكمات تنزل على جسد رجل. يصرخ ويتلوى ألماً. صوت رجل آخر يستغيث. زمجرت مزاليج الباب. تحرك المفتاح بالقفل بسرعة. ضرب احد الحراس الباب برجله. انفتح الباب. دفع بالرجل الاول. فخر راكعاً في ارض القاووش يضغط على معدته من الألم متكوراً على الأرض. ثم ألحقه بالثاني. فاوسعه ضرباً وركلاً ولكماً بآلة حادة على رأسه فَشَقَّهُ. حنى الدم وجهه. مسحه بكم قميصه. بصق الحارس على الأرض. أغلق الباب بغضب. ثرثرت المزاليج خلفه. دار المفتاح في القفل بعصبية.

أشاح أبو صبري عبد المسيح بنظره عن الرجلين. عاد ميشال غنوم لإلقاء محاضرته عن «القومية» العربية وما يمكن أن تحدثه معركة الكرامة في الانظمة العربية المتخاذلة. تأفف الاستاذ مزيك. غطى رأسه بالبطانية. بقيت واجماً. هزني منظر الدم على وجه الرجل. احسست بالغثيان.

تمسك البرد في مفاصلي. شلني. فحت رائحة الكاز. صرخ احدهم ... علت الاصوات في الركن المقابل. تدافعوا يطاردون جرذوناً عض احدهم في كعب رجله.

III

ضاق صدر القاووش بنا. اختنق وخنقنا. ومازالوا يدفعون إليه بالمزيد من المعتقلين. المساحة التي كنت اتمدد عليها واجلس. اصبحت اتناوب عليها مع ثلاثة معتقلين. على مدى ساعات النهار والليل. نقف بالتناوب. ننام بالتناوب. لا يعرف احدنا من يأتي دوره فتخطفه ايدي الجلادين. يقع فريسة بين شفتي محقق حاقد لا يخفق في صدره قلب ولا يأبه لتبكيت ضمير.

إنتصبت واقفاً. أسند ظهري على الحائط. اتدثر ببطانية فاحت منها رائحة العفونة. مضت ثلاث ساعات على انتظاري... وانا انتظر دوري لاتمدد على الارض. بدأ التعب يتكمش بمفاصلي. يستقوي على رجلي. يجمد الدم فيهما. يشلهما. اخذت اتلاشى. أتكيء على الحائط الذي كلح من الرطوبة فأعود واستقوي.

اضغط على أعصابي. انتصب من جديد. تسليت بمراقبة صرصور مشى على شعيرات ذقن احدهم.

أطلٍ إصبع رجلي من ثقب الجراب. ضحكت بسري. تلهيت بتحريك اصبعي مرات عدة. علا صراخ المجلودين في باحة المعتقل. انقبض قلبي. زاد شخير «الأستاذ» عن حده. تضايق أحدهم من الصوت المزعج الذي كان يطغى على صراخ الألم وزعيق الجلادين. قام إليه. هزه مرات. صرخ في أذنه. بقي «الأستاذ» هامداً يخرج شخيره من فمه وأنفه.

و«الأستاذ» محام من اللاذقية. كان أمضى سبعة اشهر في سراديب مركز «الشيخ تاج» في منطقة الحلبوني (غرب دمشق) قبل أن يستقر به المقام بيننا. شحيح النظر، افقده حبسه الطويل في زنزانة عتمة لا ضوء فيها وجه النور في عينيه. واستقر الروماتيزم في مفاصله وبدأ يشكو من حالات عصبية من كثرة حفلات التعذيب والجلد. ومن هزال شديد نتيجة تجويعه في زنزانته أياما طويلة. فكان طعامه اليومي كسرة خبز عفنة واحدة يغمسها بالماء. في الليل. يتكور في زاويته يضع رأسه فوق حذائه. يلف جسده ببطانيتين ليغيب من تعب وإرهاق وضنك ويطلق العنان لشخيره.

أذكر مرة أنني سألت «الأستاذ» كيف يقوى على النوم العميق وفي الخارج عنين السياط يختلط بأصوات وصراخ واستغاثات المجلودين. وأنه قد يأتي دوره للجلد في أية لحظة. ضحك فأفرج عن أسنان صفراء نخرها التسوس. قال: «لقد صرت إذاً اصابتني «الفلقة» تكسر الخيزران على الخيزران. أليس هكذا قال الشاعر مرة»!

لم اعد احتمل سماع سباب الجلادين وصراخ المجلودين وأنينهم، كلما نزل السوط على اللحم الحي. إنحبس النفس في صدري فجأة. ثقل. أحسست بالإختناق. تهالك الإعياء عليّ. خارت قواي. جلست القرفصاء. شبكت عشرتي

على رأسي. ساد صمت بليد ومخيف في الخارج. انتهت حفلات الجلد والتعذيب. زحفت على القاووش روائح كيماوية غريبة، لم نألفها من قبل. حاولت أن أغمض عيني. خانني صوت الأستاذ مزيك:

«صباح الخير... كيفك اليوم؟».

رفعت رأسي المثقل.كَرَجَتْ إبتسامة على شفتي.

كان الصبح قد طلع في القاووش.

IV

تتمشى الأخبار في القاووش من أذن الى أذن. تدبدب مثلما يدبدب القمل في رؤوس المعتقلين. ويدور الهمس. تتغرغر الحناجر باسماء الوافدين الجدد على المعتقل. في القاووش الآخر على الطرف الجنوبي للمعتقل. وفي الزنزانات الإثنتين والثلاثين. كانت إنتماءات المعتقلين السياسية والإقتصادية والإجتماعية، غريبة عجيبة.

خالد العشي، الذي سمعنا جلده وتعذيبه في الليلة التي سبقت معركة الكرامة. كان متهما بتهريب السلاح الى دمشق عبر ممرات «سرغايا» فوادي بردى.

الراحل دريد المفتي، العقيد المسرح والديبلوماسي لدى الأرجنتين وإسبانية، رموه في الزنزانات المظلمة. أذاقوه الأمرين. عذبوه أثناء التحقيق معه وبعده. فلم يشفع به علمه وثقافته وانضباطه العسكري وخلقه الرفيع .

جلَدَهُ محمد عيد عشاوي، (وزير الداخلية وقتذاك)، في إحدى غرف وزارة الخارجية، (وزير الخارجية سنتذاك كان إبراهيم ماخوس)، فانهال عليه بسياطه في أحد أقبيتها المطلة على ساحة «قصر الضيافة» في دمشق.

أما الدكتور سامي الجندي، (الذي كان رئيساً للوزراء ووزيراً للإعلام وقائداً «بعثياً» من الحرس القديم ونسيباً للعقيد عبد الكريم الجندي)، فقد كانت تساء معاملته مع خالد الجندي ،(رئيس إتحاد نقابات العمال)، فما رحمهما لا الإنتماء الحزبي ولا التطرف اليساري، ولا حتى رباط القربى بالعقيد عبد الكريم ا لجندي. زجهما في معتقلاته الرهيبة ليكونا شاهدين على الأيام المظلمة في تاريخ بلاد الشام .

«الإخوان المسلمون»، جُرجِروا الى المعتقلات. لسعوا بالكهرباء. دارت بأجسادهم الدواليب المطاطية ومعها السياط تأكل من لحمهم الحي. ذاقوا مثل غيرهم أوجاع «الشبح» من الذراعين والرفع الى سقف الزنزانات أو الربط بالقدمين الى أعلى حيث يتدلى الجسد ويتجمع الدم في الرأس حتى الإغماء. غطسوا في براميل المازوت مثل غيرهم. أُطعموا شعور شواربهم والحواجب حتى التقيوء. أحد قادة «الإخوان» كان محامياً من عائلة الماارديني، كما أذكر، أمضى قبل عزامنتي لإعتقاله أربع سنوات في أقبية الأدارة العامة للإستخبارات. يجلد مرتين في اليوم ويبال عليه في زنزانة مظلمة افلتوا فيها الفئران والجراذين قبل

ان يرموه بيننا في معتقل «الشيخ حسن» فكانوا يستدعونه للتعذيب مرة في الاسبوع.

«الناصريون». «الشيوعيون». «البعثيون». «الإشتراكيون» ... وتكرج الأسماء: خليل كلاس، (وزير الاقتصاد زمن «الوحدة»)، عبد الغني قنوت (أبو احمد) وزير الشؤون الاجتماعية والعمل ايام المد الناصري في الشام، محمود جيوش، (وزير التموين في اكثر من وزارات «ثورة آذار»).

لكن هؤلاء جميعهم، كانوا امام آلة عنف عبد الكريم الجندي، يتشرنقون ويتقلصون. مجرد اسارى او موقوفين سياسيين لا يتمتعون بحقوق الاتصال مع العالم الخارجي عبر محام او رجل قانون. مجرد اناس ينتظرون الموت في الزنزانات المظلمة.

V

26 آذار (مارس) 1968

رَنَّ إسمي في نبرات صوت العنصر يحيى. فتش عني بعينيه. انتفضت واقفاً. شعرت بأن العيون تتبعني وانا اتجه نحوه. سحب رزمةمن تحت ابطه. ابصر تعجباً في وجهي. اتحدت النظرات حولي. مد العنصر يده:

«هذه لك...».

بلع باقي الكلام. خطف الرزمة خطفاً. احسست بالزهو. الغيت كل الاشياء امامي.

صارت الرزمة كل ما اراه. تسلل خدر رقيق الى مفاصلي. انتشيت. قربت الرزمة من انفي. شممتها انتشيت اكثر. ثملت. مر وجه زوجتي امامي. داعبته. دغدغني شعور غريب. امتلا رأسي بالافكار. وصلهم اخيراً من صديقي خبر اعتقالي. عرفوا انني هنا. ساعات الحرية قد اقتربت ... اقتربت.

غرست اظفاري الوسخة في الرزمة. مزقتها. لاجد ألبسة داخلية. «روب دوشامبر» لونه لون وبر الجمال. قطعة صابون «كامي» معطرة ومثلها اخرى لغسيل الملابس. انبوب حليب «نستلة» السويسري الصنع.

ضممت الرزمة الى صدري. مشيت الى ركني. خفض الاستاذ مزيك نظره. ركزه على الرزمة. اقترب ابو عمر. مشى على وجهي بعينين مستفسرتين اردت ان اصرخ: انهم يعرفون اين انا؟ ولكن شيئاً امسك بلساني. ملأني الانتشاء.

«فتش الملابس...».

رمى الاستاذ مزيك كلماته بسرعة. سكت. مص شفته السفلى. انتظر ردة فعلي على وجهي.

«صحيح... صحيح فتش في الملابس الداخلية».

شعرت بلهفة أبي عمر من كلماته، أحسست أن قلبي يخرج من صدري، تجمدت نظراتي، أعطيت لسؤالي مداه البريء:

«أفتش... أفتش عن ماذا؟».

أبصرت الامتعاض في عيني الأستاذ مزيك، رفع طاقية الصوف عن رأسه، قال وهو لما يزل ينظر الى الرزمة:

«عن أي شيء، أي شيء فات الحراس التدقيق به، ورقة صغيرة ربما... اي شيء... أي شيء».

ضحك أبو عمر، تمايل، تنبهت الى أن العيون تنغرس في وجهي، جلست القرفصاء، بدأت أقلب الملابس بين أصابعي، لم أترك خيطاً أو ثقباً أو ثنية إلا ومددت فيها نظري وأصابعي، لم أجد شيئاً...

هزّ الأستاذ مزيك برأسه، تبرم أبو عمر، بصق أبو جاسم على الأرض ممتعضا، ابتعدوا، تركوني أعيد لف الملابس بالورقة.

لقد عرفت فيما بعد أنهم صادروا جهاز راديو وبعض الفاكهة فلم تنطل حيلة زوجتي على الملازم أول محمد نابلسي عندما لفت الأغراض بجريدة ومزقت صفحات كتاب ولفت بها الثياب، فعندما أستقبل الملازم زوجتي وأمي وشقيقتي في مكتبه في إدارة الأمن السياسي في شارع الشيخ محي الدين قال جازرا: «أنه موقوف في سجن وليس في فندق، نحن نريد إرهاقه لا الترفيه عنه عبر الجرائد والكتب... المسموح به الأغراض الضرورية فقط...».

لم أعرف كيف تخلصت من ملابسي الداخلية القذرة، فقد فاحت رائحتها الكريهة، يبست على جلدي ومعها الوسخ والعرق، لاول مرة منذ أربعة عشر يوماً أخلع عني البزة الكحلية، حززت جسدي المحبوس فيها ليل نهار.

كانت مصيبتي بثيابي أهون من مصيبة غيري، على الأقل جاءوا بي الى المعتقل بملابسي، فرحان سحلول اعتقلوه وهو ما يزال يرتدي الدشداشة ولا شيء تحتها يستره، وبقي طوال فترة إعتقاله لا أحد يعرف مصيره ومكان وجوده ليأتيه بملابس تستر عريه، ظل يرتدي الدشداشة الوسخة ويصطك من البرد.

VI

4 نيسان (إبريل) 1968

ليل الليل، أطلت عينه السوداء من الكوة، تكاسلت نسمة هبت من الكسوة، رشت صقيعها في أرجاء القاووش، أنعجقت الأصابع في علك كسرات الخبز وتغميسها في المرق، زعق بابور الكاز، عصر إبريق الشاي نفسه في الكؤوس، ماج صوت البدوي، رندح موالا، أسكته صوت الأستاذ مزيك، دار الحديث على الألسن.

منذ أن لوحت الشمس بالليل، أنغمس قلبي، تولاني الإنقباض حامت أفكاري حول البيت، عاد وجه زوجتي يطل من بين عشرات الوجوه التي تسابقت على ذهني ، أرتعش داخلي، تناهى اليّ بكاء طفلتي، شردتني أفكاري الى مطارح بعيدة، نسيت كوب الشاي الساخن يحرق أصابعي، شعرت بلفحات البرد، احكمت لف «الروب دوشامبر» على جسدي ، فتشت عن سيجارة في علبة الـ

«فايس روي» نسيت أنني دخنت آخر سيجارة عند الظهر، عصرت العلبة بأصابعي، جاء صوت حكمت قواص دافئاً ،(بعدما نقلوه من الزنزانة إلينا)، تغير وجهه عليّ لأول مرة، رأيت فسحات الحزن تتجمع في قسماته، تنبه، أبصرني أسمر نظري على وجهه، عالج نظراتي بابتسامة، حلا لي وأنا واقف أسند ظهري الى الحائط أن أنقل نظري في الوجوه. في زاويا القاووش غزلت العناكب خيوطا أمتدت من أعلى السقف، سمعنا ارتجاج الباب الحديدي الكبير، أقتربت الدعسات. فرقعت كعوب أحذية العناصر على الأرض، تشاءب الصمت، تمطى الوجوم في العيون، الدعسات كانت تقترب، تقترب أكثر، تنشر الرعب، في أية لحظة قد يدور الصدأ مع المفتاح في القفل، في أية لحظة سينصب العنصر يختار الخراف للذبح.

تجمدت دعسات العنصر خلف الباب، مرّغ رأس المفتاح في القفل، تولاني الانقباض، جف حلقي، أنحبس الخوف في العيون، تحركت المزالج، ساد الصمت تربع في زوايا القاووش، أنفتح الباب، دفعه العنصر يحيى، تجهم وجه العنصر عبد المجيد خلفه. تنحنح. نادى على حكمت قواص فبقي واقفاً لكزه أبو صبري عبد المسيح، تنبه حكمت قواص، رمى علي نظرة وشت بالخوف، ربت الأستاذ مزيك على كتفه، لم يقل أية كلمة.

ما كاد حكمت قواص يصل الى الباب حتى طلع صوت العنصر يحيى، نادى عليّ، تسمرت في مكاني لحظات طن أسمي في أذني مرة ثانية، أرتعش داخلي، سقطت في الخوف، طرزت جبيني حبيبات عرق بارد، ثقلت خطواتي، تقدمت حكمت قواص، كنت أول من أطل برأسه على باحة السجن لأرى فيها آلة «الفلق» مرمية على الأرض، الى جانبها أكثر من خمسين خيزرانة، رجل مربوع القامة مليء الجسم ضخمه كبير الرأس، مفتول الساعدين، كبير الأنف أفطسه، يذرع الباحة بخطوات متمهلة يهمدر بصوت خفيت، توقف لما رآني، رمى على وجهي نظرة هزء، اومأ العنصر عبد المجيد أن نقف، تقدم العنصر أبو عدنان، تهامسا، نادى أبو عدنان عليّ. بقي حكمت قواص واقفا.

●●●

أمسك بي، جرّني خلفه، توقف أمام باب غرفة الى جانبها رأيت حماماً، شعرت بدفئه لما تسربت من بابه شبه المغلق لفحات ساخنة، نقر أبو عدنان على باب الغرفة، أنتظر، سمعنا صوتاً باهتاً، فتح أبو عدنان الباب، اومأ أن لا اتحرك، دخل، غاب دقائق حسبتها دهراً، فتح الباب مجدداً على غرفة مساحتها لا تتعدى أربعة أمتار مربعة، وقف أبو عدنان الى جانب الباب، أفسح اليّ الطريق، دخلت لأرى شاباً في العقد الثالث من سنيه يرتدي بزة رصاصية اللون يقلب بين أصابعه أوراقاً في ملف مفتوح أمامه أعتقدت أنه ملفي الأمني، على المكتب منضدة صغيرة تربع فوقها جهاز كهربائي تتدلى منه أشرطة رفيعة متعددة الألوان تنتهي بمقابض، على الأرض أرتمت آلة «فلق» أصغر حجماً من التي رأيتها

في باحة السجن، خلفه على الجدار حزمة من الخيزرانات.

تاه نظري، أحسست بالاعياء، غشاوة بنفسجية حوطت نظري، مسحت العرق المتصبب من جبيني بكم «الروب دوشامبر»، جف حلقي، شعرت بحاجة لأمتصاص سيجارة، رفع رأسه على مهل، حطت نظراته على وجهي، نزل بها على مهل على قيافتي، رسم على وجهه امارات الامتعاض:

«من أنت، ما أسمك؟».

كتمت استغرابي، أجبته بسرعة، اعطي لهزئه مداه.

«وما هذه القيافة والاناقة؟».

لسعتني كلماته، يتقن فن الأستفزاز، ضغطت على أعصابي، تغاصبت على الكلام:

« لو تسمح حضرتك، وتجعلني أعرف الى من أتكلم لأبادلك الإحترام بمثله».

أستغرب لم يكن ينتظر مثل هذا الجواب، تأنق من مخارج كلماته

«أنا الملازم أول محمد نابلسي...».

قفز صوت أبو عمر مع آخر كلمة، لقد حدثني عن الـ «نابلسي»، رجل القانون المهذب الذي لا يلجأ الى العنف... ارتاحت أساريري، تسلل شعور بالأطمئنان الى نفسي، سمعته يقول:

«أتعرفني؟».

لم أجب، كنت شارد الذهن، أعاد السؤال:

«أتعرفني... هل ألتقينا من قبل؟».

تيقظت، بادرته:

«لا يا سيدي ولكنني سمعت عنك الكثير، وعرفت أنك رجل قانون قادر على التمييز بين حق وجودي هنا وبين حق عودتي الى بيتي وأسرتي».

تعمدت أن أثيره بكلامي، أن أدغدغ شعور التباهي فيه، كاد ينسى أنه المحقق، عاد الى وعيه، خطف كلامه خطفاً:

«لسنا هنا للمجاملة».

وقطب، تغيرت نبرات صوته:

« حدثني عن نفسك، من تكون، ماذا تفعل، الى أي تنظيم سياسي تنتمي؟».

أوحى لي بالراحة، تركني أحكي، كنت صافي الذهن، أذكر أنني سردت عليه على مدى ساعتين أجوبة عن أسئلته، سردت عليه حياتي، فصلتها، توقف معي في محطاتها، بقي ينظر الى وجهي، أفرط في التدخين، يقوم عن مكتبه، يتمشى، ثم يعود، يجلس، يتلهى بمرجحة القلم بين أصابعه، رماه على مكتبه بعصبية عندما سمعني أقول أنني صحافي، كنت مراسلاً لمجلة «الحسناء» البيروتية أنتفض، صرخ في وجهي:

«صحافي... يعني جاسوس».

«لست في موقع يسمح لي بالرد على هذه التهمة، أنا أمارس مهنة في العالم الخارجي يعتبرونها سلطة رابعة بعد السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية».

قاطعني بحدة:
«لا تناقشني... أنت هنا للإجابة عن أسئلتي لا لمناقشتي، مفهوم».
سكت، تلهى بفرقعة أصابع يده، تركني أحتار، أشك بنفسي:
«أتعبتني، ما ذكرته يصلح، سيناريو لفيلم سينمائي طويل، لقد حان دوري لاتعابك».
ظننت لفترة أن وقت الجلد قد حان، لكنه وقف، صاح بأبي عدنان:
«إعط الصحافي ورقة وقلماً ليكتب سيرة ابي زيد الهلالي!!».
نقل نَظره الى وجهي، بان حاد القسمات:
«خذْ الأوراق والقلم وأدخل الحمام لتكتب فيه ما قلته لي قبل ساعتين حرفاً... حرفاً، الساعة الآن الواحدة، أراك في الرابعة صباحاً، مفهوم يا... أستاذ».
شدني أبو عدنان من يدي، دفعني الى الحمام في زاويته «قازان» يتغرغر بالمازوت يقذف من فتحاته حمما من لهب، كان فيه فتى من الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين يجلس القرفصاء يجرجر القلم على الورقة المبللة بعرقه.
بدأت الكتابة، ضاق نفسي، زاد اللهيب، صارت درجة الحرارة 45 درجة، كان العرق يتصبب مني مدراراً، قاومت الحرارة حاولت أن أركز تفكيري في الورقة البيضاء، «أن لم تجلد. تشوى. تُسيل، ينزعون جلدك عن لحمك»، تمتمت بسري، ضاق نفسي، كانت الحرارة تتكمش في وجهي، شعرت بالعطش، كلما ضغطت على القلم تفلت من بين أصابعي، عدت أضغط عليه، أكتب.. عشر ورقات، عشرين، ثلاثين، أكتب بعد... تضخمت الاوراق صار عددها أربعين ورقة، أستحضر فيها ما قلته له، تطاولت أشعة الشمس على كوة في الحائط، لاح الفجر، فتح أبو عدنان الباب، مد يده، دفعت بالأوراق إليه، لفها بأصابعه، قال بصوت تعب:
«إلحقني... سأضعك في الزنزانة».
« زنزانة... أنا في القاووش!».
«أعرف، لكن الملازم أمر بنقلك الى الزنزانة رقم 1».

VI

... في الزنزانة رقم 1

I

5 نيسان (إبريل) 1968
مدّ الخطوات أمامي، فرك كعب حذائه في أرض الممر، أحدث جلبة، مرجح المفاتيح بين يديه، تمشى طنينها في السكون الذي كان يخيم على الممر، توقف، استدار قليلاً، رآني أجرجر الخطوات خلفه، خرجت من عينه نظرات غضبى، رشها على وجهي، حرك شدقيه بحركة غريبة، أمتص مع شفتيه كلمات لم أفهمها، تعاركت مع قدمي، أسرعت الخطوات إليه، سعل، بصق على الأرض، عاد يمرجح المفاتيح بين يديه، طنين المفاتيح بدأ ينخر في أعصابي، يزيد من الصداع الذي احسست به يشطر رأسي، توقف على باب الزنزانة رقم I ، أستل مفتاحاً، عالج قفل الباب الحديدي به، تمطى الباب، فتح فمه الكبير، أحدث صوتاً غريباً، شدني العنصر أبو عدنان من ذراعي، دفعني إلى داخل الزنزانة بعصبية، أقفل الباب بسرعة، عاد المفتاح يمرغ رأسه في القفل ويدور على نفسه دورتين.

أقحمت عيني في العتمة، بقيت هامداً في وسط الزنزانه، لم تكن غريبة عني، دخلتها لمّا كان الدكتور جورج حبش فيها، (عرفت فيما بعد أنهم نقلوه إلى الزنزانة رقم 12)، كان الضوء بدأ يتثاءب من الكوة الصغيرة في أعلى الحائط، يسيل بليداً متكاسلاً على الحيطان الكالحة من الرطوبة، نزّهت نظري على آلاف الأسماء المحفورة على حيطان الزنزانة، ما فرقت الحيطان بين تنظيم وآخر، ولا بين محمدي يؤمن بالله واليوم الآخر ومسيحي يؤمن بالأب والأبن والروح القدس، بين ملحد يؤمن بالطبيعة وأحكامها وبين ماركسي «يمركس» الحياة من حوله وحواليه، ويزداد حقده الطبقي على كل من حوله، وددت أن أضيف أسمي، أن أحشره بين الأسماء، «الجدران دفاتر المجانين» قفزت هذه الكلمات إلى ذهني، ضحكت لها، كدت أنطق بها، تكوّر لساني في حلقي، تصبح حيطان

الزنزانات السجل الوحيد المفتوح الذي يخبر لاحقاً من سابق أنه كان هنا، فلا قيد ولا سجل، لا مذكرة توقيف ولا هاتف أتصال، لا محام ولا طبيب، لا أحد يعرف مصير الاسير في «دولة» عبد الكريم الجندي.

تولاني الأنقباض، ضاق النفس في صدري، أحسست بالوحدة تخنقني، حاصرتني التهيوءات. أنتابتني رعدة خوف، أنزرعت في العتمة أمامي عيون مبحلقة تقتحم العتمة، تقترب، تقترب من وجهي، خلفها أمتدت أيدي أسرى مشقوقة بالسكاكين، تنزّ دما وقيحاً، شعرت أنها تقبض على عنقي، تضغط بقوة، وإن الأظفار الطويلة الوسخة تنغرس في جلدي تعاركت معها، حاولت أن أزيحها عن عنقي، أبتعدت العيون المبُحلقة، تسترت بالعتمة، أزداد الوجع في عنقي، تيقنت فجأة أنني كنت أضغط على عنقي بيدي، سحبتها، أرتعبت، أرتعشت، أنتابتني نوبة سعال حادة، خارت قواي.

تمددت على مصطبة الأسمنت، أنغرست بحصة من الأسمنت المجبول في ظهري، شعرت بألم حاد في معدتي، عصرتها بأصابعي، عادت العيون المبُحلقة تهتك ستر العتمة من جديد، تقترب، أغمضت عيني، تسارعت ضربات قلبي. مد الغرق البارد القشعريرة في ظهري، أحسست بحاجة إلى الصراخ، إلى الزعيق، إلى دك الحيطان بقبضتي، إلى تحطيم الباب الحديدي الغليظ الذي يمنع عني الحرية، تشنجت أعصابي، تلاطمت الصور في مخيلتي، تسارعت، تناوبت على تعذيبي، شعرت بإنتفاخ في أصابع يدي اليمنى، فلقد أمضيت أكثر من ثلاث ساعات أكتب تقرير التحقيق معي بقلم يؤلم من أمسكه دقائق معدودات، حاولت تحريك أصابعي، لم أستطع، كان الدم قد تجمد فيها، بدأت أتلاشى حتى النوم.

II

عكا طرق قدم العنصر يحيى على الباب، فتح الطاقة المستطيلة في وسط الباب، مد رأسه منها. توحش صوته يدعوني إلى الوقوف، أيقظني، هزتني نبرات صوته، فأنتصبت:

«خذْ، كلْ، هذا فطورك...».

نَتَرَ كلامه نتراً، مدّلي من الطاقة رغيف خبز وقرصين من الفلافل وعشر حبات زيتون أسود، كانت حركة يده أسرع مني، سقط قرص الفلافل على الأرض، بقي على الباب حتى لممت قرص الفلافل، فأعاد إغلاق الطاقة.

عدت إلى المصطبة، أكلت بشراهة، فما كنت أعرف أن كنت سآكل مرة ثانية، لأن أصحاب «القرار» الذين أمروا بإعتقالي والتحقيق لا يوفرون الطعام في ساعات التحقيق الطويلة.

أحسست بشيء من الراحة، خف ألم معدتي، طافت برأسي الأفكار، أرتعش لها داخلي، أهتاج فيَّ الحنين إلى سيجارة، قفزت إلى ذهني كلمات الملازم أول محمد نابلسي، راجعتها، شعرت بالأنقباض. ثقلت ضحكة أحد العناصر وهو يقترب من باب الزنزانة، توجست شراً، ثَرْثَرَ المفتاح بالقفل، تسارعت ضربات

قلبي، تحرك المزلاج، جف حلقي، فتح العنصر الباب، سده منتصباً بقامته الطويلة أمامي:

«أنت قُمْ، تحرك، تعال... إلحقني».

قطع كلماته بنبرات حادة، فقمت، تحركت، ولحقت به، حط نظري على الساعة في معصمه السابعة صباحاً، تسابقت الظنون في رأسي، إلى أين يقودني هذا العنصر؟ الوقت ليس وقت تحقيق، فالضباط بالعادة يرتاحون في النهار بعد ليل طويل من التحقيق والجلد والتعذيب، ثم أن بعضهم يداوم في الصباح في إدارات الأمن المتعددة الفروع؟

غامت الأشياء في عيني، ضيعت توازن أفكاري، هدأ نظري من التطواف على حيطان الممر وعلى بوابات الزنزانات، أقرأ الأرقام على أبوابها، يضج في أذني هدير الأسرى خلف تلك الأبواب يتحركون. يهمهمون مع دعساتنا، فحت رائحة قذرة من إحدى الزنزانات، طنّت ذبابة حطت على أنف العنصر الأفطس، نشها بعصبية، شتم... بصق على الأرض، أسرع الخطى، فتح الممر فمه على باحة المعتقل... تجمع ثلاثة عناصر حول جهاز الراديو، إبرته كانت على إذاعة دمشق، خرجت من الجهاز إشارة أخبار الساعة السابعة والربع، طلع صوت المذيع يعلن أن رئيس الدولة الدكتور نور الدين الأتاسي وصحبه «الأبطال الثوار» سيستقبلون المهنئين من ديبلوماسيين ومثقفين وثوريين وعمال وفلاحين وصغار كسبة، احتفالاً بعيد تأسيس «حزب البعث العربي الاشتراكي» الثالث والعشرين، وتلا المذيع بعد ذلك جملاً مرصوفة منمقة حماسية، أعتدنا على سماعها منذ فجر الثامن من آذار (مارس) 1963 فما جاء بجديد ليغير قناعتي أو لينسيني بأن هؤلاء المتسلطين على رقاب الناس بنوا وطناً سيجوه بالموت، يعتقل فيه المناضلون والأحرار فيما تسرح عساكر «إسرائيل» في الجولان وغرب حوران.

أحسست فجأة لما صفعني النور في باحة المعتقل بصداع تكمش في صدغي، فأس حادة تشطر رأسي، نشرت غشاوة على عيني لونها البنفسجي، شعرت أن الأرض تتمايل، تدور، وتدور معها الأشياء أمامي، وصلني صوت العنصر جازراً، أبصرت تحرك شفتيه الغليظتين بحركة غريبة:

« تبقى هنا واقفاً، الجلوس ممنوع، كذلك الأكل والشرب، مفهوم...؟».

ضغطت على صدغي بيدي، طلبت منه حبة «أسبرين» لتسكين الصداع (كان«الأسبرين» حتى ذلك العام ما يزال متوفراً في الأسواق السورية).

هَمْهَمَ العنصر، عاد إلى الشتم، غاب، رجع وبيده كوب ماء وحبة «أسبرين» واحدة، أبتلعتها بسرعة، تمهلت في شرب كوب الماء، تلذذت به، تيقنت أن الماء سيغيب عن فمي طوال النهار.

بقيت واقفاً ألف جسدي بـ «الروب دوشامبر» بدأت تفح منه رائحة عرق كريهة، أغسل وجهي بالضوء، يتجمد الدم في رجلي، أعود أزرع الخطوات في الباحة الضيقة، أتعب من الدوران حول نفسي أقف من جديد حانت مني التفاتة إلى زاوية الباحة فأرى مغسلة صغيرة مهملة أكلت الزاوية، فوقها مرآة مكسورة.

منذ أن رميت في هذا المعتقل الرهيب لم أرَ وجهي في المرآة، نسيت شكل وجهي، أمرُّ عليه بأصابعي كل صباح، تنغرس أظافري الطويلة في شعيرات ذقني، قاومت رغبة جامحة في أن أقف أمام المرآة، خفت أن أرى وجهي فيها، أبتعدت عن المغسلة، عدت إلى الدوران في الباحة، بدأ التعب يستولي على حركة قدمي، لوّحت الشمس بأنتصاف النهار، أحسست بالاعياء، خارت قواي، حاولت أن أتمالك نفسي كي لا أقع على الأرض، فسقطت على ركبتي، شقهما البحص المسنن المجبول مع الأسمنت، سال الدم منهما، زأر العنصر:

«وقاف.. وقاف يا... ...».

وقفت، عدت أمشي، أحسست بعينيه تمشيان معي، علت جلبة في الزنزانات العليا، بعد لحظات نزل إلى الباحة أحد العناصر وخلفه عمر أبو زلام الذي مثلي أستبدل بزته بمنامة مخططة فيما ذقنه نمت وظهره أنحنى، يتثاقل في مشيته لوجع في قدميه كرر له العنصر ما كان قاله لي وأضاف وهو ينظر إليَّ:

«لا حديث ولا همسة واحدة أو نأمة، مفهوم...»

رمى عمر أبو زلام على وجهي نظرة متفحصة بادلته مثلها، أبتسم، وبدأ بيننا ونحن ندور في الباحة حديث العيون.

III

طلع صوت المؤذن، سجى الليل، رشّ نجومه في السماء، نام في الشجر، مر على بيوت الناس.

ست عشرة ساعة مضت وأنا أدور في الباحة، يلحق بي عمر أبوزلام، تلتقي نظراتنا، تبتعد، بلا أكل ولا شرب ولا كلام. مضغت عقارب الساعة الوقت، الحادية عشرة، عادت الحركة إلى المعتقل مع وصول الضباط لتبدأ من جديد حفلات الجلد والتعذيب. كان النقيب تيسير الفرا أول الداخلين بقامته المربوعة، يرتدي بزة رصاصية اللون، عابساً مقطباً، ترك القساوة تتمدد على وجهه، عيناه عينا ذئب تدوران بسرعة في محجريهما، تفضحان شهوته للدم، خلفه دخل الملازم أول محمد نابلسي، فوزع نظراته على وجوهنا بسرعة وأكمل طريقه إلى غرفته. ما أن وصل إلى غرفته حتى صاح تيسير الفرا بأحد العناصر أن يأتيه بحكمت قواص، بينما نادى محمد نابلسي عليَّ، فرافقني عمر أبوزلام بعينيه حتى غبت عن ناظريه.

●●●

كالعادة لم يدعني أجلس، بقيت واقفاً، قام عن مكتبه، تمشى، فرك عينيه، رفع كوب الشاي، أحتسى منه جرعة، أعاده إلى الطاولة، فتش عن سيجارة، جنّ في لهفي للتدخين، طلع الدخان من فمه قبل أن أفرج عنه من بين شفتيه، أمتص نفساً آخر، تركني واقفاً، نادى العنصر عبد المجيد، دخل أنتحى به جانباً،

تهامسا، أنقبض قلبي، يبس حلقي، أشتهي قطرة ماء، وددت أن أسطو على كوب الشاي، وتنحنح الملازم نابلسي، عاد إلى الطاولة، رفع كومة أوراق، عرفتها أنها ما كتبته في الحمام، قلبها بسرعة بين أصابعه، توقف عند بعض الأوراق، قرأها بسرعة، رفع رأسه عنها، رمى في عيني نظرة حط فيها الغضب، أرتعش داخلي، «سيأمر بجلدي» تمتمت بسري، بلعت آخر كلمة مع ما تجمع في فمي من ريق، بدأ العرق يتصبب من جبيني، «لم يعجبه ما كتبت» عدت أتمتم بسري، عطس، مرر محرمة «كلينكس» على أنفه، عاد إلى كوب الشاي، تأفف من السيجارة في أصبعه، فرك رأسها في صحن الدخان، جمع الأوراق بين يديه، رماها في وجهي فتناثرت على الأرض:

« ما هذا، ماذا تحاول أن تقول لي بهذا التقرير، سيناريست حضرتك، أنا لم أسألك كتابة تحقيق صحافي، سياسة... سياسة يا أستاذ، ماذا عن نشاطاتك الحزبية؟».

انتظر ردة فعلي، أزحت نظري عن الأوراق المتناثرة على الأرض، تغاصبت على الكلام:

«إنني كتبت ما حدثتك به، فما أعترضت على حديثي ولا سألتني إيضاحاً، فحسبت أن ذلك كان المطلوب».

زاد في عبوسه، أستدركت:

«أما عن الشأن الحزبي فلقد توقف نشاطي منذ نيسان(إبريل) 1955 لما حلت الحكومة الحركة القومية الإجتماعية التي أنتمي إليها».

قفز من جلسته، فتح عينيه على أتساعهما، أكل وجهي بعينيه، طاف الغضب فيهما، تمردت نبرات صوته عليه:

«وماذا عن الرئيس المؤقت؟».

زمّ شفتيه، عاد الغضب يتكور في عينيه، تواثبت الكلمات على فمه:

«رئيس حزبك المؤقت يا أستاذ، عصام محايري، ألا تعرفه؟».

فتحت فمي أهم بالكلام، خطف الكلام مني:

«ماذا عن البيانات التي توزع والندوات التي تقام والمحاولات المستمرة والمستميتة لإعادة التنظيم في سورية إلى عهده السابق قبل ثلاث عشرة سنة؟».

عاد إلى كرسيه، سحب سيجارة أخرى من علبة الدخان، أنتظر جوابي:

«إني أجهل كل ما ذكرته لي إلى الآن، أنا لا أنكر أنني كنت أزور عصام محايري في مكتبه المجاور لمكتبي في شارع الفردوس بشكل مستمر».

تصنع الأهتمام، لانت قسمات وجهه، غيّر نبرته:

«طيب... طيب، عن ماذا كنتما تتحدثان؟».

شعرت أنني تمكنت منه، أو أنه جعلني أشعر بذلك، فتماديت بالشرح:

«عن كل شيء، عن الوضع الداخلي، عن الوضع الخارجي، عن الهزيمة التي لحقت بنا، عن الجولان الذي فقدنا وسيناء وشرق فلسطين، كذلك نتحدث في شؤون العلم والتاريخ، وأتذكر أنني قبل إعتقاله بيومين أو ثلاثة كنت أحاوره في موضوع كتاب عن الثورة الفرنسية كان يقرأه باللغة الفرنسية».

عرف أنه لم يحصل على الجواب الذي كان ينتظره، ضرب على الطاولة بقبضته، قاطعني بحدة:
«لست هنا لتحدثني عما يفعله عصام محايري، أنت هنا لتحدثني عما فعلت أنت كي أستطيع أن أنهي التحقيق معك وأحيلك على الجهات الآخرى».
«لقد قلت لك كل ما عندي، فأنا لم أزاول أي نشاط حزبي منذ سنة 1955 ولست أدري ماذا تريدني أن أقول لترضى وتعتبر أن التحقيق معي قد أنتهى».
هدأ عبوسه، أطرق دقائق، أنتفض فجأة، صاح بالعنصر عبد المجيد، دخل العنصر، ضرب الأرض بكعب حذائه، رافعاً يده بالتحية:
«نعم يا سيدي...».
«خذ هذا... أوقفه في الحمام ويداه مرفوعتان إلى أعلى، دفئه كما يجب وأنتظر تعليماتي».
تحركت يد العنصر عبد المجيد إلى صدغه مرة أخرى:
« حاضر... أمرك سيدي».
تراجعت خطوتين إلى الوراء، شدني العنصر عبد المجيد من ذراعي، دفعني خارجاً، كان آخر ما علق في نظري آلة «الفلق» والخيزرانات المرمية على الأرض.

IV

كان «القازان» يزمجر، المازوت يقرقر في داخله، ينفث حرارته في أرجاء الحمام الصغير، كان فيه أحد الشبان الماركسيين المنتمين إلى فصيل من فصائل المقاومة الفلسطينية يقف في مواجهة الجدار يتصبب عرقاً، يداه منتصبتان إلى أعلى.
أوقفني العنصر عبد المجيد في مواجهة الحائط المحاذي لـ «القازان» الذي يفور ويمور متأففاً، أستل العنصر قلما من جيبه، رسم نقطة سوداء على الجدار، أمرني:
«أرفع يدك اليمنى عالياً بمستوى اليسرى، أنظر في هذه النقطة، إياك أن تتحرك يمنة أو يسرة».
فعلت، بقي لحظات يراقبني، لم يعد يطيق حرارة الحمام التي تزيد عن 45 درجة، تنحنح خرج أغلق الباب خلفه.
بعد نصف ساعة أحسست بتعب ذراعيّ، أصبحت النقطة الصغيرة على الحائط تكبر كلما ركزت النظر فيها. تصبح أكبر. تنشطر إلى نقاط صغيرة أخرى، تتكاثر، تتوالد في بؤبؤ العين، تكرج على الحائط، تدور، تدور بسرعة يزوغ نظرك معها، تحاول أن تركز من جديد، تدور النقاط أكثر، أغمضت عيني، دارت في السواد نقاط بيضاء، أحسست بالدوار، بوجع في رقبتي تمشى في العمود الفقري. تسلل الخدر إلى يديّ المرفوعتين، تذكرت البدوي الأردني عندما قال لي أنه بعد ساعتين من رفع يديه إلى أعلى والنظر في النقطة السوداء على الجدار شعرت بالأنهيار وغاب عن الوعي ساعات طويلة.

تجلدت على الوجع، كنت كلما شعرت بوهن في الليل الطويل أستقوي على الضعف بصراخ وأنين المجلودين الذين كانوا يترنحون مألومين تحت السياط والاسياخ المحماة بالنار.

مضت الساعات، طويلة، موجعة، لم أذكر أن ذراعي أنخفضت أو ملت يمنة أو يسرة، دوّت في رأسي نبرات صوت كنت سمعته يوم جلدوا خالد العشي وأخوانه في باحة المعتقل، عاد الصراخ والأنين، فتح العنصر عبد المجيد باب الحمام، نادى عليّ، أعطاني قلماً ورزمة من الورق المسطر، أمرني بحمل كرسي كان مهملاً في زاوية الحمام، فأجلس عليه خلف بوابة السجن، وأكتب من جديد آخر حديث جرى بيني وبين عصام المحايري.

حملت الكرسي، جلست خلف البوابة، حاولت تركيز أفكاري، يبس حلقي من العطش، تضورت جوعاً، هدني الإرهاق، ما عدت رأيت، غشاوة بنفسجية حوطتني، تفلت القلم من أصابعي، سقطت الأوراق على الأرض، ساعدني عمر أبوزلام الذي كان يجلس على مقعد آخر قبالتي على لملمتها، فعدت أجرجر القلم أرسم الأحرف باعياء و... أتذكر.

●●●

علا الصراخ، عنصران دفعا بعصام محايري إلى داخل الباحة، أنتصب بسموق، كثّ اللحية قصيرها على عينيه نصف نظارة، فقد كسروا في «الفرع الخارجي» نظارته إلى النصف وتركوه يرى بعين واحدة، يرتدي قميصاً عليه آثار لطخ دم.

صرخ به ضابط الأمن صاحب القامة الضخمة واللهجة الغريبة أن يتقدم منه هادراً واعداً مكيلا له الشتائم الغلاظ، فمشى عصام محايري نحو الرجل بتمهل، فقد كان يعرج، يحاول أن لا يضغط على رجله اليمنى.

الناظر إلى عصام محايري لحظتها، يوقن أن الرجل الذي أسره سلطان دمشق الأحمر عبد الحميد السراج سنوات عشرا طوالاً، إستلان خشونة السجن وعذاباته، فما عاد يمكن لمتسلقي السلطة أن يهزوا إيمانه وقناعته وفكره ومعتقده، قد يكونون نجحوا في مس جسده وإيلامه حتى الموت أحياناً، لكنهم بالتأكيد عجزوا أن يمسوا فيه أو أن يضعفوا إيمانه وما أعتنق.

أدخلوه غرفة الملازم أول محمد نابلسي، بدأ الصياح يعلو من صاحب القامة الضخمة، يكيل لعصام محايري الشتائم والإهانات بالفاظ لم أسمعها من قبل أثناء تطوافي مرة في مبنى «روبير» الذي كان يعرفه الدمشقيون جيداً وهو سوق عمومية للدعارة.

كان صوت عصام محايري يأتينا هادئاً يصحح سؤالاً أو يجيب عن سؤال، كنا نسمعه ينفي بعض ما ينسب إليه ويؤكد بعضه الآخر.

ومضت الدقائق بليدة، متثاقلة، قاسية على يساري كان حكمت قواص، يستند إلى جدار يكتب أوراق تحقيقه، على بعد أمتار منه كان عمر أبوزلام يجلس

على مقعد خشبي يضع أوراقه على حرجه.

فجأة، ساد الصمت، تلاقت عيوننا على باب غرفة الملازم أول محمد نابلسي.

فتح النقيب تيسير الفرا الباب، خرج، تبعه الملازم أول محمد نابلسي، دفع ضابط الأمن بعصام محايري إلى خارج الغرفة، وقف وسط الباحة، تمدد صوت المؤذن يؤذن للفجر، بقي ضابط الأمن واقفاً، يضع يديه على خاصرته، أنتظر مغادرة النقيب والملازم المعتقل، نظر إلى عصام محايري والغضب يرقص عينيه، بصق على الأرض:

« سأريك كيف تتكلم يا... ...».

أستدار، عاد إلى غرفة الملازم أول نابلسي، أغلق الباب خلفه بعصبية، صرخ بالعنصر عبد المجيد غاب العنصر خلف الباب دقائق، خرج من جديد، أتجه نحو عصام المحايري، جره بيده بغضب، مشى بخطوات مسرعة نحو الغرفة، عرج عصام المحايري تحاشى أن يضغط على الأرض برجله اليمنى، دفعه داخل الغرفة، أغلق الباب، بقي العنصر عبد المجيد مع ضابط الأمن صاحب القامة الضخمة.

حشروا رجليه في آلة «الفلق» بدأوا بالرجل اليمنى المصابة، عنين الخيزرانات كان يلتطم بالحيطان، مئة مرة نزلت الخيزرانات على رجليه.

لم أعد أتحمل صوتها، وأنينه الخافت، سددت أذني، ظل العنين يدوي، إنهالا بالخيزرانات على ظهره، رجليه، رأسه، وأزداد معه الجلد واللكم والصفع، وعصام المحايري يكتفي بالأنين الموجع وتكرار الكلمات ذاتها: « لقد قلت ما عندي... لقد قلت كل شيء»...

فجأة توقفت السياط عن العنين، بلع الجلاد صوته، سمعنا سقوط شيء ضخم على الأرض، أنقبض قلبي.

«إنه أصيب بالأغماء... أصيب بالأغماء. تمتم عمر أبوزلام، جحظت عينا حكمت قواص، سقطت الأوراق من يدي، فتح العنصر عبد المجيد الباب، هرع من الغرفة مسرعاً إلى خزانة الأسعاف، أنتشل منها زجاجة «الإتير»عاد إلى الغرفة راكضاً.

أنعشوا عصام محايري، دقائق صمت أخرى، عاد الصوت يزأر ومعه عنين السياط، وتمضي ساعة، تعب الجلادان، سحبا عصام محايري من جديد الى باحة السجن. رمياه أرضاً. فانتصب. بسموق. مسح وجهه بكم قميصه. أعطاه العنصر عبد المجيد قلما ورزمة أوراق، تثاقل في مشيته نحونا، جلس على بعد متر مني، يكتب مثلنا ما أمر به، في وجهه المتعب عنفوان التحدي وفي عينه زوبعة رجولة.

مشى الناس في «شارع المقبرة»، سمعنا وطء نعالهم، طلع النهار.

مر العنصر عبد المجيد، لملم الأوراق، جمعها تحت إبطه، نقلوا عصام محايري إلى زنزانة في الطابق العلوي، ونقلوني من الزنزانة رقم 1 إلى الزنزانة رقم 4 .فتح العنصر الباب، دفعني إلى داخل الزنزانة، لم أعد أقوى على الوقوف، خارت قواي، سقطت على الأرض وما عدت شعرت بشيء...

VII

صفعة العقيد...

I

6 نيسان (إبريل) 1968

تفتح النهار، لبس وجهي الضوء الذي عاند حديد الكوة المجدول فتسلل إلى الزنزانة، علق الضوء في عيني. لكزني وهجه، أيقظني، يبست ضلوعي من خشونة المصطبة، أحسست أن ظهري يكاد ينشطر، بقيت ممدداً، لمع مع الضوء خيط عنكبوت في زاوية الزنزانة، ظلت أسماء المساجين على الحيطان تتراقص في عيني، أرتعش جسدي لنسمة باردة تسربت من الكوة، سحبت حذائي من تحت رأسي المثقل، يدب في رأسي ألم حاد، عصرت صدغي الأيسر بأصابعي، يبس لساني في حلقي الناشف.

سال خيط ماء رفيع من الحنفية، حضنت الماء بكفي، رششته على وجهي، تمشطت شعيرات ذقني الخشنة بأصابعي، مددت لساني ألعق الماء، مذاقه مر، مسحت فمي بيدي باشمئزاز، أمتلأ رأسي فجأة بالصور، خواطر كالومض مرت في ذهني، تلبستني الراحة، أرتخيت على المصطبة، طافت أمامي الوجوه، تلاحقت، طنّت في رأسي نبرات الأستاذ مزيك، أسترجعت كلماته بسرعة:

«متى أجتزت مرحلة التحقيق ترتاح، بأنتظار أن يرفع تقرير بما قلته إلى العقيد عبد الكريم الجندي، وبعدها إما يعاد التحقيق معك وتبدأ مرحلة جديدة من الجلد والتعذيب والقهر، وإما يصدر الأمر بأن تبقى سجيناً إلى ما شاء الله»!

ثملت بأسترجاع كلمات الأستاذ مزيك، توقفت أفكاري عند العقيد عبد الكريم الجندي، أعطيت أرتياحي مداه على وجهي، فالعقيد الذي سيقرر مضيري تتلمذ على والدي، يوم كان مؤسساً ورئيساً للكلية الزراعية في مدينة «السلمية» في شرق حماه، ومثل الجندي تتلمذ على والدي أديب الشيشكلي وأمير شلاش

والشاعر أحمد الجندي، (برّد الله ثراه، فقد أفتقدته الأوساط الأدبية في الشام في منتصف الـ 1990) قبل أن يلتحق بعضهم بالكلية العسكرية في حمص، فتحولوا من طلاب علم ومعرفة إلى عساكر تتناحر على السلطة والسلطان.

أنتشيت بأفكاري، تجمّعت الصور في رأسي. تلاحقت. سحبتها من الذاكرة صورة صورة، عاد وجه العقيد عبد الكريم الجندي يقفز أمامي، كان لطيف المعشر أنيسه، حلو الحديث بليغه، إذا جالسته لا تمل، فعنده الشعر سلطان ينزل عند أمره، يحفظ منه قديمه وحديثه، يجالسه في مطعم «أبو كمال وغزال» في شارع «29 أيار» الدمشقي العريق، الأدباء والشعراء، بينهم القاص زكريا تامر والقاص وليد مدفعي، والشاعر علي الجندي وغيرهم كثر... يتحلقون حوله، يحتمون بظله، يتكنون به، يسمعون رأيه في الثورة والثوار، في الوحدة و«العروبة» وأسترجاع فلسطين.

أقترب وجهه مني أكثر، أرتسم على الحائط أمامي، خلف أسماء المساجين المحفورة بالأظفار، عاد يقفز إلى ذاكرتي عندما كان يوصلني بسيارته «المرسيدس» إلى منزلي في «شارع عبد الرحمن الشهبندر»، كان يقود السيارة بنفسه وإلى جانبه على المقعد الأمامي الذي كان يجلسني عليه رشيش صغير، يطالبني بنقله إلى المقعد الخلفي مرات أو وضعه على ركبتي هامساً «أفضل أن تتركه على ركبتيك ليكون في متناول يدي إذا هاجمني أحد»!

كان وقتها رئيساً لمكتب الأمن القومي، بعدما عينه أصحاب انقلاب الثامن من آذار (مارس) 1963 لفترة وزيراً للإصلاح الزراعي، فأستنفر ضد «حزب البعث العربي الأشتراكي» كل أصحاب الأراضي والأملاك الزراعية، لا لأنه صادر مزارعهم وزرعهم وحقولهم وقراهم، التي توارثوها أباً عن جد وحسب، إنما لسوء معاملته لهم وسلاطة لسانه ولجوئه الدائم إلى التهديد والوعيد.

تحوّل عبد الكريم الجندي إلى عاصفة، أجتاحتني، تناثر وجهه أمامي، توترت الظنون في رأسي، عدت أراه يبتسم لي، يبتسم كما كان يفعل عندما يفتح لي باب سيارته، أشتعلت فكرة في رأسي:

«أكيد أنه لا يعرف أنني هنا»، أنتشيت بالفكرة، أسترسلت، أعطيت للفكرة مداها في ذهني: « لو رآني هنا في هذه الزنزانة المظلمة النتنة، لن أبقى بعدها دقيقة واحدة خلف بابها الحديدي» لسعتني فكرة أخرى، أنتفضت لها واقفاً تمتمت في سري: « لا أتصور أن «صديقاً» لي في موقع القوة والسلطة، سيقبل أن أمكث في معتقل بسبب قناعتي وأفكاري التي تتعارض مع قناعاته وأفكاره، ألم يكن هو رجل فكر يتحدث عن الثورة والثوار والتحرر والقومية والوطنية، فما باله يقبل أن يعتقل الأحرار الذين يؤمنون مثله بالقومية والوحدة والتصدي للأستعمار؟».

ثقل النفس في صدري. أستسلمت للتهيوءات. أرتعشت. أصبحت الزنزانة بئراً أغرق فيها. تبتلعني. تغمرني بالماء الوسخ. أختنق... أختنق حتى الموت. أصبحت جثة تطفو على سطح الماء. يلفظها ماء البئر. أنياب ذئب آت من الفلوات تنغرس فيها.تنهشها. تناثر لحم الجثة في أرض الزنزانة. سال الدم. غمر

الحيطان... صار لونها أحمر.

سعل العنصر، لعن السجائر. هزني صرير المفتاح في القفل. أعادني إلى صوابي. تنسلّ أرتعاشي. تيقظت. تلون صوت العنصر الجهير. وهو يفتح الطاقة المستطيلة. مدّ يده منها، مدَّ بأصابعه رغيفي خبز وأربعة أقراص فلافل وعشر حبات زيتون أسود، فككت ريقي برغيف، دفنت بين شقيه أقراص الفلافل. أخفيت الرغيف الثاني وحبات الزيتون تحت البطانية...

II

هلْوَس نسيم بارد آت مع أول الليل، كان الظلام قد جنّ والبرد بدأ يجوب الممر، يحشر رأسه في الزنزانات المصطفة على جانبه تصطك حيطانها من البرد، تكورت على المصطبة، أرخيت على كتفي بطانية نتنة تفوح منها روائح العرق والعفونة، علق نظري في الكوة المكللة بالليل، بالأسود، مثل الحرية صارت قصيدة بطولة في دفتر الليل.

خلف الحيطان السميكة تتنفس الحياة بالحرية، تغسل الحرية وجوه الناس في الطرقات الثرثارة التي لا تخلو من الرجل والحافر، خلف الحيطان السميكة ينام الناس على بسمة قمر ويستيقظون على غمزة نجمة. ثمة أصوات تقتحم صمت الزنزانات، تهتز لها ترتعد، تتلاشى الأصوات، يعود الصمت يسلطن، يتمدد في الممر، يتبالد الليل في مشيته على الساعة، يصبح ثقيلاً، يطبق راحتيه، يتفنن في القهز والتعذيب، شعرت بالأنقباض يطبق على صدري، ألحّ عليٍّ شعور بالصراخ، وددت أن أصرخ، أن أمد صوتي خلف الحيطان السميكة فيخترق حجب الليل، يكسر الصمت مثل حجر يكسر لوح زجاج، أن يدخل صوتي كل بيت من بيوت الشام من دون أستئذان.

سكن البرد مفاصلي، تجمد فيها، أرتجفت، والرطوبة تتكمش في الصمت غول يطل في الليل يبلع الأصوات، فلا تسمع إلا تنفس المساجين.

الدكتور جورج حبش في الزنزانة المقابلة يسعل. سعال آخر يطلع من زنزانة في آخر الممر، يعود الصمت هنيهات... يعاود الدكتور جورج حبش السعال بطريقة مختلفة، يتمشى سعال السجين الآخر في الممر، يلتطم بالحيطان يمنة ويسرة، قبل أن يصل إلى باب زنزانة الدكتور جورج حبش. وكأن «الحكيم» قد فهم، فكفٍّ عن سعاله، ليعود نزيل زنزانة آخر الممر بعد ساعات يسعل من جديد فيجيبه الدكتور حبش إلى أن ينتهي الحديث، وقد أكتشفت أن نزيل الزنزانة في آخر الممر كان معاوناً للدكتور والسعال ما هو الا نوع من الـ«شيفرة» يتخاطبان بها.

زحف الوقت بطيئاً، همدر الصمت، كرجت رائحة المراحيض مع نسمة باردة، ثمة أصوات تقترب، أصوات أقدام بأحذية ثقيلة، نعال العسكر السميكة تمعس الأرض بعصبية تكاثرت الأصوات، أقتربت أكثر، رجع صدى طرقات كعوب دوى في الممر، حشرج مفتاح في قفل، فتحت البوابة الحديدية الضخمة أحدثت صوتاً

غريباً.
وصل العقيد، دار همس العناصر.

III

«نعم سيدي...».
ألْبَسَ العنصر صوته نبرة عسكرية.
«إفتح طاقة هذه الزنزانة».
صبغ كلماته بالحدة والغضب.
وصلني الصوت مدوياً، هزني، أنتفضت أنتفاضة من ردت الروح إليه، رفعت البطانية عن كتفي، أنتصبت في وسط الزنزانة، عرفته، أنه صوت العقيد عبد الكريم الجندي، تولاني الأرتياح، هوذا الرجل آتٍ ليخلصني. ليفتح لي باب الحرية على مصراعيه، تركت أبتسامة عريضة تتمدد علىً شفتي، أرتاحت أعصابي لها.
«من أنت؟ تقدم إلى الضوء».
تلوى السؤال بين شفتي العقيد عبد الكريم الجندي.
«أنا سعيد رمضان».
وسكت، لقد كان سعيد رمضان في الرابعة عشرة من سنّيه، قضى ثلاثة أيام في نحيب مستمر.
«ماذا تفعل هنا؟».
نتر العقيد كلامه نتراً.
«أتوا بي إلى هنا لأنني شتمت الحكومة».
تجاسر الفتى على تلعثمه.
«هل ضربت أو عذبت؟».
إستلانت نبرات العقيد، فأجابه الفتى منتحباً:
«رفعت فلقة، ضربوني ستين خيزرانة على رجليّ، أغمي عليّ في اليوم التالي وجدت نفسي في هذه الزنزانة».
عاد الغضب يتبرعم في صوت العقيد:
«هذا عقاب طويل اللسان مثلك».
صمت هنيهة صرخ بالعنصر:
«أفتح... أفتح له الباب، أتركه يذهب إلى أهله».
«حاضر سيدي...».
ثَرثَرَ المفتاح في القفل، فتح الباب، طلع صوت العقيد جازراً:
«إذا شتمتنا مرة ثانية، سأنتزع رقبتك من بين كتفيك بيدي، مفهوم...».
مشى العقيد، لحقته العناصر، توقف أمام باب الزنزانة رقم 2 نزيلها شاب ينتمي إلى حزب البعث العربي الأشتراكي (أترك أسمه للزمان)
«أنت هنا أخيراً...».
فرك العقيد كفا بكف، بصق على الأرض.

«أنا في ضيافتك يا أبا حسين...».
جبل الأسير كلامه بالتوسل.
«في ضيافتي... في ضيافتي يا كلب».
خرجت نبرات العقيد مثل فحيح أفعى تستعد للأنقضاض على فريستها:
« سأسلخ جلدك عن لحمك، وسأجعل منه جلد طبل أنقر عليه».
أحتضن صوت الأسير عتاب ممض قال:
« ولو... ولو نحن أصدقاء أبا حسين...».
هاجم صوت العقيد حمق أهوج فأرعد:
«أنت لست صديقي... أنت صديق أم حسين».
بلع الأسير كلامه مع ريقه:
«إنها أختنا...».
« أختك... أختك يا كلب، يا قواد...».
بعدها سمعت صفعة حادة تهوي على خدٍّ، صرخ لها الأسير ألماً.
في الزنزانة رقم 3 توقف العقيد طويلاً، كان فيها «أبو أحمد» أحد القوميين الإجتماعيين، فلسطيني الأصل حلبي الإقامة والسكنى، كان مديراً لفندق سياحي فيها، دار نقاش حاد بينهما، لم يوفر العقيد شتيمة إلا وألحقها بالأسير وبالحركة التي ينتمي إليها...
وأقترب العقيد من باب زنزانتي، الزنزانة رقم 4 ، فتح العنصر الطاقة، غرقت عينا العقيد في العتمة، لم يتبيّن وجهي:
« إقترب... إقترب من الضوء».
أشار العقيد إلى الضوء الشحيح المنبعث من زجاج يعلوه غبار لمبة تتدلىّ في الممر من شريط كهربائي مجدول.
أقتربت تاركاً على شفتي أبتسامة يرسمها عادة من يعتقد أن الآتي إليه هو «صديق».
غرس العقيد عينيه الحادتين في عيني، فتحهما على أتساعهما، أحسست بهما تنخران جلد وجهي، مص شفته السفلى، قال بمستطيل الحمق:
«أنت هنا إذن؟».
أنتابني الذهول، تمددت الخيبة في عيني، عاد يرقّص عينه غضباً وكلامه يتلوى بين شفتيه:
« ستبقى طويلاً . لن تخرج حيا ».
ثم صبغ نبراته بالهزء:
«لن تخرج حياً يا عالم التاريخ، تحتك دفنوا معاوية وعبد الملك وياسين الهاشمي وشكري القوتلي الذي سرت في جنازته...».
ضيّع الذهول الكلام مني، ظننته لم يعرفني، فذقني نمت وشعري قد طالت خصلاته ووجهي أعتلاه الشحوب والوهن.
«لكنني صديقك، أنسيتني... أنسيتني يا أبا حسين؟».
في لحظة تحول وجهه إلى وجه ذئب، فتح عينيه المحمرتين على أتساعهما،

نفرت عروق رقبته:
« أنساك، كيف أنساك؟ أقترب، مدّ رأسك من الطاقة أريد أن أهمس بإذنك».
صدقته، ظننت أنه كان محرجاً أمام العناصر التي تحوطه، لا بد أنه سيقول لي خبراً مفرحاً، مددت رأسي بشكل جانبي، أرخيت أذني اليسرى وصدغي الأيسر على حافة الطاقة وأعطيته خدي الأيمن وأذني اليمنى، فرفع ذراعه إلى الأعلى بسرعة ونزل بقبضته بقوة على أذني اليمنى وصدغي الأيمن، أنقبض نفسي هنيهات، صرخت من الألم، كانت حافة الطاقة مثل حد سكين قطعت خدي الأيسر، زاغ نظري، دارت الدنيا بي، كدت أقع أرضاً، جرجرت جسدي إلى المصطبة، تمددت عليها، غبت عن الوعي.

IV

7 نيسان (إبريل) 1968
كان عليه أن يمد صوته عالياً كي أسمع، فقد أهتزت حاسة سمعي، كل ما كان يصل إلى أذني ذبذبات تتلاشى خلف الطنين المستمر في رأسي، وإن كنت أسمع فإنني كنت أعاني الأمرين في تحريك فكي.
أرفق العنصر كلامه بالإشارة، يطلب مني الخروج من الزنزانة للتنفس، فأجبته على قدر ما سمح لي فكي في تحريك فمي بأني تعب هذا النهار وأفضل البقاء في الزنزانة.
بقي لحظات ينزه نظره عليَّ وأنا أحاول الوقوف على قدمي، هزَّ رأسه، أستدار، أغلق الباب خلفه.
غالبت الألم، حاولت التمرن على فتح فكي، بدأت أعود جسدي على الحركة، أدور في الزنزانة، أمد الخطوات التي أزرعها وئيدة في أرض الزنزانة، قررت أن أطرد الأفكار التي كانت تعيدني إلى ما حدث ليّ.
نهار آخر يموت وليل آخر يولد تحت سياط الجلادين، على أنين المجلودين الذي كان يخترق البوابة الحديدية، ينتشر بين الزنزانات، صامتة عدا فترات كنا نعرف أنه بإمكاننا تبادل بعض الكلمات وبعض أحاديث، يهتف أحدنا بالآخر، أنت في الرقم 7 من تكون؟ فيجيب نزيل الزنزانة السابعة معرفاً بنفسه وبتنظيمه وسبب أسره، ويرد آخر على ثالث، أنت في الزنزانة رقم 10 من تكون؟ ويعاود الجواب ويدور الكلام متقطعاً... والهم واحد، أن لا يكون بين الأسارى من زرعته الأستخبارات لألتقاط ما يقال...
كانت أخبار الخارج تخترق الجدران السميكة، يحملها إلينا بعض عناصر الأستخبارات، الذين تصادقوا مع عدد من الأسرى، كان الهمس يدور حول الصراع بين اللواء صلاح جديد والعقيد عبد الكريم الجندي ومن لَفَّ لفَّهما من ضباط وقطاعات ووحدات، ومن مدنيين بينهم رئيس الحكومة يوسف زعيّن ومجموعة من السياسيين المتكسبين ومن عبدة المناصب من يتصنّع العظمة ويخيل إليه أنه صاحب الشأن وليس يعلو نملة تحت قدم.

أخترق سمعنا أنقسام القيادة القطرية، بعض من فيها يريد الأنفتاح على الدنيا والجيرة والجيران، وبعضهم الآخر يتشدد، يغلق أبواب الشام على أهاليها، يرى أن إنشاء سد الفرات هو هزيمة للإستعمار والمستعمرين.

قبل يومين من ذكرى تأسيس «حزب البعث العربي الأشتراكي» كان رئيس الحكومة الدكتور يوسف زعيّن (شفاه الله من مرضه العضال) يخطب في «الطبقة» المطلة على نهر الفرات، هدد الدنيا، لوّح بالويل، مد صوته ليسمع الجيران، أعلن أن «الحزب القائد» قد هزم «الأستعمار» و «الرجعية» و«الأمبريالية» وأنه خليفة الأتحاد السوفياتي ليبني سداً على نهر الفرات.

كان علينا نحن القابعين في الزنزانات والقواويش أن نصدّق هذا المنطق غير العلمي، الذي يدغدغ عواطف الجماهير، لكنه لا يبني وطناً ولايقود ثورة ولا يزيل أحتلالاً.

كان «الرفاق الحمر» والأقل «أحمراراً» والزرق والبيض، يجتمعون على تسفيه مقولات الأنتصار على «الرجعية» و «الأمبريالية» بعوامل القمع وبخطابات الدكتور يوسف زعيّن الرنانة.

لم نكن لحظة واحدة نُدرك أن الإنقسام الحاد الذي سمعنا به بين يمين ويسار أو تقدم أو رجعة ضمن القيادة القطرية الحاكمة سيتحول إلى حركة لا «تصحح» وضع الجمهورية الواقفة على خط النار ضد «إسرائيل» وحسب، بل وضعنا نحن أسارى تشنجات وتعقيدات، أعتبرت أن عدم التوافق في الرأي أو في السياسة يحل بجر الآلاف إلى المعتقلات و... السجون.

V

8 نيسان (إبريل) 1968

تطاولت على الحائط، أمسكت حديد الكوة المجدول، تغاضبت على الوهن في ذراعي، رفعت جسدي، أقحمت عينيّ بين حديد الكوة المجدول إلى باحة المعتقل، كان عصام محايري قد سمح له بالخروج إلى التنفس مع الدكتور جورج حبش، صارا يترافقان، يطوفان معاً في الباحة، وددت أن الفته إلى وجودي، أن أسمع منه كلمة، هزة رأس.

كان ما يزال يثبت على أنفه النظارات المكسورة، يمشي وئيداً، يرتاح، يمسك رجله، يضغط عليها بيده، يعرج منها، يدور من جديد، يلحق به الدكتور جورج حبش، مطرقا على الأرض، طال توقف عصام محايري، أهتز أحد العناصر حنقاً، أشتعل صوته، عاد عصام محايري إلى الدوران حول الباحة، رفع رأسه، تمشى نظره على الزنزانات، توقف أمام كوة زنزانتي، رآني، أسقطت عيني في عينيه، عرفني، هز رأسه، أكمل الدورة، أبتعد عني، تمسكت بالحديد، ضغطت عليه بيدي أكثر، خفت أن يتفلت الحديد من قبضتي، فأقع، أنتظرت أن يعود عصام محايري في دورته ويقترب من زنزانتي، تمهل لما وصل تحت الكوة، همس:

«ستخرج قبلي...».

مشى، أكمل دورته، عاد، أقترب من زنزانتي:

«طمئن والدتي عني...».

مشى، إلى الدوران، في الدورة الثالثة همس:

« أخبر الرفقاء أن يصمدوا...».

ترك صوته خلفه، عاد إلى الدوران:

«لم يأخذوا مني ما يدينهم...».

هز رأسه، أنتظرت، بقيت معلقاً على الحائط، غاب عن ناظريّ، أدخلوه إلى غرفة التحقيق، ما عدت رأيته منذ ذاك اليوم إلى أن ألتقيته في «شارع الحمراء» في بيروت سنة 1971.

تنبهت إلى العنصر، كان يدور بعينيه على الزنزانات، أخفضت رأسي، هويت على الأرض، عدت أتمدد على المصطبة، محا ذهني كل الوجوه، تلبسني الأرتياح، رددت كلمات عصام محايري «طمئن والدتي عني»... تركت المصطبة، عدت أزرع أرض الزنزانة بخطوات وئيدة، تجمد نظري على باب الزنزانة ساعة سمعت حشرجة المفتاح في القفل، دفع العنصر الباب بقدمه، سده بقامته الممشوقة، عبس، قطب، حرك شدقيه بحركة غريبة، مسدّ شعره الكث بأنامله، تواثبت الكلمات على شفتيه الغليظتين، علك مخارجها علكاً:

«تعال، أخرج...».

مد يده، شدني من ذراعي، جرني إلى خارج الزنزانة، دفعني جانباً، أغلق الباب، أستدار، نظر إليّ من زاوية عينه اليمنى، مد الخطوات أمامي، أشار، تبعته.

تولاني الأنقباض، أسرع الخطى، حاولت اللحاق به، أمتلأ رأسي بالظنون، توجّست شراً، إلى أين يقودني هذا العنصر؟ غمغمت في سري، أختلطت الأفكار في ذهني: هل سيحققون معي للمرة الأخيرة؟ من سيكون المحقق هذه المرة؟...

أرتعش داخلي، نزل العنصر إلى باحة المعتقل، بدأوا الإعداد لحفلات التعذيب، أستدار، توقف أمام مكتب الملازم أول محمد نابلسي، أومأ، توقف، نقر على الباب، أنتظر، لم يأته الجواب، ظل واقفاً، عاود النقر الخفيف على الباب، تنحنح، طلع صوت من خلف الباب، أخذ العنصر نفساً طويلاً، فتح الباب بسرعة، دخل، بقيت واقفاً أنتظر، غاب دقائق، خرج، فتل شاربه المقوس بإبهامه وسبابته، تفاخر في نظرته، شدني من ذراعي، أدخلني.

ساعة رآني وقف، مشى من خلف الطاولة الخشبية، أزاح برجله خيزرانات مرمية إلى جانب آلة الفلق، أبتسم، بانَ وجهه المنتفخ ودوداً، عيناه تغرقان في محجريهما، لعب الصلع في رأسه فما خدع الناظر إليه أنه لم يتجاوز العقد الثالث من سنّيه، مد يده، ضغط على يدي، هزها مرات، دعاني إلى الجلوس، عاد إلى الكرسي خلف الطاولة، لملم علامات الأستفهام من عيني:

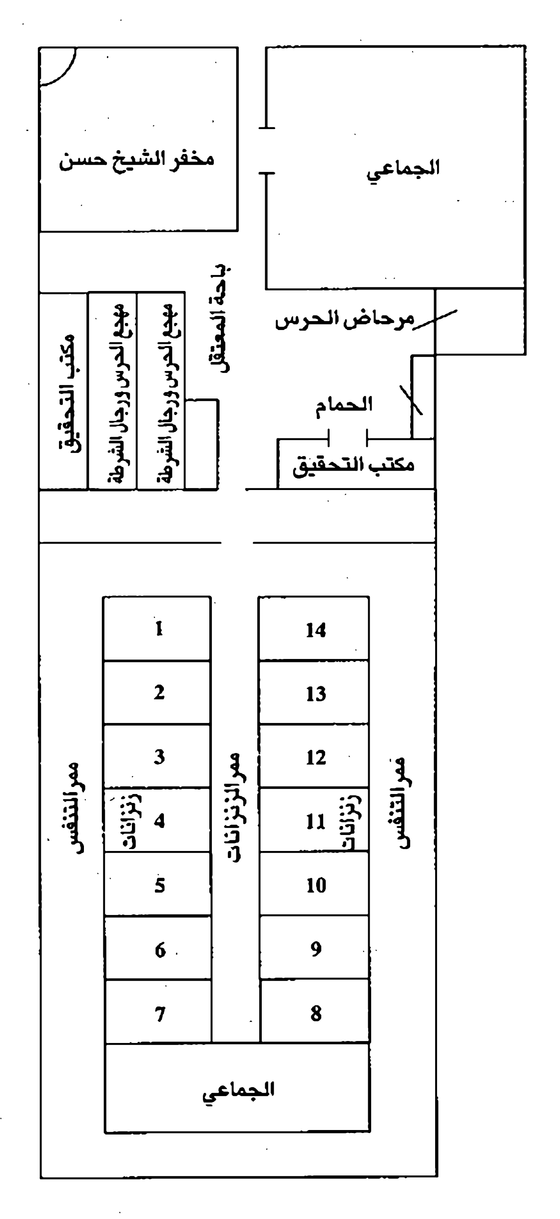
«أنا الملازم أول توفيق شيخ علي».

تنبه إلى الأستغراب تمدد على وجهي فأكمل:

«لقد أوصاني بك صديقنا المشترك عزيز مطانيوس صاحب «الكاف دو روا».

غدرتني ضحكة ممطوطة أخذت مداها على شفتي:

«في الخارج بعد من يذكرني...».
رددت الكلمات على مهل في سري. تمالكت نفسي قلت:
« عزيز... عزيز سأل عني؟».
أسرع في تبديد أستغرابي. أرخى ظهره على الكرسي، قال بشيء من التباهي:
«كنا نتعشى عنده، فطلب مني أن أوفر لوالدتك وزوجتك وشقيقتك زيارتك، قد تحدث الزيارة غداً أو بعد غد... على أبعد تقدير».
تأنق في مخارج كلماته، فتحت عيني على أتساعهما، أستولى عليّ شعور ممزوج بالدهشة والغبطة، حكّ رأسه كأنه يتذكر:
«قبل أسابيع كلمت الملازم أول محمد نابلسي فأستقبل زوجتك ووالدتك ومعهما شقيقتك وسمح لك ببعض الحاجات... أظن أنك أستلمتها ».
رقص التفاخر في عينيه. سكت. أنتظر مني أن أشكره، شكرته، أكتفى بهز رأسه، عاد إلى الكلام، فاجأني بالسؤال:
«هل معك «مصاري»... معك دخان؟».
تولاني الخجل، تلعثمت، أبصرت توددا في عينيه، قلت:
«وصلت إلى هنا وفي جيبي 35 قرشاً، أما الدخان، فإني أستعير من هنا وهناك».
هزه كلامي، أنتصب واقفاً، مد يده إلى جيبه، أخرج منها أوراقاً نقدية، عدها ورقة ورقة: خمسين ليرة أعطاني منها خمساً وثلاثين ودفن الباقي في جيبه:
«تدبر أمرك حتى آتيك بالمزيد».
مدّ يده إلى علبة سجائر «الحمراء» مغمغماً:
«هذي لك... سآتيك بمثلها من عزيز في وقت قريب».
أشاح بوجهه عني، أهتاج بي ولعي إلى التدخين، منذ ثلاثة أيام لم أدخن سيجارة واحدة، لم أنتظر، حشرت لفافة بين شفتي، مددت عود الكبريت المشتعل إلى رأس السيجارة، أخذت نفساً طويلاً، بقي ينظر إليّ وأنا أعبّ دخان السيجارة، أنتظر حتى ذابت السيجارة بين أصابعي، صرخ بالعنصر، دخل العنصر، دق كعبيه في الأرض بقوة، رفع يده اليمنى إلى صدغه الأيمن في زاوية حادة، لبس صوت الملازم نبرة صارمة، أمره أن يعيدني إلى الزنزانة، رمقني الملازم بنظرة سريعة وشت بالمودة، تحايل على نفسه، أصطنع الأنهماك بجمع الأوراق في ملف أصفرّ جلده، فهمت تصرف الملازم، لم أنبس بكلمة، شدني العنصر من ذراعي، مشى أمامي، لحقت به، دفع بي إلى زنزانتي المظلمة، أغلق الباب، تملكتني النشوة، سأرى أمي وزوجتي وشقيقتي، غصصت بدمعة، أعدت ترتيب كلمات الملازم أول توفيق شيخ علي في رأسي، أبتسمت، تمشى خدر رفيق في أعصابي.
كان الجلد قد بدأ. الصراخ لطم الصمت، والأنين غمر الزنزانات، ليل موت آخر يتنسل بطيئاً، وقفت في وسط الزنزانة أمد نظري من الكوة أنتظر الفجر...



رسم بياني لمعتقل الشيخ حسن

VIII

نسمة حرية...

I

12 نيسان (إبريل) 1968

سلخ الضوء جلد الليل، طلع، مسدّت أشعة أول الشمس حيطان الزنزانات، كَرَجَ نسيم بارد، لفحني، فحتّ رائحة المراحيض، داعب الضوء المتكاسل عتمة الزنزانة، تمطت العتمة، تثاءبت، بدأت الجراذين تبحث عن أوكارها لتختفي، خيط «البق» الذي كان يتنسلّ على الحيطان يبحث عن عضة في جلدي، أختفى، يسرح «البق» في الليل ويخاف مثل اللصوص ضوء النهار.

سلحبت رعشة باردة إلى مفاصلي، أيقظتني، قمت، فرقعت فقرات عمودي الفقري، شعرت بدوران، عاد الألم يتسمّر في فكي، حاولت أن أفتح فمي على مهل حركته يميناً وشمالاً مرات عدة، صمغ النوم تمسك بعينيّ، جرحهما الضوء، أغمضتهما من جديد، فركتهما بأصابعي، أزحت الصمغ منها، حانت مني نظرة على أصابعي، الوسخ كان يرسم خيطاً أسود تحت أظفاري الطويلة، أخذت أقص أظفاري بأسناني، أقضمها بسرعة، لعب الغثيان في معدتي، أنتابتني رغبة أن أغسل وجهي بأشعة الشمس قبل الماء، تهالكت على الحائط، أحكمت قبضتي على حديد الكوة المجدول، رفعت جسدي، صار وجهي على الكوة، لطمني نسيم بارد، أمسك بوجهي، تولاني الخدر، أراحني دبيبه في مفاصلي، رميت عينيّ في باحة المعتقل، رايت عنصراً يحتسي كوب شاي وقد شعر بالضيق لأنه أتاح لرفيقه فرصة التجاسر عليه.

«يا فتاح يا رزاق يا عليم».

مد الحارس صوته الجهير، قلب كوب الشاي الساخن على صدره، سب الدين، ضحك الحارس الثاني لمنظر رفيقه وهو ينفض قميصه من الشاي

الساخن، ضحكت بدوري، مر الماء وسخاً في الحنفية، أنتظرت إلى أن أنتهى القسطل الطويل من التغرغر بالأوساخ، جمعت كفي، تجمع الماء فيهما، رششته على وجهي، تسرب إلي شعور غريب بالراحة، قلما أحسست به في تلك الزنزانة النتنة المظلمة، التي كانت تأكل من عمري يوماً بعد يوم.

قفز إلى عيني وجه الملازم أول توفيق شيخ علي، تفطنت إلى أنني دفنت تحت البطانية علبة سجائر «الحمراء»، أنتشيت وأنا أعب دخان لفافة منها، كانت مع كل مجّة تتضاءل السيجارة بين أصابعي، حفظت كلماته عن ظهر قلب، داعبتني هذه الأفكار، أعطيتها مداها، حاصرتني النشوة «لأول مرة منذ ثلاثين يوماً أشعر أنني وقفت أمام إنسان يحقق معي وليس ذئباً في عينيه شهوة الدم»، أعجبتني هذه الفكرة، رحت أسترسل «سأكتب أسمي على الحائط، لقد وعدت نفسي أن أحشر أسمي بين الأسماء متى تيقنت من خروجي» غمغمت بسري، نزهت عيني على الحائط أبحث عن مكان لأسمي عليه، تسليت للمرة الألف في قراءة الأسماء والتواريخ، طن في أذني صوت العقيد عبد الكريم الجندي، أنقبض قلبي، تلاطمت الظنون في رأسي: «هل سيمنع هذا العاهر الجائر خروجي إلى الحرية»؟ عادت كلماته تتمدد في رأسي:

«لن تخرج حياً يا عالم التاريخ، تحتك دفنوا معاوية وعبد الملك وياسين الهاشمي وشكري القوتلي الذي مشيت في جنازته».

تنحنح جاري الاسير، أنتشلني من فزعي، دق علي الحائط بقبضته مرتين، تلك إشارة «صباح الخير»، هزني، أتجهت إلى الحائط بلهفة، مثل طفل أنتشى بلعبة، أنهلت على الحائط بقبضتي، ألف... ألف صباح الخير.

كنت متكئا على المصطبة فجلست ساعة غصّت الطاقة المستطيلة في باب الزنزانة تحت أصابع العنصر يحيى. أطل شاربه قبل عينيه، عيناه الكبيرتان العسليتان أحتلتا الطاقة، دارتا بسرعة في زوايا الزنزانة، رقصتا على وجهي، تحرك فمه خلف الباب، علك بعض كلمات لم أفهمها، ثم مد صوته التعب:

«حضر حالك عندك مواجهة».

كاد قلبي يقفز من صدري، جف حلقي، أرتجف داخلي، لقد أنتظرت هذه اللحظة بلهفة، فما بالي أرتبك، أرتجف مثل ورقة خريفية، أخاف مثل شجرة عارية، تلعثمت، تغاصبت على الكلمات، أردت أن أتأكد أكثر من كلامه خرج صوتي فيه بحة:

«مواجهة... مواجهة؟ قلت».

تغيّرت نبرات صوته، ألبسها غضباً مقيماً:

«نعم... مواجهة... مواجهة».

تلمست وجهي بأصابعي، نخزتني شعيرات ذقني الخشنة، أقتربت من الباب:

«كيف أتحضر للمواجهة».

«أرتدي ثيابك، سأمر عليك بعد خمس دقائق».

أبتعد، عادت الطاقة المستطيلة تطبق فمها، بقيت هامداً لحظات، سكنتني

النشوة، نفضت عن سترتي الغبار، فحت منها رائحة عرق كريهة، لونها الكحلي صار متعدد الالوان، أختفى اللون الأبيض من القميص فصار موشى ببقع سوداء، أطل إصبع رجلي من ثقب في أحد الجوارب، أنتعلت حذائي الذي كان منذ ثلاثين يوماً مخدتي و«حائط سر أحلامي»، ضحكت لما كرجت هذه الكلمات فى رأسي، وقفت أنتظر العنصر يحيى، أمسد شعري المنكوش الطويل بأصابعي.

حشرج المفتاح في القفل، فتح العنصر يحيى الباب بلع مع ريقه كلامه:

«إلحقني... إلحقني لتحلق ذقنك».

رمى نظرة أشمئزاز على وجهي، تركني أسابقه في خطواتي إلى باحة المعتقل، وصلنا، أشار إلى المغسلة الصغيرة التي تتربع فوقها مرآة مكسورة، أمرني:

«هذه الصابونة، وهذه آلة الحلاقة، أحلق ذقنك بسرعة».

لأول مرة منذ ثلاثين يوماً، رأيت وجهي المزدحم بشعر ذقني في المرآة، الشحوب، كان يسكن قسماتي، دائرة سوداء حاصرت عيني، الماء كان بارداً، بللت ذقني به، تغاصبت الصابونة على الرغوة، تناولت آلة الحلاقة، تصفحت الشفرة في داخلها، فإذا بها مكسورة الأطراف، بالكاد تقطع خيط حرير فكيف الحال بشعيرات خشنة بدأت أمررها على ذقني، وبدأت الشعيرات تتلوى تحتها تقضم، تنزل على الجلد تشطبه، تجرحه، الدم يسيل مع رغوة الصابونة على قميصي والعنصر يحيى يراقب، يستعجلني، فأسرع في مد الشفرة على ذقني وتسرع هي في القضم والتشطيب.

غسلت وجهي من رغوة الصابونة، ومن الدماء التي كانت تسيل من خدي، مسحته بكم سترتي، شدني العنصر يحيى من ذراعي شداً عنيفاً، مشى إلى جانبي، كان بين الفينة والفينة يرمقني بزاوية عينه اليمنى، تمهل في مشيته، وقف أمام بوابة المعتقل الرئيسية، قرع جرسها، فتحت، أطل منها عنصر ترقص المهابة على شاربيه الغليظين المفتولين، عبس، قطب، أومأ إلى العنصر يحيى أن أحتجب، فتركني العنصر يحيى، ومشى عائداً إلى المعتقل، أقترب عنصر آخر قصير القامة مفتول الساعدين صغير العينين حاد النظرات، ترك تحت أنفه شارباً على شكل رقم 8 ، مسكني بذراعي اليمنى بينما العنصر الآخر أحكم قبضته على ذراعي اليسرى، مشينا بأتجاه سيارة الـ «لاند روفر» السوداء التي كانت تحمل رقماً غريباً، لما رآنا سائقها، وكان لا يتجاوز العقد الثالث من سنيّه، حنطي السحنة، براق العينين بشوشا، نقترب، ترك المحرك يجعر، ما أن أستويت على المقعد الخلفي بين العنصرين، حتى ترك للسيارة العنان تنهب الأرض نهباً في أتجاه شارع الميدان، فشارع المناخلية فالسنانية، قبل أن أبتلعت عجلاتها شارع الحجاز وبور سعيد بعده.

اقحمت عيني في زجاج السيارة، لم أصدق نفسي أني أرى من جديد الشوارع التي كانت تتمدد وتتطاول وتنحسر أمام سرعة السيارة الأنسيابية، تلبستني نشوة غريبة، لما أنعطف السائق بأتجاه شارع عرنوس والجسر الأبيض فطريق الشيخ محيي الدين.

أنقبض قلبي ساعة ضغط السائق الشاب على مكابح السيارة فتوقفت بسرعة أمام مبنى «الأمن السياسي».

II

طوقته العناصر، سدت أجسادهم مداخله، المار به يظن المبنى دائرة أخرى من دوائر الدولة، يعج بالداخلين والخارجين، تسمع من النوافذ قرقعة أحرف آلات الكتابة الحديدية على الورق، ولا أحد يظن أن تحت هذا المبنى أقبية وسراديب، تتفنن عناصر العقيد عبد الكريم الجندي في التعذيب فيها والجلد واللسع وسحب الأظفار من الأصابع وسلخ الجلود ببراميل المازوت.

كرج نظري من شباك السيارة على طوابق المبنى، في واحد منها مكتب يوسف طحطوح، (الملازم أول في حينه)، ازداد أنقباضي لما قفز امامي وجه ذلك الضابط الغريب الصوت، الذي أنزلوه بيننا في معتقل الشيخ حسن ليضرب، يجلد، يلسع، يعذب، يشتم ويكفر كلما شاء وفي الوقت الذي يشاء، وليبني لنفسه موقعاً في آلة البعث القمعية، وليتبوأ مناصب لم يجاره فيها أحد متجاوزاً بذلك كل نظرائه وزملائه في أجهزة الأمن والأستخبارات.

«أحْجي يا ولْ... إحْجي يا خالد» يتوحش صوت يوسف طحطوح، يعود يطن في أذني عندما كان يجلد ويعذب خالد العشي وأخوانه، يمر شريط آخر من الصور أمام عيني، وجه عصام محايري المنتفخ من اللطم واللكم والصفع، صوت يوسف طحطوح يكيل له الشتائم والتحقير.

يعود وجه يوسف طحطوح يقترب مني، عيناه الشرستان تنفران من محجريهما وهو يصرخ في وجه رفيقي «أبو غياث» يعقوب لما رآه مرتدياً «روب دوشامبر» خمري اللون:

«يا قواد... ترتدي منامة نسائية وبلون خمري أيضاً».

يرفع يوسف طحطوح يطلق الصفعة.

فيرتد الرفيق عليه، يرفع بدوره يده يصد الصفعة، يصرخ في وجه الملازم طحطوح:

«أحترم نفسك كي أحترمك، أنا رجل مثلك، أنت سجاني فلا حيلة لي لايقافك عن تماديك في إهانتي وتحقيري الا تهذيبي وأخلاقي، فعاملني بالمثل».

جحظت عينا يوسف طحطوح، نفر الدم منه، عض على شفته السفلى، أخرج الكلام البذيء من بين شفتيه الغليظتين وأنهال بسوطه على الرفيق حتى شقه وسال الدم.

حاولت مراراً أن أعرف سبب شراسة يوسف طحطوح ونهمه لتعذيب الناس وشهوته للدم، سألت نفسي إن كان ذلك يعود إلى كونه من منطقة البادية، من دير الزور، أم أن تقوقعه وتشرنقه في حياة عشائرية قبلية رفضت عبر القرون أن تنصهر في ليونة أهل المدينة، السبب في ولادة وحش في داخله لا يشبع من اللحم الحي والدم الساخن، يتحرك بين الحين والآخر؟ أم أن الإنتماء الماركسي

(كما أذيع بين الأسارى) وحقده الطبقي وشعوره بالميضعة أمام أصحاب الأسماء من أبناء الأسر والعائلات الذين ساقتهم ظروف فكرهم السياسي ورفضهم للنظام الحاكم إلى براثنه ليعمل فيهم تعذيباً وجلداً وتشويهاً وتمثيلا بأجسادهم...

تجنبت الغرق في أفكاري، سألت العنصر إن كان يسمح لي بالتدخين؟..هز رأسه، حشرت لفافة في فمي، أمتصصتها بشراهة، زاغ نظري مع الدخان المتلاشي الذي كان يصطدم بزجاج السيارة فينتشر عليها، سعل العنصر، فتح النافذة إلى جانبه، مد رأسه خارجها، تكلم مع عنصر آخر، أومأ العنصر الثالث. لكزني. فتحت باب السيارة. ترجلت. لحق بي. عاد يضغط على ذراعي. شدني. مشينا.

III

على الرصيف المقابل للمبنى وجدت صديقي مروان سكر واقفاً يبتسم لي، مررت به، بادلته الأبتسامة، ضغط العنصر على ذراعي، فهمت، أشحت بنظري عن مروان سكر، دخلنا المبنى.

عبرنا إلى ممر في الطابق الأرضي، مشى العنصر الثاني أمامنا، مد الخطوات في الممر، توقف أمام باب، نقره نقراً خفيفاً، دخل، غاب لحظات، خرج، أومأ، تقدمنا، دفع العنصر الباب، فإذا بي أمام أمي وزوجتي وشقيقتي.

وقف المسؤول خلف المكتب، حمل عينيه العسليتين الكبيرتين ووضعهما على وجهي، أبتسم نصف أبتسامة، أشار إليّ بالجلوس، بقيت واقفاً:

«المواجهة خمس عشرة دقيقة فقط...».

لم يزد، عاد إلى الجلوس، تلهّى عنا بأوراقه، ضمتني أمي إلى صدرها، شهقت بالبكاء، حبس القهر الدمع في عيني، أرخيت رأسي المتعب على كتفها، شممتها، شعرت بحنوها، طيبت خاطرها بأنني بخير ولم أتعرض إلى الإهانة، أنبسطت أسارير المسؤول، بكت شقيقتي، لم تبطل تمرير أناملها على وجهي، سحبتني زوجتي إليها، حاولت أن تخفي دمعاتها فلم تستطع، غسلت خدي بدمعاتها، تكابرت على الحزن، أرادت أن تقوي من عزمي، سألتها عن طفلتنا أورنينا، أبتسمت، حدثتني عنها خطفاً.

أقتصر الحديث على أسئلة عامة، فلقد كانت أوامر المسؤول أن لا يطرحنّ عليّ غيرها.

مضى الوقت، تنحنح المسؤول:

«أنتهى الوقت».

صرخ...، ضغط على زر كان على طرف الطاولة.

أزداد بكاء أمي، ضممتها إلى صدري للمرة الأخيرة، لثمت يدها، تبركت بدعائها، قبلت شقيقتي وعدت إلى زوجتي أضمها إلى صدري، أهمس في أذنيها:

«إنني في الشيخ حسن»

فردت همساً وهي تشدني إلى صدرها:
«أعرف... ذلك».
فرك العنصر نعل حذائه السميك في الأرض بقوة، أنتصب، أدى التحية، أنتظر:
«خذه من هنا، عد به من حيث أتى...».
تلون صوت المسؤول، بنبرة عسكرية صارمة، سحبني العنصر من ذراعي، دفعني خارج الغرفة بسرعة، أغلق الباب وراءه، كانت أمي ما تزال تجهش بالبكاء.
كان صديقي ما يزال ينتظر على الرصيف، أبتسم لي مرة ثانية، صاح فجأة:
«أنا لست مروان... أنا غسان!».
فأشرت إليه بيدي متسائلاً عن أخيه التوأم صديقي مروان سكر، فأجابني بمستطيل الحنق:
«مروان عندك... عندك».
تولاني الأستغراب، ماذا يفعل مروان سكر في «الشيخ حسن»؟ حاولت التوقف، فرك العنصر شاربه بأبهامه وسبابته، دفعني أمامه إلى السيارة الـ «لاندروفر»، عاد محرك السيارة يهدر في شوارع دمشق التي تمد لسانها الأسود أمامنا، الطريق إلى معتقل الشيخ حسن يقصر، فطريق الحرية قصيرة في دولة عبد الكريم الجندي.

IV

«رجعت!».
مع أنه لم يقل غير هذه الكلمة فإن صوته تموّج بإستغراب تعجبت له.
طنت المفاتيح المتدلية من حزامه، وقفتُ أمام باب الزنزانة رقم 4 ليحرك المفتاح في القفل ضيع المفتاح، عاد يحصي المفاتيح مفتاحاً... مفتاحاً... مفتاحاً، بصق على الأرض، لعن حظه المنكود، وجد ضالته في كومة المفاتيح، أنبسطت أساريره، حشر رأس المفتاح في القفل، فتح العنصر الباب، جلست على المصطبة يعتصرني الحزن، حام وجه أمي حولي، رأيتها هذه المرة تبتسم لي.
«الصبر طيّب»، نطّت هذه الكلمة إلى ذهني حاولت أن أتذكر من كان يرددها بصورة مستمرة أمامي.
تبلد الصمت، ضرب جاري على الحائط، بقيت جالساً على المصطبة، لم أرد، كان ذهني شارداً.
«أنت... أنت في الزنزانة رقم 4 بشرّ...».
تجاسر صوت الدكتور جورج حبش على الصمت:
«من؟».
«العائلة...».
أجبت خطفاً، عاد الحكيم يسأل:

«بشّر... بشّر».
غصصت بكلماتي:
«المجال كان ضيقاً».
مد حكمت قواص صوته في الممر، وصل إلى الباب:
«يعني... يعني».
«يعرفون أنني هنا».
«كيف؟».
«لا أعرف».
«في مرة مقبلة أخبرهم أنني هنا... معك».
«سأحاول».
أنتظر حمدان حمدان (وكان من البعثيين الأشتراكيين الذين والوا أكرم الحوراني و عبد الغني قنوت) دوره فهمس:
«أخبار سياسية، وضع عام؟».
« لم أسمع شيئاً، الوقت كان قصيراً».
«تعلم في المرة الثانية أن تفعل».
«سأحاول».

V

رمى الليل شاله الأسود على كتفيه، صار دبيب الصمت صوتاً مخيفاً بين الزنزانات، أصبحت أخاف من الليل، أتوجس شراً كلما تلونت الكوة بالأسود ولمعت نجمة فيها، لا يأتي الليل إلا بالجلادين.
هدني التعب، غفوت، أعتادت ضلوعي على خشونة أسمنت المصطبة، صرت أنام، كان «البق» قد بدأ يسرح، خيطاً رفيعاً طويلاً على الحائط، وقفت في وسط الزنزانة، لسعتني نسمة باردة، لففت جسدي بالبطانية، بقيت شاخصاً إلى الكوة، بلا حراك.
تحركت البوابة الحديدية، همدر حمدان حمدان في زنزانته، سعل الدكتور جورج حبش، رد عليه معاونه بسعال متقطع.
زعق الملازم أول يوسف طحطوح، عنت السياط، أشتعل الصراخ والتوسل، سلحب أنين المجلودين الموجوعين إلينا، بدأت حفلات الجلد واللسع والتعذيب.
المحامي عبد الرحمن (لعله من عائلة المارديني) كان عضواً في تنظيم «الأخوان المسلمين»، طواه السجن سنوات طويلة، أستدعاه يوسف طحطوح ليلتها إلى التحقيق من جديد لأنه أستمع إلى وشاية نقلت إليه بأن المحامي الأسير أنتقد إدارة السجن لنوع الطعام الذي يقدم إلى أسارى الزنزانات، لم نره يجلد، لكننا سمعنا صوته يستغيث بالله بعد عنّة سوط وسمعنا صوت يوسف طحطوح يشتم الله كلما رفع السوط ونزل به على جسد المحامي.
سددت أذني، لم أعد أتحمل سماع الصراخ والأنين والشتم، شعرت بحاجة

إلى الزعيق، إلى دك الحيطان بقبضتي، إلى الضغط بأصابعي على رقبة الملازم صاحب الصوت الجهير الغريب، أحسست بالغثيان، أشتد الألم في رأسي، عدت إلى المصطبة، أرخيت جسدي المتعب حتى الصباح.

VI

15 نيسان (إبريل) 1968

«الله... الله... يا ست».

كان العنصر يحشر رأسه بجهاز الراديو، طلع صوت أم كلثوم، تلوى العنصر، ناح، أنتشى، مجّ سيجارته بشراهة، عب دخانها، سلطن، هو من جيل الهزيمة الذي تربى على خطب جمال عبد الناصر وصوت أم كلثوم.

وقف العنصر يحيى ينتظر أن يفرغ العنصر من نشوته ليستلمني، ليقودني إلى المحقق من جديد.

هزه بعنف، أنزعج، أستدار، لمع الغيظ في بؤبؤ عينه اليمنى بينما أغمض اليسرى أستياء، أزاح جهاز الراديو عن أذنه.

«خذه إلى المحقق في الطابق العلوي».

نهره العنصر يحيى، فإزداد الغيظ لمعانا في عينيه، بقيت صامتاً، لم ينبس العنصر بكلمة، أومأ، يحنق... مشيت خلفه، صعد السلم درجتين درجتين، لحقت به وأنا ألهث.

«أدخل... أدخل».

تلون صوت الملازم أول توفيق شيخ علي بنبرات الأمر، دخلنا، أنتصب العنصر يرفع يده اليمنى إلى صدغه الأيمن بزاوية حادة.

بقيت واقفاً أسرح النظر في الغرفة، كانت عارية، حيطانها مقشرة، في وسطها طاولة خشبية صغيرة، جلس خلفها الملازم أول توفيق شيخ علي وعليها ملفات متخمة بالأوراق، أعقاب السجائر موزعة حوالي الطاولة، كرسي قش مثقوب مرمية في زاوية الغرفة، طلب مني الملازم إحضارها والجلوس عليها أمامه.

مد علبة السجائر، سحبت سيجارة منها، أشعلتها، أستمتعت بنفث دخانها في فضاء الغرفة، فتراقص الدخان حتى سكر من الدوران فتلاشى.

كان ودوداً «كعادته»، هادىء النبرات، فتح ملفاً، أنتشل من دفتيه ورقة فولسكوب، أمتلأ نصفها.

«هذا هو التحقيق الأخير معك».

أنتظر جواباً مني، لم أفتح فمي، عاد يقرأ في الورقة أختصاراً لما كنت قلته وكتبته للملازم أول محمد نابلسي حول نشاطي الحزبي وزياراتي المتكررة لعصام محايري.

كان يتوقف عند كل فقرة، يسألني بهدوء فأجيبه، تمشي نظره على الأسطر تأنق في لفظ كل كلمة، كلما انتهينا من كوب شاي، طلب آخر له ولي، وبين السؤال سؤال آخر، وبين الجواب جواب آخر، وسيجارة أخرى وكوب شاي آخر.

قلب الورقة، أعادها إلى الملف:

«موضوعك منتهي، سأرفع ملفك، وخلال يومين أو ثلاثة على الأكثر سيطلق سراحك».

حلقت بنشوتي، لم أصدق، أرتخيت على الكرسي المثقوب، عصت علي الكلمات، هدأ من ذهولي:

«لا تحكي لأحد، إننا نسمع ونرى كل شيء!»

«هززت برأسي».

لم يتوقف، تابع:

«سأنقلك مع ستة آخرين، أثنان معك في الزنزانات وأربعة في الجماعي إلى سجن القلعة، فيخف الضغط عليك».

أعطاني الأسماء، إنساب الي ّشعور بالراحة، «أخيراً تخلصت من هذا المعتقل الرهيب»، غمغمت بسري، أعتبرت أن الخروج من القاووش الصغير إلى القاووش الكبير هو نصف الحرية... أنشرحت قسماتي، ترك الملازم أبتسامة الرضى تتمدد على شفتيه:

«بعد ثلاثة أيام نزورك في البيت مهنئين».

أنتشى بتفاخره، سحب من درج الطاولة علبة سجائر «الحمراء».

«هذي لك، والدتك متوعكة، ولكن لا بأس عليها، الكل يسلمون عليك».

وقف، شد على يدي:

«مبروك... مبروك».

لم يتركني أتكلم، بعدها فتح الباب، صاح بالعنصر، ركض العنصر بأتجاه الباب لاهثاً، أدى التحية:

«أعده إلى الزنزانة».

أمر الملازم، أدار لنا ظهره، وأغلق الباب خلفه.

VII

«بَشّرْ...».

دار الهمس

«كل شيء خير... خير».

عاد جورج حبش يسأل:

«يعني...».

لقد كان التحقيق الأخير.

«من حقق معك؟»

الملازم توفيق شيخ علي.

«بشرّ...».
أحتمال إفراج...
«إفراج؟».
هدر صوت عمر أبوزلام قاطعاً على الدكتور جورج حبش أسترساله، تحايلت على الجواب، فضلت الألغاز:
نتيجة وضع سياسي معين.
«يعني؟».
سأل حكمت قواص بلهفة، عدت أهمس بالألغاز:
«هناك خلاف في القيادة القطرية حول السجناء، وقد توصل أعضاء القيادة إلى حل، قسم منا سينتقل إلى مكان أقل ضغطاً».
«أسماء؟»
همس الدكتور جورج حبش، نكرت أنني أعرف.
«إلى أين؟»
همس عبد الله الأحمد
«المزة... المزة طبعاً».
أجابه عمر أبوزلام.
«لا... إلى القلعة... القلعة».
صرخ أبو صبري عبد المسيح.
«لا أعرف، لا أعرف...».
تملصت من الإجابة، فدار الهمس، تسارع، أختلطت عليّ الأصوات:
«إذا خرجت خبرّ عنا».
«تعرف بمن تتصل...».
«لا تنساني...».
« وأنا أيضاً...».
خبر عن ما نلاقيه هنا.
«سأحاول... سأحاول».

VIII

17 نيسان (إبريل) 1968
مر أمام الزنزانة في دورانه المعتاد أثناء فترة التنفس يرافقه الدكتور جورج حبش، همس، فسمعت:
«سيطلق سراحك اليوم».
أذهلني كلام عصام محايري، بقيت معلقاً على الحائط أنتظر أن يمر من جديد أمام الزنزانة.
«طمئن والدتي...».
عاد في دورته الثالثة يهمس:

«طمئن الرفقاء... طمئن والدتي».

حاصرني الذهول، كيف عرف أنه سيطلق سراحي؟ من أين كانت تصل الأخبار إلى مسمع عصام محايري؟

حامت أفكاري حول البيت، عاد وجه أمي يطل عليّ من زاوية الزنزانة، سمعت بكاء طفلتي أورنينا، مر طيف شقيقتي أمام ناظري «أيام وأكون في البيت» تمتمت بسري، «الصبر طيب» عادت تلك الكلمات تطن في رأسي، ما عدت أعطيت بالاً لقائها أمامي.

جرجرت العقارب نفسها على الساعة، تثاقلت في تحريك الوقت.

تناهت الدعسات، طحنت أحذية العناصر الثقيلة أرض الممر، دارت الهمدرة في الزنزانات، وقف العنصر عبد المجيد في وسط الممر، صرخ:

«أنتبهوا».

أرتجف صوته، أندار على أبواب الزنزانات يشحذ الصمت.

سمعنا حفيف أوراق تتلوى بين أصابعه، تنحنح، بدأ يقرأ الأسماء، أسمي كان الثالث من ستة أسماء، توقف عند آخر أسم، أخذ نفساً طويلاً كأنه يستجمع أحرف الكلمة بين شفتيه، صرخ:

«إخلاء... إخلاء».

كاد قلبي يقفز من صدري، لقد كان الملازم أول توفيق شيخ علي صادقاً، حتى في ذكره أسماء الأسرى الستة.

«إخلاء»... أعدت الكلمة في ذهني مرات، ولكن الملازم لم يذكر أن إخلائي سيكون فورياً... وبهذه السرعة! تمشى الهمس من باب إلى باب، بقيت هامداً.

IX

السابعة والنصف مساءً.

فتح العنصر يحيى باب الزنزانة، وجدني واقفاً أنتظر، رش على وجهي أبتسامة عجلى، أفسح لي المجال، خرجت، كان حمدان حمدان الأسير الثاني الذي خرج معي، رميت نظرة أخيرة على الممر وعلى أبواب الزنزانات.

«إخلاء... إخلاء» عادت الكلمات تطن في رأسي، وصلنا إلى باحة المعتقل، أنتظرنا الأربعة الآخرون، لم أكن أعرفهم، قادونا إلى سيارة «بيك آب»، حشرونا فيها، كنت ما أزال غير مصدق أنني سأغسل وجهي متى طلع الضوء بالحرية.

تحركت السيارة، لم أكن أعرف إلى أين تتجه بنا، سألت العنصر المرافق، فقلب شفته السفلى، أعتقدت أنهم سيذهبون بنا إلى «الأمن السياسي» ومنه يطلق سراحنا، أنتشيت بالفكرة، بدأ الأنقباض يزحف إليّ لما أنعطفنا بعد مداخل «سوق الحميدية»، أغمضت عيني، توقفت السيارة أمام مدخل سجن قلعة دمشق.

IX

... في سجن القلعة

I

طَحَنَتْ عجلات سيارة الـ «بيك آب» الحصى، تطاير الغبار تحتها، غصّ محرك السيارة، أشار العنصر أن نبقى في أماكننا حتى يعود، قفز من السيارة بحركة عسكرية، ضغط على دفتر كبير تحت إبطه، غاب، بحثت عن الصوت الآخر الذي كان يجادله على بوابة القلعة.

كان الليل قد لوّن هامة القلعة بلونه، كلل رأسها بخمار أسود، فجثت بكل جبروتها راضية مرضية.

تسلل إليّ شعور بالراحة، تغلب على التعب الذي كان يدبُّ في جسدي، منذ مدت السيارة رأسها في سوق السروجية، المدخل الغربي للقلعة حتى ميدانها، تولاني الأرتياح، أبحرت صور كانت رأسية في ذاكرتي، الدرب ذات الدرب التي كنت أوائل الخمسينات قد قطعتها لأمضي بضعة أيام في سجن القلعة، بعدما دهست بسيارتي بعض الفتية على طريق مطار دمشق، كنت أعرف مداخل هذا السجن الكبير، أسواره، أبراجه، سراديبه العديدة، أقبيته أعرف الجماعي و«الحفرة» و «الشكية» و «المؤبدات» و «الأعدامات» و «المنفردات» وغيرها من التسميات التي كانت تطلق على القواويش والغرف للدلالة على صفة الموجودين فيها من سجناء سياسيين وخارجين على القانون لجريمة قتل أو سرقة أو تهريب أو... أغتصاب.

حط نظري على وجهه، رأيته يشتعل بالأضطراب، يمضغ سيجارته بعصبية، يضيع دخانها الرمادي بين أنفه وفمه، يتلفت يمنة ويسرة:

«ماذا ينتظرون... ماذا ينتظرون... إلى متى سنبقى هنا».

دارت الكلمات على فم حمدان حمدان، عض بعدها على شفته السفلى كأنه

ندم على كلامه.

«لماذا العجلة، لحظات وتبتلعك القلعة، تضيع فيها، تصبح رقماً... رقماً منسياً مثل المئات غيرك».

مَرْجَحَ الشاب الذي إنضم إلينا من الجماعي «رقم 1» في «الشيخ حسن» كلماته، لم خصلة شعر طويلة غطت عينه اليمنى.

«على الأقل لا ضرب ولا تعذيب في قواويش القلعة وزنزاناتها».

وجدت نفسي أرمي الكلام من دون تفكير، قرب حمدان حمدان فمه من أذني اليمنى، همس:

«هل هذا صحيح، لا تعذيب، ولا جلد، ولا لسع في القلعة؟ هززت برأسي، أنبسطت أساريره، تربعت على شفتيه أبتسامة الأطمئنان، ضغط على يدي، مَعَسَ عقب سيجارته بكعب حذائه، أرتخى يمد نظره في السواد».

نطَّ فجأة من مقعده الأمامي خلف المقود:

«أنزلوا...».

تمطت الكلمة على شفتيه، مشى أمامنا، مشينا خلفه، قطيع صغير يجرجر إلى المجهول، كان العنصر الآخر ما يزال يتأبط الدفتر الكبير، يجادل رقيباً في الشرطة ويناديه بأبي نديم، ربعة في القامة، ممتلىء الجسم، أكل الصلع شعر رأسه، إلا شعيرات قليلة بقيت تعاند سنوات الكِبَرْ، عيناه الصغيرتان كانتا تدوران بهدوء في وجه منتفخ يلوح عليه رواء العافية.

تدخل العنصر الآخر، رمقه الرقيب بنظرة عجلى بثّه فيها امتعاضه، سكت العنصر، بلع كلامه، تنهد الرقيب مُستاءً، تلوت الكلمات وهي تتواثب على شفتيه الدقيقتين:

«أين دفتر الذمة؟».

سحب عنصر الأمن السياسي الدفتر من تحت إبطه، دارت أصابعه على صفحات الدفتر، توقفت عند صفحة أكلت أسطر قليلة من بياضها، خطف الرقيب الدفتر من يد العنصر، تحركت عيناه الصغيرتان، قطب:

«أين الأسماء؟»

«أين أسماء هؤلاء السجناء؟».

عالج عنصر الأمن أسئلة الرقيب بكلمات حاسمة:

«إنهم سجناء سياسيون، السجناء السياسيون لا أسماء لهم».

أنتشر الاستغراب على وجه الرقيب، مسحه العنصر بسرعة:

«تسلّمهم منا بالعدد... هكذا بلغنا الملازم، الأوامر صريحة».

لم يقتنع الرقيب، أطبق الدفتر، دفع به إلى العنصر، تمشى بعينيه على وجوهنا:

« ماذا إذا سئلت عن أحدهم»

الأوامر صريحة...

اهتز الرقيب حنقاً:

«ماذا لو أصيب أحدهم بمرض عضال؟».

الأوامر صريحة...
اقترب الرقيب من عنصر الأمن، خفت صوته:
«ماذا لو مات أحدهم، ليس هناك أي قيد ثبوتي له».
لا تجادل... لا تجادل، الأوامر صريحة.
«ولكن...».
فتح عنصر الأمن الدفتر، عادت أصابعه تدور على الصفحات أشتعل صوته بالغضب:
«وقع... وقع هنا أنك تسلمت السجناء الستة، رقص القلم بين أصابع الرقيب، مرّغ رأس القلم على الورقة، أداره بحركة بطيئة... أستلمنا».

II

يتشابه الحراس في تقاطيع وجوههم، أو هكذا يبدون، الشوارب المفتولة، النظرات التي تحتال على الهيبة، العبوس المصطنع واللهجة الآمرة.
سالت أصابع الحارس على ثيابي تفتشني، نزلت على صدري بسرعة دسها في جيب سترتي الداخلية، لفّت خصري، نزل بها إلى رجليّ بحركة خاطفة، عصر كيس الورق، فتحه سحب منه منامتي و «الروب دو شامبر»، نفضه، رماه أرضاً، بقيت واقفاً أرفع ذراعي إلى الأعلى، أنتهى من تفتيشي، أزاحني جانباً، سمح لي شرطي آخر بإعادة ثيابي إلى الكيس.
كان الرقيب أبو نديم يراقب حركات عناصره، ما أن أنتهى الشرطي من التفتيش حتى أومأ أبو نديم.
مشى أمامنا، نزل درجاً، لحقنا به، مد الخطوات العجلى مروراً بساحة الشنق، فتسارعت خطواتنا، فحت رائحة العفونة، تلاعبت في أنوفنا رائحة حامض الأمونياك، تزهق أنفاس سجناء القاووش «رقم 4» الذي لم ير الشمس منذ أن بنيت القلعة في العصر الآرامي، سد الرقيب أنفه، تهالكت دعساته على سلم حجري برته الأقدام، مد لسانه الطويل على فسحة أصطفت على جانبها الشرقي غرف «المنفردات» التي تعرفت في زمن الأنتداب الفرنسي على الزعماء الوطنيين الذين كانوا ينادون بالحرية والأستقلال، وتحولت على عهد حسني الزعيم إلى غرف للمحظوظين المرفهين من المعتقلين، بعدما تذكرها صاحب الأنقلاب العسكري السوري الأول «عام 1949» وتذكر أنه أمضى فيها أكثر من شهرين وقت كان «جيش الشرق» فخصصها لذوي المكانة والأسم واللقب بين معتقليه الكثر.
تاه نظري في تلك الغرف، تناهى إلى سمعنا أنين خافت، عاد الشرطي يهزنا بصوته الجهير:
«تحرك أنت وهو...».
عدنا نسرع الخطى، نصعد سلماً حجرياً آخر، على طرفه الأيمن سمعنا صخب نساء، قرأت لوحة أمتطت بوابة حديدية ضخمة كتب عليها بخط عريض:

«سجن النساء»

توقف الرقيب أبو نديم أمام مخفر محاصر بقضبان حديدية طويلة، أنتحى جانباً برجل خمسيني، لون الشيب ما تبقى من شعر رأسه، منبسط الوجه، ترتاح إذا ما تفرست بقسمات وجهه، ترك بعض شعيرات تنمو في ذقنه وتحت أنفه، يتسلى بها وهو يحكي.

صفنا الشرطي الواحد خلف الآخر، عادت أصابع الحرس تسيل على أجسادنا، تفتش حتى حررنا، ضغط الرجل الخمسيني على يد الرقيب أبي نديم، تقدم منا، أبتسم، أشار إلينا أن نتبعه، قادنا إلى داخل الليمان، في جوانبه ستة قواويش، سرداب تحت الأرض أسمه «الحفرة» كان يضم محكومين بجرائم قتل أو أغتصاب أو سرقة أو تهريب مخدرات أو شذوذ جنسي.

دخولنا لفت أنظار السجناء، تجمهروا خلف البوابات الحديدية المسماة بلغة السجن «الشبكة»... تعمشقوا عليها، غرسوا رؤوسهم بين فسحاتها، راح الهمس يهدر، يتحول إلى همهرة، دارت الأسئلة:

«خيو أبو أسماعيل... حكينا كلمة».

أكتفى الرجل الخمسيني بهز رأسه، وتابع سيره أمامنا، تلاطمت الأصوات وتعددت النبرات واللكنات:

«لوين يا أخانا؟ أنت... أنت وينك».

«مين أنتو أخي...».

«وينك... وينك من وين جايين، وين كنتو؟».

رشّ شرطي على وجوه السجناء عبوسه:

«خراس... خراس أنت وياه».

طرطق بعصاه على القضبان، تمشى معنا حتى آخر الليمان.

توقف أبو أسماعيل أمام غرفتين مبنيتين بالأسمنت الحديث، قرب باب كل منهما نافذة عريضة، مد يده إلى جيبه، أخرج مفتاحاً صغيراً، أختار الغرفة الثانية، أداره في القفل بهدوء، ضغط على قبضة الباب، فتحه على غرفة عارية إلا من لوح أسود في صدر حائطها، وطباشير بيضاء مرمية على البلاط الرمادي، قطع حبل ذهولنا بكلامه:

«هذا مقركم... إنه مدرسة السجن المؤلفة من صفين لمحو الأمية، تنامون هذه الليلة على الأرض، بلا أسرّة أو فراش، وغداً سنرى كيف نتدبر أمركم».

كان وهو يتكلم ينزه نظره في وجوهنا، الذهول لوّن قسماتنا، للمرة الأولى منذ شهر ندخل غرفة نظيفة، حيطانها غير كالحة، لا تفح منها رائحة العفونة، أرضها بلاط وليس أسمنتاً قاسياً، لا تسرح فيها الصراصير، ولا تدبدب في زواياها الجرذان.

رميت كيس الورق من يدي، أستمتعت بسماع طرق كعب حذائي على البلاط، وقف لحظات، عاد يتملانا بهدوء، هزّ رأسه، أغلق الباب الخشبي خلفه و...تركنا.

III

شاي «أكروك» عجم، قهوة أوقلي، عصير، دخان خبز، قضامي، بزر... ماذا تريدون يا أخوان؟

مد شاب أشقر الشعر، أزرق العينين، وسيم الوجه، عبيّ الجسم، رأسه وصوته من النافذة، في لحظات تجمّعت عيوننا على وجهه، لملم الأستغراب الذي وشحها:

«أنا عزت دامرجي، أعمل في دكان الليمان... ماذا تريدون من الدكان يا أخوان؟».

ودكان الليمان يديره سجين يبيع ويشتري المواد الغذائية للسجناء، توفرها له إدارة السجن بقوائم يضعها كل أسبوع.

غاب هنيهات، عاد وبيده صينية فيها ستة أقداح من الشاي أكروك عجم مدّها من النافذة وأعلن علينا أنها «ضيافة» منه وترحيباً بنا، ولم يكن بحاجة لافهامنا أكثر أنه يبغي تقرباً منا لعلنا في قادمات الايام نصبح من زبائن مقهاه المتواضع القائم في ركن من أركان الليمان... وهو كناية عن مصطبة خشبية صغيرة أمامها ثلاثة حجارة يجلس عليها الزبائن بالدور ولائحة بالتعريفة:

«الشاي بخمسة قروش».

كان عزت دامرجي لطيف المعشر، سريع الحركة، كثير الإدعاء، أختصر لنا سيرة حياته وهو ينتظر أن نفرغ من أرتشاف أقداح الشاي، مد الصينية من النافذة أستراحت عليها الأقداح من الشاي ومن شفاهنا.

«الصباح رباح...».

نثر كلماته علينا، تثاءبت أبتسامة على شفتيه، طرطقت أقداح الشاي في الصينية وهو يمشي عائداً بها إلى مقهاه. أخترت زاوية في الغرفة، تكورت فيها، كان حمدان حمدان يدير السهرة والكلام، حلق بنشوته غير مصدق، كانت تلك الغرفة بالنسبة إليه غرفة في فندق «سميراميس» إذا ما قيست بزنزانات «الشيخ حسن» المظلمة العفنة، طنّت في رأسي كلمات الرقيب أبي نديم: «ماذا لو مات أحدهم... ليس هناك أي قيد ثبوتي له».

أرتعش داخلي:

«لا أحد يعرف أننا هنا، لا شيء يثبت، لا سجل، لا قيد، نحن في دولة البعث كمية مهملة بلا أسم ولا مسمى».

خفت من أفكاري، حاولت أن أمسح الظنون من رأسي، تعزيت بالصمت الذي كان يلف المكان، لا صراخ، لا جلادين، لا أنين مألومين ولا عنين سياط تنزل على الأجساد العارية المشققة، لا رائحة دم وقيح.

تغلب التعب عليّ، دب في مفاصلي، خلعت حذائي، لففته بسترتي، تمددت على البلاط أرخيت رأسي فوقه، أحسست بالجوع يعصرني، ضغطت على معدتي بأصابعي، أغمضت عيني، غفوت.

IV

18 نيسان (إبريل) 1968.

كان يوم جمعة.

غدرني النوم، تكمش بجفوني، لم يتركها، لأول مرة منذ اعتقالي يثقل عليّ النوم. ركع إلى جانبي، هزني مرات، هزني بعنف، أنتفضت مذعوراً، تنبه حمدان حمدان أنه تمادى في حركاته، أمتص ذعري، سرقه كما يسرق الكحل من العيون، في لحظات طافت برأسي الظنون، أوشكت على الصراخ.

«تعال... أسمع... أسمع».

شدني من يدي، قادني إلى النافذة، غرست عيني فيها، ناس يتدافعون أمامنا، يفتشون بعيونهم في الغرف والقواويش عن أقرباء وأنسباء وأشقاء، فلقد كان يوم زيارات للرجال (يوم الثلاثاء للنساء)، ما صدقت نظري، لقد عشنا أكثر من شهر في عزلة عن العالم، لا نرى غير الحراس والعناصر التي كانت تجلدنا في ساعات الليل وفي ساعات النهار غالباً ما كان الفراغ يحاصرنا!

أقترب من النافذة، لملم وجوهنا في لحظات، لم ير بيننا من كان يبحث عنه، أبتعد، أقترب آخر وكان في العقد الثالث من سنيه، رمى سلاماً مخجولاً، تجرا على الكلام:

«ماذا تفعلون هنا في مدرسة السجن؟».

تلاقت عيوننا، تنطح واحد كان من أتباع جورج حبش فانقلب عليه وماشى نايف حواتمة، قال بنبرة قاسية:

«وأنت ماذا تفعل هنا؟».

أستاء حمدان حمدان من نبرة الشاب، خاف أن يبتعد الزائر عن النافذة، أستلانت عباراته:

«لقد جاءوا بنا ليلة البارحة».

«من أين؟».

«من «الشيخ حسن»...».

دارت عينا الزائر في الغرفة العارية من جديد، أبصرت في عينيه كلاماً، هوّنت عليه الحديث:

« هل عندك من تزوره في هذا السجن؟».

أرتاحت أساريره، أسترسل في الحديث.

أني أزور كل يوم جمعة أحد الأقارباء في «الشكية» تلعثم، خاف أن يضيع أستفساره:

« من أنتم يا جماعة؟»

خرج السؤال خجولاً

«معتقلون سياسيون...».

دل حمدان حمدان على نفسه قبلنا، تفاخر، كأنه كان يريد أن ينفض عنه كل

ظن آثم بأنه مجرم عادي متهم بسرقة أو أختلاس أو تهريب.
فغر الزائر فمه، فارت الدهشة في رأسه، أقترب أكثر، همس:
«يعني... أنتم ضد الحكومة؟»
عض على شفته السفلى، أبتعد، وصله جوابي هادئاً،
«نعم... نعم نحن ضد الحكومة».
برعمت أبتسامة في زاوية فمه فقطفها.
«هل يعلم أهلكم أنكم هنا، هنا في سجن القلعة؟».
سكت، دار نظره على وجوهنا.
«لا... لا أحد يعرف أننا هنا».
لمعت في عينيه رغبة فسرّها في كلامه.
«هل ترغبون أن أخبر أهلكم أنكم هنا».
لمنّا كلامه، أصبحنا كلنا على النافذة أمامه، أبصر في عيوننا توسلا مخفياً، أنتابتني الغبطة، أتجهت عيوننا إلى فمه، ننتظره أن يفتح فمه، أن يضيف كلاماً إلى كلامه.
«أكتبوا لي رسائل سأضعها في البريد، أعطوني أرقام هواتف منازلكم فأتصل وأعلم من تريدون بمكان وجودكم».
لم أصدق، أرتبت بالرجل، هكذا ببساطة يقف أمام النافذة ويعرض علينا ما يجعله عرضة للملاحقة والتعقب؟
ماذا لو فتشه الحراس على بوابة القلعة فضبطوا الرسائل معه وأرقام هواتف منازلنا؟ ثم من قال أنه ليس مدسوساً علينا من الأمن السياسي؟
مرت هذه الأسئلة كالومض في رأسي، شردت مع أفكاري... ماذا لو كان صادقاً؟ لم أعر الظنون بالا، وجدت نفسي أنغمس في فرح الاخرين أن العالم الخارجي سيعرف بنا، سيعرف أننا سجناء في سجون البعث، سيعرفون أن تحت مقابر «الشيخ حسن» سراديب وأقبية تعذيب وموتاً...
«لا نملك ورقاً ولا أقلاماً لنكتب ما نريد».
طلع صوتي عالياً، تيقظوا، همدوا من حولي.
«سآتيكم... سآتيكم بها».
قال الشاب كلمته الاخيرة، أستدار بسرعة، غاب عشر دقائق ظننتها دهراً، ظننته لن يعود، رجعت إلى زاوية الغرفة، أكلتني الحسرة، فجأة صرت أزرع أرض الغرفة مذعوراً قلقاً كمن ضيع شيئاً ثميناً، مثل أعمى أنطفأ النور فجأة في عينيه.
بقي حمدان حمدان على النافذة، يفتش بعينيه عن الرجل، مرت خمس عشرة دقيقة، جلست القرفصاء، شبكت عشري على رأسي، تاه تفكيري، فجأة صرخ الشاب من النافذة:
«خذوا... خذوا هذه الأوراق والأقلام، سأعود بعد عشرين دقيقة».
رَمَى الأوراق والأقلام من النافذة، أنتفضت، ركضت ملهوفاً، لملمت ورقة وقلماً، عدت إلى الزاوية، كتبت، أخبرت زوجتي أنني نقلت مع خمسة معتقلين إلى سجن القلعة، وأننا مؤقتاً في مدرسة السجن، وإن موعد الزيارات الثلاثاء للنساء

والجمعة للرجال...

لم يتأخر، عاد ينتصب أمام النافذة، حشر رسائلنا في جيب سترته الداخليه، وعدنا أن يأتي كل يوم جمعة ليحمل مزيداً من الرسائل إلى ذوينا، لوح بيده، أبتسم، أندس مع الزوار الآخرين.

مر رجال الشرطة، مد واحد صوته:

«أنتهت المواجهة... أنتهت المواجهة».

V

إحمل هذا السرير وأتبعني.

قال أبو أسماعيل، كان حديد السرير ينغرس في ظهري وأنا أجرجره خلفه، كل واحد حمل سريره وتبع أبا إسماعيل إلى غرفة كبيرة في زاويتها منخورة بالعث، كدست مفارش، بطانيات ووسادات، أول ما فعلته نفضت الغبار عن وسادة محشوة بالقطن، فقد كنت أريد أن أعفي رأسي من عقوبة النوم على حذائي.

« لأول مرة سأتمتع بالنوم على سرير»، تمتمت بسري وأنا أجرجر السرير عائداً به إلى الغرفة، حيث بدأنا ورشة جمع الأسرّة كل ثلاثة أسرّة فوق بعضها البعض.

ومر نهار آخر، وكان ليل، وكان نهار، وليل آخر، والأيام تتنسل مع العمر، والسجن سجن، تصبح الزاوية الصغيرة التي حدودها حدود السرير، عالما قائماً بذاته، تصبح بيتاً، كل ما تملكه في الحياة، تصبح المساحة التي تفرض منها حريتك، رغباتك، تعتاد على هذه الزاوية، تشتاق إليها أن طالت غيبتك عنها في فترة التنفس، أن تعدى عليها سجين آخر، تشعر أنه أغتصب ملك مساحة حريتك، تدخل في عالمك، بينك وبين السرير والزاوية عشرة عمر وصداقة.

يهون السجن أكثر عندما تختلط بالسجناء الآخرين، تسمعهم يحكون، يصبحون مداك إلى العالم الخارجي، يأتونك بالأخبار، تعرف ما يدور خارج أسوار القلعة العالية، مَنْ يسابق مَنْ على السلطة؟ من يتآمر على من؟ من سيزيح من ليقبض على أعنة الحكم والقرار في بلاد الشام؟ همس عزت دامرجي وأشار بسبابته:

«أبو حسام... أبو حسام».

يقترب مني وهو يدفع إليّ كوب شاي أكرك عجم.

«هذا هو جزار حمص المشهور!».

بلع ريقه وعاد يهمس:

«محكوم بالاعدام، وهو زعيم ألف سجين في ليمان القلعة لأنه الأكثر سطوة ورجولة».

لم ير في وجهي استغراباً، امتعض لعدم اهتمامي، حاول إثارتي:

«إنه يا أستاذ... يستطيع أن يجزّ عنقك بلمحة بصر إذا ما رميت عليه نظرة لم

تعجبه ولم يرتح إليها، النصيحة الابتعاد عنه!».

لكنني أكتشفت خلف وجه «الجزار» الحاد القسمات، رجلاً طيباً، صادقاً خلال الأشهر الطويلة، كان صخرة تحطمت عليها هجمات السجناء علينا من الطبقات الدنيا من مشعوذين وعاصين على القانون ومهربين ولصوص وقطاع طرق وحشاشين وشاذين، كان ينبهنا إلى هذا الأمر أو ذاك، إن كان صواباً ألمح إلينا به وإن كان خطأ لوّح لنا، كان شهما في تعامله معنا جميعاً يوم كنا ستة ويوم صرنا ستمائة سجين سياسي.

علمنا كيف نحتال على القانون، كيف ندعي المرض، كيف نصيح ونستغيث كي يأتي إلينا «أبو أسماعيل» رئيس المخفر ليحنو علينا سائلاً: ماذا حل بالمستغيث؟ فيجيبه زملاء المهجع أنه قد أصيب بمرض شديد يستدعي نقله إلى خارج السجن، الأمر الذي كان يتوفر في دقائق معدودات، فما من رجل شرطة على أستعداد أن يتحمل مسؤولية موت سجين، حتى السجين السياسي الذي لا قيد له ولا سجل.

بعد 30 عاماً أتذكر «أبو حسام»، «جزار حمص» الطيب، لا أعرف إن كان علق على حبل المشنقة، أم بقي حياً، يمر على الذاكرة، واحد من ضحايا مجتمع لا يرحم.

VI

«جاؤوا هذا الصباح بالسفير إلى هنا...».

الحراسة مشددة، والكل خائف.

«أي سفير؟».

دريد المفتي...

«جاؤوا به من «الشيخ حسن» مع عشرة سجناء».

وضعوه في «الشكية».

لا... لا... نقلوه إلى «المنفردات».

تصلنا الأخبار، يدور الهمس، وقوافل المعتقلين تتالى من «الشيخ حسن»:

الدكتور زيد حيدر (العضو في مجلس الرئاسة السوري الذي حكم في فترة من فترات الأنقلاب الذي قاده ضباط حزب البعث العربي الأشتراكي) أمضى معنا في القلعة أشهراً طويلة، سجانه كان رفيق حزبه اللواء صلاح جديد.

الدكتور سامي الجندي (رئيس الوزراء السابق ووزير الاعلام وأحد «فلاسفة» البعث الحاكم) زج زمناً طويلاً في إحدى «المنفردات».

أبن عمه خالد الجندي (رئيس إتحاد نقابات العمال الذي أبتدع موضة شوارب 8 آذار فأخذها عنه رباح الطويل قائد الجيش الشعبي ثم وزير العمل والشؤون الأجتماعية)، رموه في القلعة ومنعوا عنه الزيارات...

خليل كلاس (أحد قادة «البعث» ووزير الأقتصاد في الأقليم الشمالي زمن

«الوحدة» المصطنعة بين دمشق والقاهرة) أتوا به إلى سراديب قصر تاج الدين الحسني في منطقة الحلبوني، أصيب بذبحة قلبية، فنقلوه إلى المستشفى الوطني، ولما تعافى رموه في «الشيخ حسن» وبعدها أصبح مثلنا نزيل قلعة صلاح الدين الأيوبي.

عبد الغني قنوت (أحد كبار ضباط الجيش والقوات المسلحة، والوزير على زمن ما سمي بـ «الوحدة») ذاق الامرين في سراديب القلعة.

عزيز عباد، (النائب السابق الذي نقل ملايين الملك سعود بن عبد العزيز إلى سلطان دمشق، «الأحمر» عبد الحميد السراج) حل في زنزانات القلعة أياماً طويلة، قبل أن أطلق العقيد عبد الكريم الجندي سراحه لصداقة جمعت بينهما أو مصالح كنا نجهلها.

والمعتقلون يكبر عددهم ويزيد، تغص بهم قواويش القلعة وسراديبها، فكلما أزداد الصراع بين أعضاء القيادة القطرية أزداد عدد المعتقلين.

والخلاف يكبر بين وزير الدفاع ،وقتها،اللواء اللواءحافظ الأسد واللواء صلاح جديد، وربعه في القيادة، بدأنا نسمع بحافظ الأسد، الذي أغتصب صلاحياته رجل الحكم القوي صلاح جديد، تتناهى إلينا أسماء المتشددين في القيادة وأسماء المعتدلين، كانت الأجواء تنذر بحدوث شيء ما، بقينا في مضاجعنا نعد الأيام و... ننتظر.

VII

23 نيسان (إبريل) 1968

غسلوا الأرض بحامض الأمونياك، يفعلون هذا أيام الزيارات، اليوم يوم الثلاثاء، يوم زيارة النساء.

تجمدت في جلستي على السرير، حركني شعور غريب، أرتعش داخلي: «هل وصلت رسالتي إلى زوجتي، هل سأراها مع أمي اليوم؟».

فتح الباب، هجم الضوء، أرتمى على بلاط الغرفة، تدحرج عليه، تمطى، تمدد، لكز الوجوه، أنتفضوا من أسرّتهم، رنّت كلمات أبي أسماعيل:

الكل يحمل أغراضه ويتبعني.

«لوين... لوين؟».

تمطى أحدهم وسأل:

«مدير السجن الزائد عبد المجيد التجار أمر بنقلكم إلى مهجع آخر، إنه تدبير مؤقت، فاليوم يوم مواجهة».

لم يضف، لم يشرح، بقي ينتظر، مشى أمامنا، عدنا نلحق به، القطيع الصغير يتحرك وراء الراعي، قادنا إلى غرفة كبيرة، قضبان حديدية تتدلى من السقف وتغرس قدميها في الأرض، كانت أيام صلاح الدين الأيوبي أسطبلاً لخيول فرسانه.

رمانا خلف «الشبكة» الحديدية، كان عددنا يزيد على الستين، فتشت عن

زاوية أحشر نفسي فيها، أفسح لي أحدهم مكاناً، جلست على الأرض، فحت رائحة غريبة، همدر حمدان حمدان ممتعضاً، أسكته سجين يحاول أن ينام، كان إلى جانبي حكمت قواص، جاؤوا به إلى القلعة بعدي، سألته عن عصام محايري قال همساً:

«نقلوه إلى المزة...»

تنحنح سجين أزعجه همس حكمت قواص، تسلى جاره بفرقعة أصابعه.

أزفت الساعة، غصّت الممرات بالنسوة، تعلقنا بحديد «الشبكة»، كل يفتش بعينيه عن زوجته، عن أم، عن أخت، عن حبيبة، يصرخ، ينادي، ممنوع أقتراب الزائرات من «الشبكة»، فجأة تحولت النسوة إلى شموع وهجت المكان بالضوء، مئات العيون تعلقت بوجوههن، تختلط الأصوات، كل ينادي على ليلاه، وأنا أنادي على ليلاي... على ليلى زوجتي لما لمحتها، كانت معها أمي وشقيقة لي (توفاها الله منذ أعوام)، رأتني، أشارت إلى أمي، لوحت أمي بيدها، مسحت وجهها بمنديلها، صرخت، صرخت من دون وعي، حاولت الأقتراب، لحقت بها زوجتي وشقيقتي، لم يمنعهن الشرطي، دست أمي يدها بين القضبان، مسحت وجهي بيدها، عاد الشرطي يبعدهن، أبتعدن عن الشبكة، بكت شقيقتي، تماسكت زوجتي، خنقت دمعاتها، سألتها عن طفلتي، هل تراها تعرفني؟ تكابرت زوجتي الجرح، مضغت حسرتها، أزداد الصياح، وأزداد معه تدافع السجناء إلى القضبان، ضاق النفس في صدري، أحسست بالإعياء، تمالكت نفسي، ما عدت اسمع ما كانت تقوله أمي، كدٌني العرق، سال بارداً على جبيني.

«زوروني... زوروني».

صرخت لما مر الشرطي ينادي بإنتهاء الزيارة، هزت زوجتي برأسها، لوحت أمي بمنديلها، صرخت شقيقتي «الأسبوع المقبل... الأسبوع المقبل».

تمسكت بالقضبان، ضغطت بقبضتي عليها، تجمد الدمع في عيني، أنتابتني حالة عصبية، صرت أهز القضبان الحديدية، أود لو أقتلعها، شدني حكمت قواص من ذراعي وشحني بنظرة حانية أخذ بيدي إلى زاويتي، سقط المكان في الصمت، بقيت متكوراً على السرير، حاولت أن أبكي، ما أستطعت.

VIII

علا الصراخ، أشتعل الليل بالتوتر، أحذية رجال الشرطة معست أرض الممرات بعصبية، فار الدم في رأس شرطي بدأ يضرب بعصاه على القضبان الحديدية، توحشت الأصوات، ارتعب السجناء، أزداد الصراخ، أطفئت الأضواء، عادت أشتعلت، تولتني رعدة خوف، دار الهمس، عدنا نغرس العيون بين القضبان.

مر شرطي من أمام «الشبكة»، سأله أحدهم ماذا يجري.

لم يتوقف الشرطي، ترك كلامه خلفه وركض: هرب جورج حبش من السجن؟

X

هروب الحكيم

I

...«هرب الحكيم... هرب الحكيم من «الشيخ حسن» الصوت الهادر شق حلق الرجل، رجّ حيطان القاووش، تلونت العيون بالثورة، تزركشت بالرجولة، امتزجت الأهازيج بالعيون النشوانة، تفجر الفرح، طفأ فوق قسمات الوجوه الملتاعة، داروا حول أنفسهم في ميدان القاووش بحركات هستيرية، علت الأصوات أكثر، تعاركت دعساتهم الهدارة مع الأرض، حلقوا بنشوتهم، رقصوا، تناسوا خلافاتهم، جماعة أحمد جبريل أول المنشقين عن «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» (التي ولدت ببيان يوم العاشر من كانون الأول (ديسمبر) 1967 وضمت ثلاثة تنظيمات: « أبطال العودة»، «شبان الثأر» و «جبهة تحرير فلسطين التي يقودها أحمد جبريل»..) عانقوا «جماعة الحكيم» وألتف حولهم ثلاثة كانوا في تنظيم «شباب الثأر» (كان نايف حواتمه من أبرز عناصره) قبل أن ينضموا إلى الحكيم في الجبهة، ثم عادوا يتبعون صوت نايف حواتمه، يلحقون به، فقد كان يرى أن منظمة التحرير هي أفراز «بورجوازي» وإن الجبهة أستسلمت للقيادة الفلسطينية اليمينية وإن موقف جمال عبد الناصر هو موقف يميني متخاذل، وأنطلق نايف حواتمه ومن معه بعدما تشربوا أفكار ماوتسي تونغ إلى الدعوة لتشكيل حزب ماركسي لينيني على الساحة الفلسطينية يخوض معركة مع الأنظمة «البورجوازية»، وأخذوا يطرحون مبدأ الديموقراطية التامة في البناء العسكري وأنه لا يجوز أن تقام قواعد عسكرية في الأردن لأن القتال يجب أن يتم داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة.

تمشى الخبر من قاووش إلى قاووش، علا الصراخ، جنت الأهازيج، تلاعبت بالأصوات الرخيمة، طاشت دعسات رجال الشرطة، تراكضوا في الممرات والباحات، ضيعوا أمن السجن، ساد بينهم لغط ولهط، فقدوا السيطرة على الحناجر التي جرحها الصراخ.

« هرب الحكيم... هرب الحكيم من «الشيخ حسن»...».

II

تدافعوا خلفه، وقف الملازم أول يوسف طحطوح متسمراً في باحة السجن، يضرب قضيب خيزران رفيعاً على رجله بحركة عصبية، يدور على نفسه مثل دودة أقتلعت من التراب، إنفرجت الشفتان المضغوطتان في وجهه المشدود بالتجهم، هدر صوته غاضباً، وزع الأوامر على عناصر الأمن، خمدت عاصفة الأصوات في القواويش، تسربل رجال الشرطة، بدأت العناصر تدخل القواويش.

أنتصب العنصر أمامنا، وجهه كان أقشر يخلو من الشعر، لمعت فيه عينان سودوان تدوران بخبث تحت حاجبين رفيعين، منفرج الكتفين، يهزهما بحركة عصبية كلما نطق بكلمة، إلى جانبه وقف الشرطي حسن، أعتدنا على وجهه الساذج المنبسط الملامح وعلى لكنته الحلبية.

حمل العنصر عينيه، نقلهما على وجوهنا، ساد الصمت تعملق في القاووش، قفز الخوف من العيون تمدد الوجوم فوق الوجوه، أختنق الهمس في الحناجر، نش العنصر ذبابة حطت على أنفه الأفطس، تنبه إلى أنه يفقد وقاره، عاد يرش الحنق على قسمات وجهه المشدودة، سحب ورقة من جيب سترته بتثاقل، تنحنح، غسل حلقه بريقه، أنتظر لحظات كأنه يفك الحروف المكتوبة في الورقة، قرأ الأسماء بلهجة مبتورة والشرطي الحلبي يسحب صاحب الأسم إلى خارج القاووش.

ترك العنصر أسم أبو أحمد إلى الآخر، زم شفتيه وهو ينطقه:

«تعال... أنت القواد الكبير... أنت زعيم جماعة الحكيم هنا؟».

تحرك أبو أحمد من مكانه ببطء، طويل القامة، ترك النحول يشذب جسده، وسيم المحيا، براق العينين، هادئ الملامح، يربي شاربين فوق شفته العليا، يتباهى بفتلهما كلما سلطن بالكلام والنقاش، شعره الكث يجهد النفس في تسريحة إلى الخلف، يوم أعتقلته عناصر الأمن السياسي بتهمة الأنتماء إلى جماعة الحكيم في «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، كان قد زفَّ إلى عروسه، سلخوه عنها ليلة الدخلة، تركوها تلوح له بمنديلها وهي بعد بفستان العرس الأبيض، ساقوه إلى «الشيخ حسن»، مارسوا عليه حقدهم، عذبوه، جلدوه مرات، لسعوه بالكهرباء كلما غاب عن الوعي أنعشوه «بالأتير» وردوه إلى القاووش وقد حنّى الدم وجهه وتشقق الجلد عن اللحم الحي، لم يرتح إلا يوم زيارات النساء، يراها عن بعد، يوشحها بنظراته، تبقى واقفة قبالته، لا كلمة، ولا همسة، ولا بسمة، يتناجيان بالعيون، صمتها يحكي لغة لا يفهمها غيرهما، في صمتهما حب

قطف برعما، في صمتهما لوعة الفراق.

تناوله العنصر من شعره، جره خلفه، سقط أبو أحمد على الأرض، ركله العنصر، عاد إلى الوقوف أنهال عليه عنصر آخر بالشتائم، دفعه في أتجاه السجناء الآخرين الذين كانوا قد تجمعوا في باحة ليمان القلعة، أنتظروا أوامر الملازم أول يوسف طحطوح، أومأ الملازم بقضيب الخيزران، ساقوهم كالقطيع إلى خارج الليمان، جرجروا أجسادهم الفوارة بالرجولة إلى... «الشيخ حسن».

III

تزّين الليل بنجومه، تبرج بالأضواء التي كانت تشع وتتواثب في أرجاء السجن وباحاته، ولم يعودوا بهم.

تثاقل الهمس مع الوقت، أزدحمت العيون بالكلمات، بقي الكلام همساً:

«طال غيابهم، أين هم؟»

يحققون معهم.

«يجلدون في «الشيخ حسن»..».

ما ذنبهم إن كان الحكيم قد هرب... هم هنا وهو هناك في «الشيخ حسن».

«يلسعون بالكهرباء».

تسع ساعات، أخذوهم منذ تسع ساعات.

«يسلخون جلودهم في براميل المازوت».

يستغفلنا الوقت، يتغابى، يمد عمره ويتبالد، وننتظر، فتشت، لم أجد واحدة في ذهني، كرجت الصور متلاحقة أمامي، تمددت على السرير الحديدي، أنزه نظري في سقف القاووش العالي، أراقب غزل العناكب لبيوتها، كان خيط البق قد بدأ يتنسل على الحيطان يبحث عن قوته في جلد السجناء، تراقصت خيوط دخان السجائر في فضاء القاووش، طن في رأسي صوت الملازم يوسف طحطوح، أعادني صوت حكمت قواص إلى رشدي:

«طال غيابهم...».

علك السؤال بين شفتيه، لم أجب، عاد يسترسل:

«سبحان المغير الذي لا يتغير، كيف إلتفوا على بعضهم وتناسوا خلافاتهم التي أرهقونا بها سجالا ونقاشا ليل نهار من دون طائل».

«عرب يا أستاذ... عرب».

تحرش بنا حمدان حمدان، توهج رأس سيجارته. أمتصها، نفث الدخان من أنفه.

ضحكت، أعجبتني الكلمة «عرب يا أستاذ... عرب»، طافت برأسي الأسماء، قفز أسم الدكتور وديع حداد، بقيت ممدوداً على السرير، قلت:

أذكر جيداً أنه عام 1967 حاول الدكتور وديع حداد الذي كان ينتمي إلى تنظيم «شباب الثأر» التابع للقوميين العرب، أن يجمع التنظيمات الفلسطينية «فتح»، «طلائع حرب التحرير الشعبي» (الصاعقة)، «جبهة تحرير فلسطين» و «أبطال

العودة» في تنظيم واحد، كان جورج حبش من المؤيدين لهذه الفكرة، أذكر أنني التقيت الدكتور وديع حداد عامها في دمشق، كانت الأجتماعات تدور بين التنظيمات لتوحيد العمل المسلح، شكا من الخلافات وعدم التفاهم، «فتح» رفضت، فضلت الأستقلالية، أستمرت المباحثات بين «جبريل» و «أبطال العودة» و «شباب الثأر» فولدت «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، ولكن التفاهم لم يدم، كل فريق كان يريد تسيير الجبهة سياسياً وتنظيمياً وعسكرياً على هواه ووفق وجهات نظره وأفكاره، تسللوا إليهم، لعبوا فيهم، أستمالوهم...

«فتح» لعبت دوراً في الأنشقاقات والخلافات...

«قطع حكمت قواص علي الكلام».

لا تنس جمال عبد الناصر...

«دربهم عنده».

كان ذلك زمن الوحدة.

«أختلف معهم، أحس بخطرهم، خاف على نفسه وزعامته، أنقلب عليهم».

لا تنس «البعث»... البعثيون أختلفوا مع الناصريين، يزجون الفلسطينيين في سجونهم.

لا يريدون دولة في دولتهم وعسكراً غير عسكرهم.

«عرب يا أستاذ... عرب».

IV

يشترون رأس جورج حبش بالمال، بالمناصب، فمن يبيع؟

في مطلع عام 1964 بعد حركة جاسم علوان الناصرية، وقعت الوقيعة بين البعث والناصريين، صار الناصريون على لائحة المطلوبين، صار جورج حبش القومي العربي المتفاهم مع جمال عبد الناصر، المدافع عن زواج القاهرة بالشام، محسوباً على الناصريين.

يشترون رأس جورج حبش بالمال، بالمناصب، فمن يبيع؟

وقتها صدرت أحكام بالأعدام والسجن على عدد كبير من الناصريين ومن حالفهم وتحالف معهم في الشام، أختفى الحكيم، دار على بيوت الأنصار من بيت إلى بيت، قضى الاشهر الطويلة وعيون البعثيين تترصده، حتى تمكن من الفرار إلى بيروت، وبقي على لائحة المطلوبين يشترون رأسه بالمال، بالمناصب.

خاف النظام في الشام من تطاول الفدائيين على الحدود، من تسللهم إلى هضبة الجولان، من تجمعهم في الاردن وتحالفهم فيه مع القوى الوطنية. تلقى الحكيم وهو في بيروت دعوة من العقيد عبد الكريم الجندي، مدير الأمن القومي في دمشق، لمفاوضته في شؤون تنسيق مرور العمل الفدائي من الأردن إلى لبنان عبر الأراضي السورية.

ظن جورج حبش أن الحال في الشام تبدلت، لبى دعوة العقيد الجندي، أستقبله، طلب إليه زيارة وزير الداخلية عيد عيشاوي لترتيب شؤون تتعلق بالأمن

الداخلي وحماية مرور المقاتلين الفلسطينيين عبر الأراضي السورية إلى لبنان والأردن، على أن يجري معه بعد الوزير مباحثات تتعلق بالشؤون الأستخباراتية.

مضى جورج حبش بسيارة العقيد عبد الكريم الجندي المرسيدس السوداء إلى سراي الحكومة، دخل على الوزير ومعه مساعده، جلس، أنتظر الحكيم أن يكون الوزير قد جهز جدولاً للمباحثات، تكلم بالعموميات، حار ودار، ثم قطع الحديث بأنه مضطر إلى مغادرة المكتب إلى الغرفة المقابلة للأجتماع بعدد من المحافظين كانوا توافدوا إلى الوزارة للبحث في شؤون إدارية، على أن يعود إلى الحكيم بعد نصف ساعة للبدء في المباحثات.

دارت فناجين القهوة، مضى الوقت، تسارع على الساعة، والحكيم ينتظر.

فجأة فتح باب المكتب، دخل ثلاثة عناصر من الأمن السياسي، شهروا مسدساتهم في وجه الحكيم ومساعده، أخرجوهما من المكتب، نزلوا بهما سلم السراي إلى الشارع، دفعوهما إلى سيارة لاندروفر كانت تنتظر.

مضوا بهما إلى «الشيخ حسن».

V

فغر باب القاووش الحديدي فاهه، أنفتح، رموهم الواحد بعد الآخر، تحلقوا حول الأجسام المرمية على الأرض، لموها عن الأرض، مشوا بها إلى الأسرة، غسلوا الدماء عن الوجوه، بقيت هامداً، جف حلقي، شعرت بأن جسدي ماتت فيه حاسة الأستفهام، شلت فيه الحركة، بقي نظري معلقاً على الباب، سده رجل طويل القامة، لم أعرفه لولا صرخ أحدهم بأسمه، صرخ: «أبو أحمد... أبو أحمد».

سار مترنحا، يجرجر خطواته المتعبة، خطوة، خطوة، يقف هنيهات من الأعياء، يتمايل مثل قصبة سكر ممصوصة يتلاعب فيها الهواء، أقترب، صار وجهه تحت الضوء، أستطعت أن أنظر إلى وجهه الملبّع باللكمات واللطمات، الدم يسيل من فمه، يمد ذراعه اليسرى يحاول أن يستند إلى أي شيء يقيه الوقوع على الأرض، حليق الشعر والشاربين والحاجبين، لطخ الدم تطرز قميصه، تخفي عضات السوط على الجلد، بالكاد وصل إلى زاويته، أرتمى على السرير، تحلقوا حوله، مد واحد له سيجارة، حشرها بين شفتيه المورمتين، أمتصها، سحبت مع الدخان ألمه، أنتشى، بدأ التعب يتنسل من جسده المدمى، أستعاد وعيه، أزدحمت الأسئلة، تجمعت أمامه الأفواه والآذان.

حشروهم في سيارة «البيك آب» ما أن وصلوا إلى سجن «الشيخ حسن» حتى بدأت حفلات التعذيب، لعلعت قضبان الخيزران، عنت السياط في الهواء وهي تنزل على أجسادهم العارية، أوسعوهم لكماً وركلاً وجلداً ولسعاً بالكهرباء، تناوب الجلادون على تغطيسهم في براميل المازوت حتى أنسلخ الجلد عن اللحم الحي، ثم في براميل الماء المثلج، أجلسوهم على كراس واطئة، حلقوا شعور رؤوسهم وشواربهم والحواجب، أجبروهم على أكلها مع شعر الرأس بالقوة، حتى التقيؤ، حتى الأغماء.

بقي هامداً، استرجع نفساً طويلاً كان خرج من صدره المتعب، تحلقنا حوله، تعملق الصمت حولنا، دار بعينيه الحذرتين على وجوهنا، حبات العرق تتفجر فوق جبينه، وصلنا صوته مخنوقاً بالأنفعال، يقطع كلامه ليمج لفافة ظلت تتلوى بين أصبعه ويتوهج رأسها حنقاً حتى أصبحت رماداً، «أخبرنا ما سمعته في الشيخ حسن عن هروب الحكيم» ...

VI

غلّفت الفتاة صوتها بالتوسل، سالت من عينيها على وجه الملازم أول يوسف طحطوح نظرات الأستعطاف، أرتعش الملازم لها، أستلان من خشونة عرف بها، بقيت الفتاة الآخرى صامتة، ترسل أناملها بنزق تلعب بخصلات شعرها، تسمع رفيقتها تعرف عنهما بأنهما بنتا شقيقة الدكتور جورج حبش، وترغبان بمواجهته، فقد قدمتا من بيروت لأبلاغه بأن والدتهما تعاني من مرض عضال.

التقط الملازم شفته السفلى بأسنانه، مصها، عاد يعلق سيجارته بين شفتيه، صدقهما، غاب الذئب فيه، أختفى، ظهر الرجل الطيب، رفع سماعة الهاتف، أدار قرصه، رسم رقم مخفر «الشيخ حسن»، شعر بالتعالي ينمو في صوته، صارت نبراته موشاة بعنجهية مفرطة:

«حضرّوا الدكتور جورج حبش لزيارة».

تذكر، عدل من جلسته وراء المكتب، تحكّم بتقاطيع وجهه المشدود:

«أسمع... سأرسل مفرزة أمنية لمواكبة الدكتور جورج حبش».

تجاسرت الفتاة، سألت الذئب المختفي خلف الرجل الطيب:

«هل سيطول أنتظارنا له؟».

«ساعتان... ساعتان على الأقل».

ضغط على زر على الطرف الأيمن من مكتبه، دخل العنصر، ضرب كعب حذائه بالأرض، رفع يده اليمنى إلى صدغه:

«أمرك سيدي...».

تفاخر بنظراته، تباهى أمام الفتاتين، حلق بالزهو:

«الآنستان بأنتظار إحضار الدكتور جورج حبش لمواجهته..».

حولّ نظره إلى الفتاتين:

أذهبا مع العنصر إلى مكتب الضابط المساعد، أنتظرا الدكتور حبش فيه.

لمّت الفتاة خصلات شعرها بأناملها، غنج صوتها:

الأنتظار على ما يبدو سيكون طويلاً، هل تسمح لنا بالخروج لشراء بعض الفاكهة والحلويات على أن نعود بعد ساعة أو ساعتين.

عاد الرجل الطيب يتحرك في داخل يوسف طحطوح، غدرته نظرات الفتاة لان أكثر لاستعطافها:

« لا مانع... لا مانع... ابداً».

VII

مدَّ العنصر يحي رأسه من شق باب الزنزانة، تعلقت عينا الدكتور حبش بعيني العنصر، وقف عن المصطبة، أبتسم العنصر، تودد صوته:

«حضر حالك يا دكتور عندك مواجهة في الأمن السياسي».

تهالك الحكيم بمشيته خلف العنصر، جرّحت أشعة الشمس نظره عندما أطل إلى باحة السجن، تركه العنصر أمام المغسلة الصغيرة والمرآة المكسورة، دس بيده آلة الحلاقة و... مشى.

نفض الحكيم الغبار عن سترته، لما فتح العنصر بوابة المعتقل الرئيسية، مشى به إلى سيارة اللاند روفر السوداء، وقف الحكيم أمام السيارة، دار بين العناصر لغط وكلام غير مفهوم، فتح العنصر باب السيارة الخلفي، دخل الحكيم، جلس في الوسط، عن يمينه عنصر مرافقة، وآخر عن يساره، جلس رئيس المفرزة إلى جانب السائق، ترك السائق محرك السيارة يثرثر على هواه، يختنق، يفور البنزين في رأسه، لكزه رئيس المفرزة، أفلت العنان للسيارة فقضمت الطرقات إلى شارع الميدان العلوي.

كان الوقت وقت عجقة، في هذا الوقت تلد المدينة الناس يتكاثرون على أرصفتها، وتعمر بالسيارات والشاحنات التي تحمل إلى الدكاكين المصطفة على طرفي الشارع، الخضار والفاكهة...

عند مفترق شارع المتنبي، أعترضت سيارة الـ «لاند روفر»، سيارة للشرطة العسكرية.

عضت عجلات سيارة الـ «لاند روفر» الأسفلت بسرعة، نزل من سيارة الشرطة العسكرية عنصر لحق به رقيب مسلح برشيش صغير.

ترجل أبو نزار رئيس المفرزة الأمنية من سيارة اللاند روفر، لحق به عنصر آخر، وضع أبو نزار يده على خصره، تحسس مسدسه، تلون صوته بالغضب، بدّده الرقيب، قال له أنه من الخطورة بمكان نقل الدكتور حبش بسيارة «لاند روفر» عادية وبمرافقة عنصرين فقط، وإنه أرسل من قبل الشرطة العسكرية لمواكبة الـ «لاند روفر» عبر شوارع جانبية لا تمر فيها السيارة ولا تزدحم بالناس.

هدأ الذعر في عيني أبي نزار، لم تهدأ نبراته الجازرة، دار بشكه على وجه الرقيب، سأله عن أمر المهمة التي جاء بها، فأخرج الرقيب من جيبه ورقة، أنتشلها أبو نزار بحنق، تفرس فيها، تأكد من تاريخها ومن الخاتم والتوقيع، أقتنع، مر على الورقة بنظرة عجلى وهو يعيدها إلى الرقيب، أومأ إلى العنصر، عاد إلى سيارة الشرطة العسكرية إلى طريق زقاق الجن فشارع الحلبوني.

غصَّ محرك سيارة الشرطة، مد الرقيب يده من النافذة يوقف سيارة الـ «لاند روفر»، نزل الرقيب غضّت قبضته على الرشيش، مشى مسرعاً نحو سيارة الـ «لاند روفر»، عاد يطلب من أبي نزار أن يسمح له بالركوب معه وأن ينطلقوا في

المقدمة تلحق بهم سيارة الشرطة العسكرية.

رمى أبو نزار نظرة على وجه الدكتور جورج حبش برقت فيها الظنون، بقي الحكيم هامداً لم يلح على قسماته أي إنفعال، كأن الأمر لا يعنيه، أستشار أبو نزار عناصُره بعينيه، مسح فمه بأصابعه، أعطى أمره للعنصرين الجالسين على يمين ويسار الحكيم أن يستقلا سيارة الشرطة العسكرية وسمح للرقيب ان يجلس قرب جورج حبش.

«سيجارة؟»

« إيه والله... من يد لا نعدم».

ما كان أبو نزار يعب نفساً طويلاً من سيجارة «الحمراء» التي تكرم الرقيب بها عليه، متشاوفاً على السائق الذي لا قدرة له على تدخين مثلها، حتى وجد فم الرشيش البارد على صدغه، تهدل صوت الرقيب يأمر السائق بالتوقف، حاول أبو نزار أن يستل مسدسه من خصره، فإذا بالرقيب يهوي بالرشيش على رأسه، يشقه، نفر الدم، حنّى وجه أبي نزار، أرتجف السائق، صرخ متوسلاً، أنصاع، أوقف السيارة، كان سائق سيارة الشرطة العسكرية قد شاهد في مرآته توقف سيارة الـ «لاند روفر»، ضغط على المكابح بسرعة، أنتفض العنصران، كان السائق أسرع، أستل مسدسه، جرّدهما من سلاحهما، نزلا من السيارة وهما يرفعان ذراعيهما إلى أعلى، فتيقن الرقيب أن الخطة تسير بنجاح، نقل الدكتور جورج حبش وأبا نزار والسائق إلى سيارة الشرطة العسكرية وأنطلق بأتجاه طريق بيروت إلى الربوة ودمرّ فطريق صحراء الديماس وصولاً إلى ميسلون حين أنحرفت السيارة صعوداً إلى تلة على درب ترابية.

VIII

كبس على الزر، تفطن لغيبة الفتاتين ولعدم وصول الدكتور جورج حبش، لوى رسغه يفتش عن الساعة، لم يجدها في يده، فتش عنها بين الأوراق المبعثرة فوق مكتبه، صرخ بالعنصر، دخل العنصر، لحق به الضابط المساعد، تهدل صوت الملازم أول يوسف طحطوح، لفه الغضب، سأل عن الفتاتين، خلط السؤال، ألحقه بالأستفسار عن الدكتور جورج حبش.

تسربل العنصر، الفتاتان لم تعودا، الحيلة أنطلت عليه، والدكتور حبش لم يصل، سكن الغضب في عيني الملازم، غلب الذئب الرجل الطيب، سحقه، جحظت عيناه، رفع سماعة الهاتف، سأل الصوت الآتي من مخفر الشيخ حسن عن جورج حبش، وصله الجواب أنه خرج من ساعتين، ضرب سماعة الهاتف على الطاولة، ظل يضرب بها حتى طحنها.

عاد الذئب يلح عليه، يتكور، يضجّ فيه، يتكور أكثر، يولد فيه، يأخذ وجهه شكل الذئب، رغوة الريق تجمعت على شفتيه، أنتابته موجة صراخ، أنتفض واقفاً، أستنفر عناصره، أعطى الأوامر لمطاردة جورج حبش، للحاق به لمنعه من الهرب.

IX

في آخر الدرب الترابية أعترضت السيارة شاحنة للجيش السوري، توزع على الدرب رجال الشرطة العسكرية تحلقوا حول السيارة، أنزلوا الدكتور جورج حبش منها، أخذوه إلى سيارة عليها لوحة الشرطة العسكرية كانت متوقفة قرب الشاحنة.

لكنتهم دلّت على أنهم من مقاتلي «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، سرقوا الشاحنة وأرتدوا بزات الجيش السوري للتمويه.

بقي أبو نزار جالساً، الدم يحني وجهه، إلى جانبه جلس السائق وقد بلع الخوف صوته.

تقدم الرقيب من السيارة، مد رأسه، تلون صوته بالهزء.

«عُد إلى رئيسك يوسف طحطوح وقل له جورج حبش يبعث لك وللعقيد عبد الكريم الجندي أحر التحيات».

كانت الشمس قد أكلت أشعتها ولوحت بالمغيب، سرحت الأشعة الوردية اليدين في السماء، من بعيد... كانت سيارة الشرطة العسكرية تغمس رأسها في ممر قرية دير العشائر اللبنانية، تلحق بها شاحنة الجيش السوري...

ويهرب الحكيم من «سجون البعث».

XI

إنتحار مذنب بريء

I

29 أيار (مايو) 1968

زنت الريح بالعاصفة، تململ الليل، ليل دمشق ليلتها كان أسود مرهوب الحمية، شربت الغيوم حتى الثمالة وقطرة قطرة ذابت بالمطر، هطل المطر، جنَّ ما أضيق دمشق في عيون المطر تنحني له، يبللها، تصبح طرقاتها مستنقعات موحلة.

لا ترتد الريح عن حيطان القلعة، ترتعد الزنزانات، تعول، تتذاءب مثل ذئب في أقباله من جهة مرة ومن غيرها مرة، إرتجف الضوء داخل زجاج اللمبة الوسخ، ناسَ، توهج عاد ونَاسَ من جديد، أنطفأ لحظات، علا الصراخ، عادت الكهرباء تتمدد في الشريط المجدول المدلى من السقف، أشتعلت اللمبة بالضوء الوهاج من جديد.

تسبل القاووش بلسعات البرد، فحت رائحة الرطوبة، همدر بابور الكاز، فار فوقه إبريق الشاي، تململت كاسات الشاي في الأصابع، تراقصت على الشفاه المرتجفة.

أحسست بالبرد يدب في مفاصلي، تكوَّرت على السرير، لففت جسدي ببطانية نخرها العث، لم يغادرني طوال النهار صوت «أبو جاسم جزار حمص»، أسترجع في رأسي ما علّمنا من طرق للتحايل على قوانين السجن، منها التصنع بالمرض، ففي ذلك منحة للخروج من ذلك القاووش النتن إلى المستشفى.

قلّبت الفكرة الآثمة في ذهني، تأرجحت في مخيلتي المسكونة والمجنونة

بالوجوه التي أشنقت إليها، وبخّت نفسي على مجرد التفكير بها، عاد صوت أبي جاسم يطن في رأسي، يقنعني، يحرضني، أسمعه يقول بلكنته الحمصية: «جرّب... جرّب يا رجل»..

عدت أستحسن الفكرة، شعرت بلذة الخروج ولو لحظات من هذا القاووش الملبد بالروائح النتنة، أكتملت الحيلة في رأسي عزمت عليها.

كان سريري الثالث، تحتي سرير حكمت قواص وتحته أبو غياث يعقوب، فقررت أن أصطنع الأغماء، فيتدلى جسدي إلى مستوى سرير حكمت قواص فيتنبه ويستدعي الشرطي لاسعافي، وإذا تمكنت من أتقان «التمثيل» قد أرسل المستشفى خارج القلعة الرهيبة.

تفجرت حبات العرق البارد على جبيني، كاد قلبي يقفز من صدري، جف حلقي، ضاق نفسي، فتحت فمي أمضغ الهواء الذي تلعب فيه روائح الكاز، نويت على الحيلة، أغمضت عيني، أطلقت عنيناً خافتاً متقطعاً، تأفف حكمت قواص، قبضت على نفسي حتى أنحبس الدم في وجهي فأحمر، تركت جسدي يتلاشى، يتدلى، تنبه حكمت قواص، صرخ بي، أكتفيت بالعنين، هزني أرتخى جسدي، طار صوابه، أحتار ماذا يفعل، صرخ من دون وعي، تدلى جسدي أكثر، رويداً... رويداً قررت أن أهبط، أن أرتمي على الأرض، كان حكمت قواص أسرع مني سحبني من السرير على مهل ساعده أحد السجناء الذي رآني أتهاوى على تمديدي على الأرض، أسرع ثالث، رفع رأسي، رمى تحته وسادة فحت منها رائحة العرق، مدّ حكمت قواص رأسه بين قضبان الشبكة، صرخ مستغيثاً، تعالت الأصوات، تلاطم الزعيق، ضج القاووش، تسرّبت الأصوات إلى القواويش الأخرى، علت فيها أصوات السجناء، أختلطت بانتحاب حبات المطر على الحيطان، على الأرض، تراكض الحراس، فتح الشرطي أبو أسماعيل باب القاووش، أبعد السجناء عني، كل ما فكر به أن وضع أذنه على صدري، هَمْدَرَ بكلمات غير مفهومة، تعملق الصمت في القاووش، لَبِسَ تقاطيع الوجوه، سكَنَ في العيون التي كانت تدثرني، أشعر بها وأنا مغمض العينين تنغرس في وجهي.

أنهال الشرطي أبو أسماعيل على خدي صفعاً أوجعتني صفعاته، تحملت، شتمته بسري، هزني مرات، أتقنت التمثيل، بقيت هامداً، أطلق عنيناً خافتاً ومتقطعاً، أنطلت عليهم الحيلة، «أبو جاسم أبن كار عتيق»، تسليت بهذه الكلمات في ذهني، أعجبتني، ضحكت لها بسري، أمر أبو أسماعيل عناصره بحملي خارج القاووش، رفعني واحد من رأسي، لف آخر ذراعه حول خصري، بينما تمسك ثالث بقدمي.

سحبوني خارج القاووش، رفعوني عالياً، كان المطر ما يزال ينهمر، غسل وجهي، بلل ثيابي، مروا بي في «باحة الشنق»، كنت أسمع أصوات السجناء يسألون الحراس عمن أكون، وماذا حلّ بي.

أدخلوني المخفر، أجلسوني على كرسي، عاد أبو أسماعيل إلى صعقي، بدأت أتصنع أنني أسترد وعيي تدريجياً لاتقي ألم صفعاته، تسربل أبو أسماعيل، أرتبك، كرجت الأسئلة على شفتيه، كنت أجيبه عن أسئلته باعياء ظاهر

جعله يسرع في طلب سيارة تنقلني إلى المستشفى.

مشيت إلى السيارة أُجَرْجِرُ خطواتي، أستند إلى عنصري شرطة، تنشقت هواء بارداً فتحت له كل صدري، حلقت بنشوتي، أنا خارج السجن... خارج السجن.

أندست السيارة في الشوارع، تعاركت عجلاتها مع المستنقعات الموحلة، أعجبني صوت رذاذ المطر على زجاج السيارة.

أطلق السائق العنان لبوق السيارة ساعة دخلنا باحة مستشفى المجتهد، ركض ممرض نحو السيارة، فتح الباب الخلفي، ساعد الشرطي على سحبي من السيارة، مشيت بخطوات وئيدة، دخلنا إلى غرفة جانبية، عبقت رائحة الأدوية، دخل طبيب رمى عليّ نظرة أندهاش خرجت سريعة من عينيه المتألقتين، عرفني وعرفته، فلقد كان الدكتور ف. نسيباً لي، عاد وصوب عينيه بأتجاه الشرطي:

«ما شبعتو ضرب المساجين، كل يوم تأتونا بواحد؟».

نبت غضب مصطنع في عينيه، بلع الشرطي ريقه، ظل ساكتاً، عاد الطبيب إلى صيغة الأمر:

«أدخله إلى غرفة المعاينة..».

سحبني الشرطي من ذراعي، دخلنا الغرفة، لحق بنا الطبيب، بقي الشرطي واقفاً، نهره الطبيب:

«أنتظر خارجاً، سأناديك ساعة أنتهي من معاينة السجين».

تلبك رجل الأمن، تلونت قسمات وجهه بالخفر، أنسحب بهدوء، أغلق الطبيب الباب.

العينان في وجه الدكتور ف... أرسلت إليّ أسئلة مندهشة، أخبرته بالحيلة، تمددت قسمات وجهه المشدودة من أثر الدهشة، أرتاح، أرتخى على كرسيه خلف طاولة صغيرة، أنهمك بسؤالي إن كنت بحاجة إلى مال أو أي شيء آخر، أفهمته أني كنت بحاجة إلى الخروج ولو ساعة من السجن، فخطر لي أن أجرب المرض، ويبدو أن الخطة قد نجحت وتخلصت من ذلك القاووش النتن.

«سيجارة؟»

مدّ علبة «ونستون»، سحبت منها سيجارة، نسيت مذاق سجائر الـ «ونستون»، توهج رأس السيجارة، أخذت منها نفساً طويلاً، أنتعشت.

«قهوة؟...».

ضغط على زر، دخلت ممرضة بدينة، طلب قهوة، خرجت، عادت بعد لحظات بفنجانين، تنهد وزفر، لعن الحال التي وصلت إليها البلاد، أخبرني عمن رواه له من سمع عما يدور همساً، من خلافات بين جماعة صلاح جديد وجماعة حافظ الأسد، وكل الخوف أن تنتقل من قاعات الأجتماعات إلى... الشارع.

وطال الحديث... مضى الوقت...، تيقظت، خفت أن يتوجس الحارس ريبة من بقائي مع الطبيب، تنبه الدكتور لارتباكي، سحب ورقة من درج المكتب، كتب عليها تقريراً عن حالتي الصحية، فأنا أشكو من سيلان نتيجة ألتهاب في الكليتين، وأحتاج إلى راحة تامة، وبين الحين والآخر، وكلما نزفت أحتاج إلى

مراجعة الطبيب، ثم أعطاني قنينة صغيرة فيها ماء مطهر كتب عليها: «ست نقط ثلاث مرات في اليوم».

حملّته رسالة إلى زوجتي وأمي، عانقني، ثم تقدم من الباب، شقه، مد رأسه، ألبس وجهه قسمات حادة، تلون صوته بالأمتعاض وهو يأمر الشرطي:

«تعال... خذه، تمهل عليه فهو يعاني من نزيف».

عاد حط عينيه على وجهي وقال بلهجة مبتورة ليسمع العنصر:

«واظب على مواعيد الدواء، من الضروري أن تتناول ست نقاط ثلاث مرات، أعط التقرير لأمر السجن ففيه تفاصيل عن حالتك الصحية، وكلما شعرت بالنزيف أطلب من آمر السجن أن يحضرك إلى المستشفى، مفهوم...».

وشحني بنظرة حانية، عاد يضغط على يدي، هززت برأسي، همست:

«شكراً... لا تنس الرسالة...».

تنحنح، عدت أصطنع الاعياء، تقدم الشرطي مني، نهرني:

«أستند إلي، أما سمعت ما قاله الطبيب، أتريد أن تنزف من جديد؟!».

كتمت ضحكة خفت أن تغدرني فتتمطى على شفتي، أطرقت رأسي في الأرض ومشيت أتوكأ عليه.

II

حكّ جلدة رأسه، من عادته وهو يحتد بالكلام أن يحك جلدة رأسه.

تحلقنا من حوله، نسمع ما أتاه من رفاقه الذين كان التقاهم أثناء «المواجهة» في الأمن السياسي، حول الخلافات المستحكمة في القيادة، فلقد كان من أصحاب الحظوة الذين كانوا يتمتعون بسبب أنتماءاتهم العشائرية، بتسهيلات منعت عنا، فكان يخرج من السجن ساعة يشاء، ومثله كان الذين ينتمون إلى عائلات من دير الزور، فكانت لهم دالة ومونة على الملازم أول يوسف طحطوح، وهو الديري الآخر، حتى أنه سمح لهم بإحضار الطعام من مطعم «أبو كمال وغزال».

«كل شيء معد للأنفجار في المؤتمر القطري الرابع في أيلول (سبتمبر) المقبل...».

تغيب عيناه بين عيوننا، ينتفض مثل الملسوع:

«لا شيء سيمنع الأنفجار، الفجوة صارت كبيرة بين جماعة جديد وجماعة الأسد».

يهب صوت واحد من «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» يحب المماحكة:

«البعث صار بعثين وأكثر، منهم من يوالي صلاح الدين البيطار وميشال عفلق، منهم من يوالي جلال السيد، ومنهم من يوالي جناح العراق في القيادة القومية الذي أطيح به في 22 شباط (فبراير) 1967، وآخرون يحافظون على الولاء لمحمد عمران الهارب إلى بيروت..».

هزّ واحد رأسه، وأنهمك في صب الكاز في بطن البابور.

« سيدي ،فخار يكسر بعضه...».
طرطق آخر بقبقابه الخشبي، كرجت نظرة أمتعاض من عينيه صوب الرجل:
«أنت سكوت... خليك مع البابور».

●●●

والخلاف الذي يذر بقرنيه بعد حرب الأيام الستة، أخذ يستحكم، فبعد مساعدة صلاح جديد على القضاء على حركة سليم حاطوم في جبل الدروز (الذي عاونه فيها طلال أبو عسلي ومصطفى الحاج علي وأبراهيم نور الدين، حيث أحتجزوا صلاح جديد ونور الدين الأتاسي وجميل شيا الذين كانوآ في زيارة للسويداء) بدأ حافظ الأسد يجمع من حوله تيارا تمدد في القيادة القطرية وفي الجيش، والأختلاف كان يطول جوهر الحكم في الداخل والخارج، فبينما كان صلاح جديد يرسي حكمه على الصراع الطبقي ويضرب بساعد عبد الكريم الجندي كل من يخالفه ويستقوي عليه، كان حافظ الأسد يدعو إلى «الأنفتاح» على التيارات والقوى الساسية الأخرى التي ساعدت «البعث» على الوصول إلى الحكم، وأنتهاج نظام يجنح إلى «شيء» من الديموقراطية لأشراك الشعب في بناء أقتصاد متحرك، بعدما بدأت البلاد تعاني من أزمة أقتصادية خانقة تهددها بالأفلاس.
على الصعيد الخارجي، كان حافظ الأسد يريد «أنفتاحاً» على الجوار وعلى الأنظمة العربية التي كان نظام صلاح جديد يعاديها... حتى الاتحاد السوفياتي الذي تركز حكم جديد على محاباته وجعله عضدا له، لم يكن راضياً عن ممارسة الحكم في الشام، فصلاح جديد الذي كان يطرح أنه ينتهج في نظامه نهج «الأشتراكية العلمية» ضرب الشيوعيين وأضطهدهم...
وخلال زيارة حافظ الأسد لموسكو وأجتماعه بالماريشال أندريه غريشكو (آب «أغسطس» 1967) بدأ «وزير الدفاع» اللواء الأسد يتحضر للسلطة، فقد تمكن من تركيز علاقة مع موسكو تتعدى الاطر العقدية والأيديولوجية إلى المساعدة بالخبرات والأسلحة لبناء جيش قادر، فبدأت موسكو تخاطب دمشق عبر «وزير الدفاع»، ووزير الدفاع بدأ بعدما تملك من القرار السوفياتي يضيق الخناق على صلاح جديد داخل الجيش، وبدأ الصراع على السلطة يتكشف ويستعر.
في شباط (فبراير) 1968 أبعد حافظ الأسد قائد الجيش أحمد السويداني، أستبدله بصديقه القديم مصطفى طلاس، الذي كان معه في كلية حمص العسكرية عام 1951 وفي اللجنة العسكرية بعد انقلاب عام 1963.
أحمد المير، الذي كان القائد العسكري في الجولان، خلال حرب الأيام الستة، أجبر على التقاعد، ولم يكتف الأسد بذلك بل عمل على ابعاده إلى خارج البلاد، فعين ملحقاً عسكرياً في السفارة السورية في مدريد.
إلا أن ضربة الأسد القاضية ضد صلاح جديد كانت بنقل العقيد عزت جديد من قيادة الفرقة 70 الضاربة وبتعيين اللواء فؤاد كلاس قائداً لكلية الطيران.

فأمن حافظ الأسد البر والجو وأنتقل الصراع من الجيش إلى المدنيين.
تملصت السيجارة من أصابعه فمعس رأسها بحذائه.
«جاءوا بمعتقلين من جماعة صلاح الدين البيطار».
قال آخر بلهجة واخزة:
« الأسد يطلب رأس الدكتور...».
مدَّ حمدان حمدان كلماته متسللاً بها إلى الحديث، سأل بلهجة أمتعاض:
«مين فيهم؟... مين فيهم؟»
«الدكتور يوسف زعين... طبعاً».
«شوهالحكي، لهون وصلت؟!».
تهدل صوت حكمت قواص.
«بعد ما شفت شي».
حرَّكَ طلفاح الأحمد شدقيه بحركة غريبة وقام يتمشى في ميدان القاووش، فحت رائحة الكاز.
حقَنَ الرجل البابور، حرن، تعارك معه، سدَّ طلفاح الأحمد أنفه بأصابعه، خَنَّ صوته:
كل شيء سيتقرر في المؤتمر القطري الرابع، وقف، رش كلامه على العيون التي كانت ترافق حركاته:
رؤوس كثيرة ستطير عن أكتاف أصحابها... عب آخر نفسا من سيجارته، طرطق بقبقابه الخشبي وهو يتمشى بيننا:
«ألله يستر... الله يستر..».
«يعني أنقلاب مَنْ على مَنْ، «بعث» على «بعث»؟»..
«لا... لا... حركة تصحيحية للأنقلاب العتيق».
حقَنَ الرجل بابور الكاز بعصبية، فأشتعل.
«فخار يكسر بعضه... أخي».

III

«كاسة شاي أكرك عجم، لماجد بيك».
أستدار ماجد شيخ الأرض بوقار، لحق رأسه الصوت، تبيّن عزت دامرجي، أبتسم، حرك عصاه الرفيعة التي تنتهي بمسكة من العاج، مشى خفيف الوطء بوقار صوب عزت دامرجي، زرته بعيني، كان مربوع القامة نحيف البنية، دقيق الساقين، في أعلى ظهره أحديداب بسيط يشي بأنه تجاوز الستين بسنوات، يحرص على هندامه، ما مرة خرج من القاووش للتنفس بمنامته، إنما بسترته والقميص منشاه العينان براقتان ما أنزوى فيما السحر، تداوران في وجه منبسط الملامح عليها مسحات من الوقار والتعالي، فالرجل أبن عز وسند بيت من بيوتات دمشق العريقة، نبرات صوته الهادئة تكمل صورة المهابة عنه، أستلان خشونة السجن، فقد حكم عليه بالمؤبد، صار السجن بيته، كل عالمه منذ

أربع سنوات، أنفق من ماله على الحراس فأنصرفوا في معاملته والأعتناء به، في القاووش رقم 1 كون لنفسه «معزبة» وفي لغة السجن تعني زاوية نظيفة مستقلة لا يقربها السجناء.

عرفني، فالرجل كان يسكن مع شقيقته نديدة، شقة في بناية كانت تملكها خالتي راسمة أرملة نجيب الريس، أنس لي، صرت أرافقه خلال فترات التنفس، يبقى طوال الوقت ساهماً، شارد الفكر، يسخو في نظراته التائهة في وجوه المساجين فلا تستقر على حال، تتمشى في عينيه حسرة ممضة لا يفهمها إلا من عرف قصته، على الرغم من السنوات الأربع لم يستسهل حبسته مع قطاع الطرق ومع المجرمين الشاذين، وهو البريء ـ كما أدعى... ـ من كل التهم التي سيقت إليه.

وصلني صوته مخنوقاً بالانفعال، أينعت المرارة في كلماته:

«أتعرف ما ينقص هذا البلد؟».

لمّ خصلات شعره بأصابعه تمشطها إلى الخلف، لونت صوتي بلهجة هادئة:

«أشياء كثيرة... أشياء كثيرة..».

خطف كلامه خطفاً:

«شيء واحد... العدالة».

شعرت بالجفاف، مصصت شفتي السفلى، رطبتها بريقي، يذكرني بالعدالة وأنا المضام فيها، تعلقت عيناي بعيون المساجين، نصف هؤلاء هنا من ضحايا «العدالة» التي لا تنصف، التي ترى بعين واحدة، عين الحاكم المتسلط.

تناول منديله من جيب سترته، مسح وجهه، أعاد ترتيبه، حشره في جيبه، أخذ نفساً طويلاً، تنهد، علّقتُ سيجارة بين شفتي، أنتظرته ليحكي، مصصت السيجارة ، تزحلق الدخان الرمادي من أنفي على شفتي، تلاشى، أمتد أمامي خيط دخان سيجارتي، نبتت كلماته على شفتيه الدقيقتين:

«كنت عائداً من مارسيلية إلى بيروت على متن باخرة، أحب البحر، أفضله على الطائرة، يشبع البحر نهمي بالسفر، ألتقيت بشاب وسيم المحيا، لهجته دمشقية أصيلة، عرفني على نفسه بأنه كامل أمين ثابت، أمضينا فترة السفر سوياً، لم يبدر منه ما يجعلني أرتاب به، فلقد كان محدثاً لبقاً، ذرب اللسان، على طوية حسنة، يعرف دمشق جيداً مثل أي دمشقي، تركته في بيروت، تبادلنا العناوين، تواعدنا أن نتزاور متى عاد إلى دمشق».

توقف عن الكلام، أكلت وجهه بعينيٍ، أردته أن يكمل، مرت على عينيه مسحة حزن وهو يلتقط أنفاسه والكلام:

«في دمشق عدنا والتقينا، كان كامل أمين ثابت قد تقرب من القيادة البعثية الحاكمة بعدما تسلمت السلطة يوم الثامن من آذار (مارس) 1963 حتى أنه كاد يعيّن وزيراً في حكومة صلاح الدين البيطار، زارني مرات في منزلي وزرته مرات، ما أرتبت يوماً بتصرفاته، ما خدش الاثم ظني به على أنه رجل مقتدر عند أهل الحكم والسلطة والسلطان».

أرتجف صوته تغلب الأنفعال على قسمات وجهه:

«كامل أمين ثابت، كان إيليا كوهين، وأنا أصبحت في نظر السلطة صديق الجاسوس جاسوس، أعدموه وحكموا علي بالسجن المؤبد، ما نفعت حججي، لم تشفع لي أدلتي على براءتي، أدانوني وأنا بريء، أخذوني بجريرة الجاسوس».
صفق الشرطي، صرخ:
«كل واحد على قاووشه، خلص وقت التنفس... خلص وقت التنفس».
بقيت هامداً، هزني كلامه، نقل ماجد شيخ الأرض من خطاه بتؤدة بإتجاه القاووش رقم 1، رش على وجهي أبتسامة أخفت كل حزن الدنيا.
نهرني الشرطي، مشيت إلى القاووش.
«العدالة في هذا البلد ترى بعين واحدة، عين الحاكم المتسلط المستبد»، تمتمت بسري.
مرّغ المفتاح رأسه في فم القفل، أغلق الشرطي باب القاووش خلفي.

IV

لو أن صاعقة نزلت على السجن لما أرتجف السجناء أرتجافتهم إذ بلغ الخبر بالتواتر أن الملازم أول يوسف طحطوح وصل إلى باحة السجن، فالرجل خلافاً للقوانين والأعراف يزور السجن للتفتيش أحياناً في عز النهار وأحياناً بعد منتصف الليل وهو مدجج بالسلاح.
وعلى الرغم من أن سجن القلعة يتبع إدارياً وزارة الداخلية بقوانينه، إلا أنه في نظام تلك السنوات، فإن للاستخبارات أن تفصل القوانين على مقاسها وتتبع الأعراف التي تتماشى واهواء المتحكمين بالبلد.
توحّش صوته، هدر، أينع الغضب في عينيه، نفخ في نفسه شهوة البطش، بدأ يدور بين المساجين مثل أفعى كواها الحر، يفرض هيبته، يعطي الأوامر، يزعق في الهواء قبل أن ينزل على الصدور والظهور والأرجل..
همدت حركة المساجين في الباحة، تسمروا في أماكنهم، ما عادت تسمع طرطقة القباقيب الخشبية، فليس من بلغ شأوه في البطش والقهر والتعذيب أن يستباح وقاره المتكلف.
كانت عيناه تسبقانه إلى الوجوه المتجهمة المرتعدة، يبحلق. ينفر الشر من بؤبؤهما، تفلت نظره من بين المساجين، حط على وجه ماجد شيخ الأرض، وجده بكامل قيافته، لا يرتدي منامة ولا ينتعل قبقاباً خشبياً، ولم يترك شعيرات ذقنه تطل من مسام جلد وجهه، يحمل عصاه، ينتحي جانباً بوقار ظاهر، كأن عالمه ليس من عالم هؤلاء، أنجذب الملازم أول إليه، أومأ بقضيب الخيزران، تقدم مساعده الرقيب أبو صالح، سأله من يكون ذلك الرجل، أسر الرقيب في إذن الملازم، أن الرجل هو ماجد شيخ الأرض.
أهتزّ الملازم أول حنقاً، ضرب قضيب الخيزران على رجله، لا يعرف هدنة بين غضبه وحركة يده العصبية، تقدم بخطوات مسرعة بأتجاه ماجد شيخ الأرض، لحق به المساعد، أبعد المساجين عنه بقضيب الخيزران، أقترب أكثر، أصبح في

مواجهة ماجد شيخ الأرض، توقف، ضجَّ الغيظ في عينيه، رقصَ شفتيه الغليظتين، بقي الرجل الوقور هامداً، توحش صوت الملازم أول:

«أنت، ولك.. يا جاسوس تعال..».

تهدل صوت ماجد شيخ الأرض، سأل:

«أنا..».

«مين غيرك الجاسوس هنا، تعال يا قواد..».

مدَّ ماجد شيخ الأرض عصاه أمامه، مشى بأتجاه الملازم أول يوسف طحطوح، فأسرع الملازم يلاقيه:

«ما زلت حياً... يا قواد..».

وعالجه بصفعة نزلت قوية على خده، لوى ماجد شيخ الأرض لها رأسه... نفر الدم من فمه، أضاع توازنه، كاد يهوي على الأرض، أمسك به أحد الحراس، عاد وأنتصب، همدر السجناء.

أمتلأت عينا ماجد شيخ الأرض بشيء أشبه بالدموع، تمالك نفسه على أنفة وكبر، خرجت نبراته هادئة متسامحة:

«يا أبني الله يرضى عليك من أنتَ حتى تضربني؟».

أينع الغيظ في نبرات الملازم أول، صرخ:

«أنا الملازم أول يوسف طحطوح، أنا رئيس التحقيق في الأمن السياسي، أنا هنا لأراك ميتاً».

أقترب منه، تناوله من ياقة سترته، هزه مرات، وقعت عصاه من يده، كاد يفقد توازنه من جديد، ظل الملازم يهزه يمنة ويسرة:

«ماذا تفعل هنا في السجن يا قواد، مكانك تحت التراب».

شقت دمعة طريقها على خد ماجد شيخ الأرض، تغاصب، لمَّ عصاه، عاد يستند إليها، انتشرت الهمدرة بين السجناء، لم يتجاسر واحد على الأقتراب لمساعدة ماجد شيخ الأرض، مرق الملازم على كل الوجوه، تعملق الصمت، أكل الوجوه وسكن في الحناجر، أستدار الملازم بغضب، فتش بعينيه عن مساعده الرقيب «أبو صلاح» أنتصب المساعد أمامه:

«أنقل هذا القواد من هنا».

خارت قوى ماجد شيخ الأرض، ألبس صوته بالأستعطاف.

«يا أبني الله يطول عمرك، أنا محكوم مؤبد، ولم يبق من عمري أكثر من ما مضى، لا تحرمني زيارات الأهل، إذا نقلتني سيتعذر عليهم زيارتي، إذا كنت مذنباً فأنا أدفع ثمن ذنبي ما تبقى من عمري خلف هذه القضبان، فلا تجعلني أدفع الثمن مرتين... الله يرضى عليك يا أبني...».

سَخَا الملازم بحركاته العصبية، توحش صوته من جديد:

«زيارات... زيارات يا قواد... يا جاسوس، أمثالك يحرمون من رؤية الناس، مُتْ قهراً يا جاسوس، مُتْ مرتين، أغرب عن وجهي... أغرب عن وجهي، أنقلوه... أنقلوه من هنا».

ترك صوته يجن خلفه وغادر باحة السجن.

تناول ماجد شيخ الأرض منديله من جيب سترته، مسح الدم عن زاوية فمه، جرجر سنواته الستين خلفه إلى القاووش رقم 1.

●●●

بعد يومين نقلوا ماجد شيخ الأرض إلى سجن «تدمر»، في قلب البادية الشامية، عزلوه في زنزانة مظلمة، منعوا عنه الزيارات، أبعدوا عنه شقيقته التي كانت كل دنياه، أصيب بإنهيار عصبي، فتح الحارس باب الزنزانة عليه ذات صباح فوجده متكوراً في سريره جثة باردة.

بين أغراض ماجد شيخ الأرض وجدوا رسالة إلى شقيقته نديدة روى لها فيها عن سوء المعاملة التي أمر بها الملازم أول يوسف طحطوح، وأصناف التعذيب التي لقيها في سجن تدمر، مؤكداً براءته من أية علاقة واربة أو مشينة أو مخلة بالوطنية مع الجاسوس الإسرائيلي إيليا كوهين.

وفي آخر الرسالة طلب من شقيقته أن تغفر له لأنه أنتحر!

XII

إسماعيل ياسين في سجن القلعة!

I

«يا فتّاح يا كريم يا رزاق يا عليم...».
عضّ على لسانه من الحنق، حقن البابور، حرّن، نفر الكاز من رأس البابور، حك عود الكبريت، توهج رأسه قربه من الكاز المتجمع في جرن البابور، أشتعل، عاد يحقن البابور بعصبية، جن صوت البابور، أبتسم، تغلب على عناد البابور وحرنه، رندح موالاً وهو يضع إبريق الشاي على النار، عاد يلكز رفيقه، يوقظه من النوم.

تمطى آخر، مَعّسَ صرصوراً مدّ رأسه تحت بطانيته العفنة، سعل ثالث، لعن التدخين، طلع صوت بابور آخر فى زاوية القاووش، تسربل الصمت، نما الضجيج في الخارج، غنجت الشمس بأشعتها على حيطان القلعة العمياء.

فرض الضوء هيبته على الممرات والسراديب والزنزانات، بدأت رحلة كاسات الشاي إلى الشفاه، تعقبها أصوات تطلع مع كل رشفة، تخرج الأصوات من الحناجر رخيمة فيها بحة النوم، تحرق أعقاب السجائر الأصابع قبل الشفاه، يغزل الدخان المنبعث منها اشكالا غريبة كانت تتجمع في فضاء القاووش ثم تتلاشى.

فحتْ رائحة المراحيض، بدأت معزوفة القباقيب الخشبية على الارض. تنشر الخبر ان الضوء قد طلع في القاووش.

II

سخا بحركاته العصبية، وقف على مصطبة خشبية يُعطي الاوامر للعمال وهم ينقلون الالواح الخشبية الى د اخل الليمان، يصيح بهم بمستطيل

الحنق، تلبك، لم يعرف ابو اسماعيل في كلامه صيغة الأمر، تكلف الوقار، نشر سطوة زائفة في مخارج صوته، أزدادت حركة العمال، بدأت الألواح الخشبية تصطف تأخذ شكلاً هندسياً، تنزل مطارق العمال الحديدية على رؤوس المسامير، تطحنها، تغرسها في الخشب، تحلق السجناء حولهم، بدأ رجال الشرطة يتململون من كثرة الأسئلة، ومن حشرية السجناء، ما أرتاحت سواعد العمال وما أرتاحت معها أسارير أبي أسماعيل وحركاته العصبية، حتى كان المسرح الخشبي قد أكل صدر باحة الليمان.

وصلت ضحكته إلى أذنيه، مسح جبينه بمنديله، أخذ نفساً طويلاً، ألتفت إلى أحد السجناء:

«إسماعيل ياسين وفرقته سيقدمون عرضاً مسرحياً هنا بعد أيام، ضمن برنامج الترفيه الذي أعدته إدارة السجن».

أنتشى بكلماته، ظن أنه نشر خبراً مهماً، هز السجين برأسه غير مبال، خنق أبو أسماعيل نشوة سكنت لحظات في عينيه، أدار السجناء له ظهورهم، بقي وحده يتمشى على المسرح.

III

تململ المفتاح، أخرج صريراً ملتاعاً وهو يدور في القفل، يبست الحركة في ضلوع القاووش، أكلت الحناجر الكلام، تكومت العيون عليه، تعلقت في وجهه الشاحب الهزيل، تسربل في وقفته، دار بعينيه الغائرتين في محجريهما على الوجوه، بحث فيهما عن وجهي، رآني.

رَمَى كيس ورق حضن منامته وبعض الملابس الداخلية على الأرض، ناداني، أنتقلت العيون إلى وجهي، هزني صوته، لم أعرفه وإن كان وجهه قد بدا لي أليفاً، تغير وجهه عليّ، تعملقت همدرة السجناء، أقتربت، مشت العيون مع خطواتي إليه، أحدث الباب الحديدي حشرجة مزعجة، أنغلق، لوى المفتاح رأسه في القفل، أنتعشت الحركة في القاووش، أبتسم، أفرج عن أسنان صفراء نخرها السوس، عيناه الصغيرتان ذابلتان، تدوران في حفرتين لونهما الاعياء بالسواد، تنغرسان في وجه نحيل، ما أبقى الصلع من شعره الأحمر المجعد، تكمش بصدغيه ورسم دائرة حول رأسه.

«مروان... مروان ماذا تفعل هنا؟».

مرّ بريق خاطف على عينيه، رفع كيس الورق عن الأرض:

« يا صديقي لم أعد أتحمل البقاء خارج السجن وأنت في داخله».

خرجت كلماته من صدره المتعب.

فرقعت ضحكة أبي غياث يعقوب، أستدار لها مروان سكر، رش على وجه أبي غياث يعقوب نظرة غضب، فهمها، فأشاح بوجهه عنه.

وقفت كلمة «مجنون» بين شفتي، أجتاحني شعور غريب أن أرى بعد في هذا العالم صديقاً وصلت درجة وفائه إلى أن يزج بنفسه في السجن ليراني، ليبقى

معي، ليقاسمني العذاب والقهر.

لقد كان مروان سكر يعمل في دكان والده في «شارع طارق بن زياد» في منطقة «الحريقة»، يبيع «الاغاباني» و«المناشف» و«البشاكير» من إنتاج الصناعة الدمشقية النسيجية التقليدية.

كان يزورني باستمرار، يلوح لي من بعيد، يمد صوته، يحكيني بالرموز، فكَّر طويلاً بوسيلة تدخله السجن ليراني، فلمعت في ذهنه فكرة السمسرة لاجازات الخروج من لبنان التي كانت تعطى لقاء رسم تبلغ قيمته خمس ليرات سورية.

ترك دكان والده، ذهب إلى مكتب الأذونات حيث تقدم الطلبات لتتحول إلى المحفوظات ومنها إلى الأمن السياسي، وتتوزع إلى الفرع الداخلي ثم الخارجي فالأستخبارات العامة والأمن القومي قبل أن يحصل صاحب الطلب على جواب بالقبول أو الرفض.

أندس مروان سكر في الطابور الطويل، تحرش بفتاة من عائلة الشيشكلي كانت تنتظر دورها وفي يدها تذكرة الهوية وأوراق المعاملة، فقد كانت تريد زيارة شقيقتها التي تقيم في بيروت، برقت برأسه فكرة أن يحتال على موظف الأذونات، تناول تذكرة الهوية والطلب من يد الفتاة، قال لها أن تنتظر جانباً فالمعاملة يمكن أن ينجزها بدقائق عشر، أستسلمت الفتاة للهجة مروان سكر المقنعة، صدقته، تركت الطابور وانتحت جانباً تنتظره.

أخترق مروان سكر الصف الطويل، أبعد الناس من حوله، لون صوته بلهجة آمرة، زم شفتيه، دفع بتذكرة الهوية والطلب إلى الموظف:

« أرسلني الرائد رئيس الفرع إليك طالباً أن توافق على إعطاء هذه السيدة إجازة خروج إلى لبنان».

تزحلق نظر الموظف على وجه مروان سكر، تفرَّس به بصمت:

« لم أرك قبل اليوم هنا...».

قطب مروان سكر، رشَّ على ملامح وجهه قساوة عرف بها رجال الأستخبارات، تكلم بنبرة مبتورة:

« لا تجادل، أنا من طرف الرائد...».

لم يجادل الموظف، خاف إن فعل أن يثير غضب الرائد، فتح تذكرة الهوية، مرَّ بسرعة على الطلب، تحركت يده بالأختام، وقع، قبل أن يفتح فمه ألقمه مروان سكر بالليرات الخمس.

أنتشل الطلب من يد الموظف، عاد إلى الفتاة، ما لم ينتبه إليه مروان سكر، أن بين الواقفين في الطابور ثلاثة من عناصر الأستخبارات، سمعوا الفتاة تسأله إن كان يريد «إكرامية»، فعرفوا أنه أنتحل صفة الصداقة للرائد وأحتال على الموظف، فتقدم منه أحد العناصر، شده من ذراعه، دفعه إلى داخل سيارة لاند روفر سوداء اللون، أنطلق به إلى الأمن السياسي، أدخلوه إلى مكتب الملازم أول يوسف طحطوح، حقق معه، ظن الملازم أن خلف وجه مروان سكر البريء يختفي ذئب ماكر، وأنه يراوغ بكلامه السانج البسيط، فأنهال عليه بقضيب الخيزران حتى أغمي عليه، أمر بنقله مخفوراً إلى معتقل الشيخ حسن، تجمع الجلادون

عليه، جلدوه، وضعوا قدميه في الفلق، لسعوه بشحنات الكهرباء، رموه في زنزانة أسابيع طويلة، أنهكه القهر والعذاب، نخر جسده سوء التغذية، نحل جسده، رموه بيننا بعدما أصيب بالسل.

«لا تتركني... لا تتركني بعد الآن».

تحشرج صوته، شقت الكلمات صدره المنخور بالسل إلى شطرين، عصرني الألم:

« لا تخف... لا تخف سنبقى سوياً».

حاول بابتسامته أن ينشر فرحاً على وجهه الشاحب، بانت على ذراعه عضة قضيب الخيزران، مددت ذراعي اليسرى، أحطت بها كتفه، مشيت به إلى زاوية في الزنزانة، فرشت له سريراً، مدد فوقه جسده المنهك، كان يخرج من صدره خرير متقطع، أنتابته موجة سعال، تف دماً في منديل وسخ، أبتعدوا عنه، خافوا أن يعطيهم السل من صدره المنخور بالمرض المعدي، وحدي كنت أقترب منه، أحمل إليه الطعام الخاص الذي أمر به الأطباء، أشتد السعال، بلل شفتيه اليابستين بقليل من الماء، كان صدره يعلو ويهبط، تف دماً أغمض عينيه من الاعياء، رددت البطانية على جسده المتعب النحيل.

«لم أعد أحتمل يا صديقي، البقاء خارج السجن وانت في داخله».

IV

« طار يوسف زعين».

عب دخان سيجارته، مشط شاربيه بإبهامه وسبابته.

« لحق به إبراهيم ماخوس».

هتف آخر يذيع الويل.

«شو هالحكي... لهون وصلت؟».

نبت صوت أبي أحمد رخيماً بين الأصوات المهمدرة.

« بلغت الدماء الثنن والفجوة كبرت يا أخوان».

أهتز طلفاح الأحمد حنقاً.

« خربت البلد، خربت البلد، الثورة أكلت نفسها».

شبك يده خلف ظهره وبدأ يزرع ميدان القاووش بدعسات يهتز لها قبقابه الخشبي.

« إذا ما كبرت ما بتصغر...».

حبس شاب ينتمي إلى جماعة أكرم الحوراني كاسة الشاي بين شفتيه ورشف منها محدثاً صوتاً أزعج عمر أبا زلام، أمتعض رفيقه:

« لقد تمادى حافظ الأسد كثيراً في خلافه مع صلاح جديد، لا أحد يستطيع أن يتصور ماذا سيحدث إن أنفجرت».

وحافظ الأسد يحضر لمعركته الحاسمة مع صلاح جديد، كانت أخبار هيمنته على الجيش تصلنا بالتواتر، تعزز بيننا الأعتقاد بأن الحسم بات دانياً، وإن أمراً

ما قد يحصل أثناء المؤتمر القطري والقومي للحزب الحاكم، وعلى الرغم من أن أعضاء القيادتين القومية والقطرية لم يوافقوا الأسد على جميع طروحاته، وجرى التصويت خلافاً لما توقع وأشتهى إلا أنه تمكن من عزل رئيس الحكومة، الدكتور يوسف زعين - والدكتور إبراهيم ماخوس وزير الخارجية.

مع ذلك بقي مستقبل حافظ الأسد في قيادة الحزب مهدداً، فتدخل الجيش في الحزب لم يكن يلقى ترحيباً من البعثيين المدنيين، فبدأ الأسد يعمل على إبعاد الجيش عن الشؤون السياسية الداخلية والخارجية، ومنع الضباط من التعاطي مع السياسيين المدنيين ومن تدخل هؤلاء في شؤون الجيش، وقد وصل به الأمر إلى منع توزيع بيانات القيادة القطرية على الثكن والوحدات العسكرية، وأمتنع هو شخصياً عن حضور إجتماعات تلك القيادة، فأوجد الأسد بذلك حزبين للبعث الأول مدني والثاني عسكري.

وشيئاً فشيئاً بدأ حافظ الأسد يحاصر صلاح جديد، ينقض على قوته ويقضي تدريجاً على صلاحياته بالاقالات، والتعيينات، والتنقلات، التي طاولت أنصار جديد، وأخذ يوزع أنصاره في المناصب والمراكز الحساسة، فبقي صلاح جديد يستند لتدعيم مركزه في السلطة على عبد الكريم الجندي ويتحصن بأجهزته القمعية، إلا أن صلاح جديد عاد ووجد نفسه، وهو الذي قاد اللجنة العسكرية ضد ميشيل عفلق، يجبه تحدي العسكر، وأنه بأنهماكه بالقضايا المدنية السياسية قد أفلت من قبضته سلطته على العسكر.

لقد كان خطأ صلاح جديد أنه حاول أن يحكم العسكر، فلقد كان خطأ صلاح جديد أنه حاول أن يحكم العسكر من خلال الحزب بينما عرف حافظ الأسد أن سر اللعبة في الشام أن يحكم الحزب بالعسكر ليبقى في الحكم، وهكذا فعل فوصل إلى الحكم وبقي...

علكت أصابعه قصاصة أفتتاحية جريدة «البعث»، رماها بعصبية، هتف:

«إلى متى يضحكون على الناس، الى متى... إنّهم يخفون بكلام مجبول بالوطنية القومية ومغلف بالثورية ما يجري بينهم، فكأن البلد في أمان وليس على فوهة بركان».

« طوّل بالك أخي... طوّل بالك ...هيّ طول عمرها هيك».

خرج صوت أبي أحمد ممطوطاً وهو يلف بأصابعه لفافة تبغ، نهر حمدان حمدان بعينيه، فتصنع أبو أحمد اللامبالاة، مرر لسانه على ورقة السيجارة، هَمْدَرَ لحناً بدوياً، قام طلفاح الأحمد، تناول قصاصة جريدة «البعث»، مسدها بين أصابعه، قرأ نصفها بصوت عال، أزاحها عن نظره.

« الحالة سودا... متل الزفت».

تمتم غياث أبو يعقوب.

« غداً الشعب سيدفع الثمن مرة أخرى، منذ عام 1949 والشعب يدفع الثمن في هذا البلد».

تزركش صوت في زاوية القاووش:

« إن ما كبرت ما بتصغر... أخي».

V

علا الصراخ، تمشت الأوامر، فتحوا الأبواب، خرج المساجين، منذ الصباح أنهمكوا في مدّ أشرطة الكهرباء على المسرح الجاثم في باحة الليمان، صفوا المقاعد، أجلسوا السجناء، تكومت العيون على المسرح تنتظر إسماعيل ياسين.

دخل أبو إسماعيل، طلب منا الخروج، مشى، لحقنا به، القطيع سار خلف الراعي.

أدخلنا إلى الغرفة اللصيقة بغرفة مدرسة السجن، أغلق الباب خلفه، أبعدونا عن المساجين الآخرين، لا يحق للسجين السياسي في دولة البعث أن يرفه عنه، أن يخالط السجناء الآخرين، فهو يحمل وباء معدياً، على زمن الأنتداب الفرنسي كان للسجين السياسي أمتيازات خاصة لم تعطها له العهود العسكرية التي تحكمت بالسوريين منذ عام 1949 حتى اليوم.

كان السجين السياسي زمن الانتداب يقرأ الصحف، المجلات والكتب، يستمع إلى الإذاعات، يستقبل الزوار، فيما هو في سجون الأنظمة العسكرية محروم من كل شيء، لا جرائد،لا مجلات ولا كتب، لا راديو ولا أخبار، إنما عزلة خانقة، يجلد، يعذب، يقهر جسدياً ومعنوياً.

صار واحدنا يتمنى لو أنه أقترف جريمة قتل، أو كان قاطع طرق، لكانوا خففوا عنه عذابات السجن، لكانوا رفقوا به وسمحوا له بما لا يسمح لغيره.

في دولة عبد الكريم الجندي السجين السياسي خطر على النظام، القاتل يعاقب، يتوب، أما السجين السياسي كلما عذب ثار، كلما أوجع أنتفض، لا يتوب عن خطيئة معارضة النظام، يبقى هكذا حتى... الموت.

تلاطمت هذه الأفكار في رأسي، غيبتني عن الواقع لحظات، اشتعل النقاش في الغرفة المكتظة، أرجعني إلى صوابي، مددت نظري من شباك الغرفة، توهجت الأضواء في باحة الليمان، الأنتظار أكل عيون المساجين، والمسرح الذي نراه من بعيد ما يزال ينتظر طلة إسماعيل ياسين وفرقته.

غرفة مدرسة السجن اللصيقة، خصصت لتغيير ملابس الممثلين، فكنا نراهم من الشباك يدخلون إلى الغرفة تباعاً.

بقيت على الشباك، مرّت مريم فخر الدين، إمرأة في سجن القلعة تغنج بين المساجين، أشتعلت الحناجر، توجهت بالصراخ، دوى التصفيق، أنتشر رجال الشرطة بين المقاعد، بثوا العيون المسنونة في وجوه المساجين، لبست وجوههم قساوة، فرضوا هيبتهم على الحضور.

رمقتني بنظرة عجلى، أبتسمت، دخلت الغرفة، لحقت بها جمالات زايد:
« إزيك يا دلعدي»...

هزّت وسطها، طلعت الأصوات خلفي متلاطمة، فرقعت ضحكة ممطوطة على فمها العريض، دفعت باب الغرفة ودخلت.

تعمشق أبو أحمد على كتفي، تدافعوا خلفي، صارت النافذة مزركشة بالعيون

المتلهفة لنظرات حانية.
مشت على مهل، وجه عقيلة راتب كان أليفاً، لوحت لها، أبتسمت بخفر، أقتربت من النافذة، همدت الأصوات، دارت بعينيها العسليتين على وجوهنا، لحق بها إسماعيل ياسين، وقفت، حطت عينيها على وجهي، قالت بحنو:
«عامل إيه يا أفندم؟».
«أنا مغتصب...».
لم تفهم، أبتسمت، مرت حيرة لاسعة في عينيها، رمى إسماعيل ياسين كلمة:
« مغتصب إيه بالصلاة على النبي؟».
حرك شدقيه بحركة غريبة، اشتعل الضحك خلفي، طلع صوت عمر بوزلام:
« مغتصب سلطة...».
تغيرت ملامح إسماعيل ياسين، سألتني عقيلة راتب:
« إيه يعني مغتصب سلطة؟ ثم لماذا لستم مع السجناء الباقين؟».
« يعني أننا ضد النظام، ضد الحكومة، إننا يا سيدتي معتقلون سياسيون، والمعتقل السياسي يعزل، يحرم من حفلات الترفيه».
تولاها التعجب، نظرت من حولها، خافت أن يسمعها أحد تجاسرت، همست:
« الله هو في الشام يوجد معتقلون سياسيون؟ لم يقولوا لنا ذلك...».
تعاركت اللهجات، أسكتهم صوت طلفاح الأحمد:
« النظام يكذب...».
مسح إسماعيل ياسين فمه بمنديل، أقترب من النافذة، وهمس:
« لماذا يكذب النظام دائماً؟ لماذا يخفون الحقيقة؟».
« عرب... عرب...».
مدّ حمدان حمدان صوته... عادت عقيلة راتب تسأل:
« أنتو مين؟».
« بيننا الطبيب والمحامي والمهندس والصيدلي والصحافي والطالب... نحن أكثر من 400 معتقل سياسي... يا سيدتي».
« يا خبر أبيض... يا خبر أبيض...».
خرجت كلمات إسماعيل ياسين مبتورة، تسربلت ضحكة على شفتيه، علا الأمتعاض على وجه عقيلة راتب، مشت إلى عينيها مسحة حزن، تراجعت قليلاً، تمنت لو أنها لم تسمع كلامي، لو أنها بقيت على الظن بأنها هنا للترفيه عن مجرمين عاديين في نظر النظام والسلطة، طوى إسماعيل ياسين ذراعه اليسرى على كتفيها، سحبها، تركت على وجهي نظرة حانية، مسحت دمعة ولدت بغتة بين جفنيها.
تعملق الصمت في الغرفة، أغتال إسماعيل ياسين إبتسامة حاولت أن تغدر فمه الكبير، أقترب، عاد للهمس:
« معليش يا أفندم... في آخر الليل يطلع الفجر دائماً».
شد على يدي، مرق على الوجوه التي أكلت النافذة، وغاب.

VI

«يا حكومة...يا حكومة ... يا أخانا... يا أخانا».

مد صوته بين قضبان الشبكة، فتش الشرطي عن مصدر الصوت، ركض بإتجاهه.

كنت أتلوى من الألم، أعصر معدتي، أصبحت أتقن فن التمثيل ساعة أشتاق إلى نسمة حرية.

تلبك الشرطي وهو يفتح باب القاووش، صرخ بزميله، دخل الشرطي الآخر، أبتعد السجناء عني، تركوني أتلوى على الأرض، هزني الشرطي مرات بعنف، طلع صوتي مخنوقاً.

«نزيف... نزيف مثل العادة».

أومأ الشرطي، تقدم رفيقه، أنتشلني من الأرض من كتفي، سألني إن كنت أستطيع السير، هززت برأسي، توكأت على الشرطي، مشيت بخطوات وئيدة، أخرج عنيناً خافتاً بين الحين والآخر، مشوا بي إلى مخفر السجن، أجلسوني على كرسي، في المخفر ثلاثة سجناء ينتظرون الذهاب إلى المستشفى للمعاينة.

لف أبو أسماعيل وجهي بنظرة تودد:

«لا بأس عليك... لا بأس عليك، لحظات وستأتي الشاحنة لتنقلك إلى المستشفى».

تصنعت الألم، غاليت في العنين، رسمت على شفتي إبتسامة وضعت فيها كل حزن الدنيا.

مدّ لي علبة دخان «أمية» سحبت منها لفافة دفنتها باعياء بين شفتي، قرب عود الكبريت المشتعل من رأس السيجارة، أشتعل تبغها، مصصتها على مهل.

أعتذر الشرطي مني وهو يضع القيد في معصم يدي اليسرى، ويحكم إغلاق القيد الآخر حول يد السجين المرافق لي، توكأت على كتف السجين حتى وصلنا إلى باحة السجن الخارجية، ساعدني الشرطي على الصعود إلى الشاحنة العسكرية المكشوفة.

زأر محرك الشاحنة، معست دواليبها المطاطية الغليظة الحصى، أنطلقت بنا بإتجاه طريق بيروت إلى المستشفى الوطني.

عند مفترق طريق المنشية، قرب كازينو دمشق الدولي، أصطدمت الشاحنة بباص، توقفت، تعرقل السير خلفها.

صدحت أبواق السيارات، علا التذمر والسباب، لوّن رفيقي عزيز مطانيوس صوته باللهفة.

«أصعد... أصعد، قد يمضي وقت علينا قبل أن تحل قضية الأصطدام».

رجع إلى سيارته، حاد بها عن الشاحنة، أوقفها على طرف الطريق، ثم عاد إلى الشاحنة صعد، جلس قبالتي، أخبرته بالرموز، فهم حيلتي، أنبسطت أساريره، أخفى أرتياحه عن عيني السجين المقيد بمعصمي، تصنع الأنزعاج.

« هانت... هانت».

قال عزيز مطانيوس بلهجة واثقة ثو تابع:

« إنني أسعى لدى الملازم أول توفيق شيخ علي، بعد التحقيق النهائي معك، حول ملفك كما وعد، وأبلغني أن قضيتك منتهية، وسيطلق سراحك في غضون أيام...».

«الأيام صارت أسابيع...».

تغيرت ملامح وجهي، شد عزيز مطانيوس على يدي:

« أعرف... أعرف».

« راجع، حاول مرة أخرى...».

لبس صوتي توسلاً مراً.

« راجعته، سعيت، قال أن ملفك صار عند العقيد، حبيس درجه، بيد العقيد وحده الحل والربط، يرفض توسط توفيق شيخ علي، يمانع بشدة إطلاق سراحك».

« العقيد عبد الكريم الجندي».



XIII

نهاية العقيد بداية الحرية

I

بأمر من الحكومة ممنوع خروج السجناء السياسيين من القلعة!

وقف الشرطي في ميدان القاووش يتقدمه كرشه، يعلن علينا «فرمان» آمر السجن.

أنتشى بكلماته، مر على وجوهنا بعينيه الصغيرتين المغروستين في وجهه المنفتح، أينعت أبتسامة أوسع لها شفتيه الغليظتين، أفرج عن أسنان معوجة نخر السوس بعضها، فرك شاربه الذي يخفي شفته العليا، مسدّ كرشه بيديه، تنحنح، مشى بيننا يتهاوى مثل الطاووس.

«والرضى يا شاويش؟».

مطَّ واحد كلماته على شفتيه

«ممنوع... ممنوع بأمر من الحكومة ما فهمت أخي؟».

خرج صوت الشرطي متهدلاً واخزاً.

«نحنا بأمر الحكومة والله...».

غلف أبو أحمد صوته بالهزء، فرقعت ضحكة آتية من حنجرة طلفاح الأحمد، أستدار لها الشرطي، أنزعج، أضاع وقاره بين همس السجناء، دار الأمتعاض على الشفاه والوجوه، لعن الشرطي لحظة دخوله إلى القاووش، فرك رأس المفتاح بالقفل بعصبية، أداره، لم شفتيه وهو يزيح الباب الطويل من دربه.

تكمش الأمتعاض بقسمات وجهي، غصصت بريقي، أحسست بالأنقباض، فلقد كان أنتحالي المرض عذراً أسبوعياً يسمح لي بالخروج من ذلك القاووش النتن ومن تلك القلعة الرهيبة إلى الحرية، وها هم يمنعون عني تلك اللحظات.

تمددت على السرير، ساح نظري في سقف القاووش،كان دخان السجائر يتجمع فيه، يرسم أشكالاً غريبة، كانت تتراقص أمامي، تبالدت الأفكار في ذهني، عدت أشعر بمرارة الأسر، أصبحت تلك الحيطان الرطبة تطبق راحتيها على صدري، حانت مني التفاتة إلى الحائط المزخرف بخطوط سوداء صغيرة، كل خط بيوم، صارت أيامي خطوطاً مرسومة على الحائط أياماً ميتة بأخرى مولدة، والعمر المعلق على القضبان يمضي مسرعاً.

« لا بد أن الأمر بات ينذر بالعاصفة».

حك حكمت قواص شعر لحيته الذي أكل وجهه، أرجعني صوته الذي وشى بالخوف إلى صوابي.

« ربما... من يعرف ماذا يدور في الخارج؟».

تزحلق صوتي على مهل، وصل إلى أذني طلفاح الأحمد، أنتفض، صبَّ على صوته ثقة:

« أنا الذي ينبئك بالخبر اليقين».

شنَّف حكمت قواص أذنيه، أكل وجه طلفاح الأحمد بعينيه، همدر:

«ماذا تناهى إليك؟»...

رقص الأفتخار على شاربي طلفاح الأحمد، حرك شدقيه بحركة غريبة، مَسَح عن شفتيه تبغاً تناثر من سيجارته، قال:

فشل المؤتمر القطري في رأب الصدع بين وزير الدفاع اللواء حافظ الأسد وبين أمين القيادة القطرية في الحزب اللواء صلاح جديد، الكل أصبح على سلاحه يحضرّ جماعته للإنقضاض على الآخر... بمعنى آخر الحالة زفت...

نشَّ أبو أحمد ذبابة وقفت على رأس أنفه، لم يعجبه كلام طلفاح الأحمد:

« كل مرة تقول لنا الحالة زفت والصراع على السلطة يشتد، والأنفجار قاب قوسين أو أدنى، ولم يحدث أي شيء حتى الآن».

هبَّ صوت رخيم من زاوية القاووش:

« طول بالك... طول بالك أخي...».

خنق طلفاح الأحمد أمتعاضه، لم يجب، عاد إلى زاويته، دفن سيجارته بين شفتيه، أقتعد على الأرض، لف كتفيه ببطانية.

رَشَّ الليل لونه الأسود على القلعة، زركش السواد بالنجوم، هدرت البوابير، فحت رائحة الكاز، كرج البق على الحيطان.

مساء الخير يا قاووش.

II

«الملازم... يا أخوان... تفتيش».

تسربل صوته، رج حيطان القاووش، أزدادت طرطقة القباقيب الخشبية، تعملق الصمت، من وقت لم يزرنا أحد للتفتيش، التهوا عنا بخلافاتهم وصراعاتهم على السلطة، أرتخت القبضة الحديدية التي كانت تخنقنا صرنا

نتجاوز الوقت المحدد للتنفس، نعطي حرية التجول في أرجاء السجن، كنت أخرج من القاووش ساعة أشاء، أدور على المنفردات، حيث سامي الجندي، خالد الجندي، عبد الغني قنوت، خليل كلاس، الدكتور زيد حيدر والدكتور دريد المفتي الذي كنت أزوره بأستمرار، فيتشعب الحديث بيننا ويدور حول التاريخ والسياسة والفكر.

أنتصب الرقيب مثل قصبة سكر ممصوصة، إلى جانبه تسمرَّ الشاويش مثل وتد متروك في صحراء قاحلة، لا يتحرك فيه سوى كرشه العامر الذي يعلو ويهبط تبعاً لحركة تنفسه، أختنق الهمس في القاووش، تلاقت العيون على الباب، من يكون الآتي للتفتيش؟

فار الماء في إبريق الشاي، خنق زعيق بابور كاز كان ما يزال يولول، حرك الرقيب رأسه، ألبس صوته بغلالة عسكرية:

« تفضل سيدي...».

تراجع خطوتين إلى الوراء، بقي الشاويش في مكانه، شده الرقيب بذراعه فتراجع، أفسحا المجال للنقيب تيسير فرا فدخل بخطى وئيدة على غير عادة منه يلحق به الملازم أول توفيق شيخ علي.

لم أتحرك، بقيت في زاويتي، أرتاحت أساريري لما رأيت توفيق شيخ علي، وددت أن أصطنع أية حركة الفته إلى وجودي، خفت أن أحرجه، تراجعت عن الفكرة.

كان يتنقل بين السجناء، يقف، يهمس، يسأل، يعلق على وجوههم أبتسامة، أنتظرت أن يقترب مني، سبقته إليّ نظراته المتفحصة التي بثها إشارات فهمتها، فلقد خاف هو أيضاً من الإحراج، فتصنعت اللامبالاة.

« شو... زكريا بعدك هون؟».

سألني وتبرعمت الدهشة في عينيه الواسعتين، عض على شفته السفلى، فهمت:

«لا أعرف سبباً مع أنك...».

تنبهت، أرجعت الكلمة الأخيرة إلى حلقي وأستدركت خالطا الكلام بالسخرية:

« على أي حال إنني أستمتع هنا بكرم ضيافتكم...».

نامت إبتسامة على شفتيه، دار على وجهي بعينيه، همَسَ:

«أوراقك عند العقيد كما وعدتك...».

خطف كلماته خطفاً، أزاح نظره عن وجهي، أدار لي ظهره.

« أعرف... أعرف».

مشت كلماتي خلفه.

تولاني غضب مقيم، تكمشت بمفاصلي رعْدَة برد، أحسست بالأختناق، برغبة جامحة للزعيق، وددت لو أضرب الحيطان السميكة بقبضتي وأخرج أغسل جسدي بالحرية، رأيت أصابعي تتشنج، وددت لو أنقض بها على عنق ذلك الرجل الذي قرر أن يبقيني رهينة يتلذذ بتعذيبها في سجونه، وأضغط، أضغط أكثر حتى

تنفر شرايين يدي، تتفتق وتنفجر، فتتنسل أنفاس ذلك الرجل بين يدي.

ربت عمر أبوزلام على كتفي، أرجعني إلى صوابي، وشحني بنظرة حانية، هز رأسه، تركني أتمدد على السرير.

III

«يا قايم صحي النايم».

« قوم على السحور بابا...».

« رمضان كريم، رمضان كريم...».

ورمضان عرج على الشام في ذلك العام والدنيا خريف، وفي خريف الشام للبرد مطارح وعناوين، الشوارع تهمهم وهي تغاصب دموعها على الصيف، والشجر يستحي من عريه، وأول المطر غسل الأرض من أول أيام رمضان.

«بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»...

تتلاقى الأصوات مشوبة بغلالة من الإيمان، يتحول القاووش إلى مسجد صغير، والمصلون يؤدون فرائض الصلاة كأنهم شخص واحد يصرخ بالمصلين.

« الله أكبر...».

تصدر الأصوات خلفه مجيبة مكررة التكبير لله، يهب صوت سجين آخر يقوم مقام الامام في المصلين:

«سمع الله لمن حمده».

يجيب آخر:

« ربنا لك الحمد...».

وما أن تنتهي الصلاة بعد السحور حتى يعود القاووش إلى حالته العادية، طرطقة القباقيب الخشبية، حلقات النقاش السياسي الذي كان يحتد ويحتدم بين الفلسطينيين والبعثيين والقوميين الأجتماعيين والناصريين... إلا بوابير الكاز، فهي تبقى صامته طوال النهار، فالنهار صوم، والليل شاي وأكل وسحور، وغالباً ما كان الأكل للسحور يأتي من مطعم أبو كمال وغزال الشامي العريق، فربع دير الزور في القاووش لهم دالة وحول وطول بفضل الملازم أول يوسف طحطوح أبن دير الزور الذي كان يسهل لهم أن يأتيهم طعامهم من أفخر مطاعم دمشق.

... وتعجب كيف حلّ الإيمان على أهل القاووش؟

وكيف أن الأنسان في ساعة الضيق يهرب من واقعه إلى الميتافيزيقيا... إلى الله.

لم أصم، ما صمت عمري، فلقد كنت دائماً أؤمن بأن الصيام هو علاقة تخصني وربي فقط... وإن الصوم المادي لا قيمة له إن كانت النفس امارة بالسوء دائماً، لا تتعظ وتتقي الله في خلقه، على أنني كنت أحترم توهج الإيمان في نفوس زملاء القاووش، فكنت أعرض خلال النهار عن التدخين أمامهم وأتناول وجبات الطعام من دون أن ألفت أنظارهم كي لا أخدش إيمان أحد بالتجربة... حتى إذا ما ضرب المدفع وحان وقت الأفطار شاركت الصائمين فطورهم فما

شعروا بأنني خالفت أو تخلفت.
ضرب المدفع ليلتها، زعقت بوابير الكاز مهللة بنهاية يوم صيام آخر، رقصت كاسات الشاي بين الأصابع، قبلتها الشفاه بتوق العشاق، أرتوت الأفواه الجافة، فحت روائح الطعام، سال اللعاب، تنافست الأيدي على الصحون، تعجن الخبز بالمرق الأحمر واللحم المطبوخ، لحظات وأنهمر الرصاص من كل حدب وصوب، لعلع، رجع صداه خدش صمت الليل، توتر القاووش.
«علقت... علقت يا أخوان».
وقفت اللقمة في فم عمر أبوزلام..
« بين مين ومين؟».
نفر الرعب من عيني أبي غياث.
« الرفاق بين بعضهم البعض...».
لوى عادل رباط الكلام بين شدقيه:
« يا لطيف... الدم سيصبح للركب يا أخوان».
حمحم أبو أحمد، أهتز طلفاح الأحمد حنقاً ثم عاد الزهو يطرز كلامه:
«ألم أقل لك أن الحالة زفت، والأنفجار قريب؟».
مسح واحد المرق عن شفتيه بكم منامته، مد صوته على مداه:
« يا الله أخي... إن ما كبرت ما بتصغر».
هَمْدَرَ الآخر:
« رمضان كريم يا إخوان ».

IV

كأنه جهاز راديو أداروا أبرته على نشرة الأخبار، غرسوا عيونهم في وجهه وأعطوه سمعهم، هو شعر بأهميته فحلق بنشوته، أخذ وقته في الكلام، حشر لفافة تبغ بين شفتيه، تمهل في حك عود الكبريت، مر به على مهل من رأس سيجارته، العيون تأكله، شعر بها تلكز جلدة وجهه، عبَّ نفساً طويلاً من لفافته، ترك الدخان يتزحلق من أنفه على شفتيه ولحيته، يتلاشى في فضاء القاووش، تنحنح:
« الأخبار عاطلة يا أخوان، في الأمن السياسي حركة غريبة عجيبة».
عاد يتمهل بكلامه، وعادت العيون تفترسه بنهم.
«شيء ما يعد في القوات الخاصة التي ورثها الرائد رفعت الأسد، شقيق وزير الدفاع اللواء حافظ الأسد، من محمد عمران ضد العقيد عبد الكريم الجندي».
لم يتركوه يكمل، تحولت أسئلتهم إلى مطرقة نزلت على رأسه:
« رفعت الأسد؟».
« رفعت الأسد؟».
« القوات الخاصة التي أطاحت عام 1966 بأمين الحافظ؟».
« بالأمس أمين الحافظ واليوم عبد الكريم الجندي».

«يا لطيف... يا لطيف الزمان غدار».

«شو القصة... لماذا تتحرك القوات الخاصة».

« الأمر واضح، رفعت الأسد يريد أن يساعد شقيقه وزير الدفاع...».

« لأ... لأ القصة أكبر من أخ وأخيه... هل نسيتم الحزب، الحزب داخل اللعبة يا أخوان».

« صحيح... أتركوا الرجل يخبرنا».

« أحكي... أحكي...».

رَشَفَ رشفة طويلة من كاسة الشاي، تلذذ بصوتها قبل مذاقها، تهدل صوته:

« لقد تطور الخلاف بين جديد والأسد إلى قيام الأخير بعزل رئيسي تحرير جريدتي «البعث» و «الثورة» الموالين لأمين عام القيادة القطرية وأستبدلهما بأثنين من أتباعه، كذلك طاول الأمر إذاعة دمشق ثم حلب، أما في اللاذقية وطرطوس فقد تمكن الأسد من عزل جماعة جديد من الحزب والإدارة المحلية، ولكن الأمر لم يبق عند هذا الحد...».

وعاد الحكواتي يترك الجميع في حيرة، تمهل ليمعس رأس لفافته بقبقابه الخشبي، تناول لفافة أخرى، أبقاها بين أصابعه من دون أشتعال:

« قبل أيام ألقي القبض على سائق كان يدور بسيارته حول منزل وزير الدفاع اللواء حافظ الأسد وبعد التحقيق الطويل معه في مركز القوات الخاصة، أعترف السائق بأن العقيد عبد الكريم الجندي قد أرسله لأغتيال اللواء الأسد، وردة الفعل كانت في أعتقال عناصر العقيد الجندي الذين كانوا يأتون بسياراتهم للتزود بالوقود من وزارة الدفاع، حتى وصل الأمر بأعتقال سائق عبد الكريم الجندي الخاص، عندما جاء بسيارة العقيد إلى وزارة الدفاع للتزود بالوقود، وتطور الموقف إلى إطلاق نار متقطع بين عناصر الأمن السياسي والقوات الخاصة...».

«آخرة العقيد باتت دانية».

علق طلفاح الأحمد، أكمل الحكواتي:

«اللواء صلاح جديد عقد أجتماعاً مفتوحاً في القيادة القطرية لمعالجة الأمر».

« سبق السيف العزل... أخي».

«والرئيس نور الدين الأتاسي».

« لا يهش ولا ينش بابا... هو طوع بنان اللواء جديد «آخرة العقيد باتت دانية»...

طنت هذه الكلمات في رأسي، أنتشيت بها، فلقد كانت تعني حريتي وخروجي من السجن.

« فخار يكسر بعضه بابا ».!

أنفضوا عنه، وضعوا حداً لاهميته بعدما أفرغ جعبته في آذانهم، أمتعض، قام إلى زاويته مكسور الخاطر وبقي هكذا طوال النهار.

V

23 تشرين الثاني (نوفمبر) 1968

تنتحب الشمس، تذرف دمعة على النهار وتغيب، والليل يتبع النهار بأصرار غبي، طلع صوت المؤذن، ضرب المدفع، ورمضان يتمشى على الأيام والصيام في منتصفه، أحسست وأنا أقتعد على الأرض لأشارك بالفطور أن نفسي عافت الطعام، فانسحبت بهدوء إلى باحة التنفس.

أعطيت وجهي للهواء الخريفي البارد، لسعني، رفعت ياقة سترتي، نقلت تفكيري في الحوادث والوجوه التي كانت تمر بالبال، تبقى هنيهات وتختفي.

«زكريا... زكريا».

تَمَدَّدَ الصوت، فتشت عن مصدره، فإذا بالشاب ياسين المفروز إلى المكتب الإداري للسجن يلوح لي بورقة من على أحد أبراج القلعة.

« زكريا إخلاء سبيل...».

ظننته يمازحني، تجاهلته، زرعت الباحة بخطوات وئيدة، عاد يصرخ:

« يا زكريا، يا قواص، يا أبا أحمد، أنتم الثلاثة إخلاء سبيل».

تسمرت في مكاني، نطً قلبي في صدري، خفق بشكل متسارع، مددت صوتي.

« أنا... أنا...».

«هل في القلعة زكريا آخر؟ إنني سآتيك بعد قليل من أجل الحلوان».

أنتابتني موجة ضحك، أصبحت أركض في الباحة مثل طفل أنتشى بلعبة، لم أعرف كيف عدت إلى الشكية، كل ما أزال أذكره أنني وقفت في ميدان القاووش وناديت على حكمت قواص وعلى أبي أحمد بأنه قد أخلي سبيلنا، ما كدت أنهي كلامي حتى كان الشاب يمد يده اليمنى يطلب الحلوان وباليسرى ورقة إخلاء السبيل الصادرة عن وزارة الداخلية.

●●●

أبتسم، ما رأيته يبتسم من قبل، حتى صوته تغيرً علي، أعطاني ربطة عنقي وحزامي وساعة اليد، مددت له كفي، طبع عليه خاتم إخلاء السبيل.

«أستر ما شفت منا».

تمتم وهو يضغط بالخاتم على كفي، بقيت صامتاً مشى أمامنا إلى باب القلعة الخارجي، كانت سيارة اللاند روفر تنتظرنا، أعطى السائق لمحركها مداه في الجعير، ترك الدواليب المطاطية تغرق في حفر الطرقات المؤدية إلى الأمن السياسي.

كان رذاذ المطر يترك نقاطاً على زجاج السيارة تتلألأ على أضواء المصابيح، ترسم أمامي صوراً حميمة تراءى لي وجه زوجتي، أطل من بين نقاط المطر، بعد

لحظات سأضمها إلى صدري، سأريح رأسي المتعب على صدرها، بعد لحظات سأرى أبنتي التي تركتها وهي في الشهر الأول من عمرها، تراها ستعرفني؟ وأمي... أمي التي كانت تلوح لي بمنديلها من بعيد، أشتقت إلى صدرها الحنون، أطلقت السيارة زفيراً متقطعاً عندما ضغط السائق على المكابح، هزني، أضعت الصور المتلاحقة في ذهني.

مشى أمامنا، ظننت أنه سيقودنا إلى مكتب الملازم أول يوسف طحطوح، لكنه قبل أن يصل إلى مكتب الملازم أدخلنا إلى مكتب وكيله.

جلس، جلسنا، مدّ لنا علبة سجائر «الحمراء»، دخّن، دخنّا، عبق المكتب الصغير بالدخان، تكلم، سمعنا:

«لقد كنتم ضيوفنا، وإذا كنا قد قصرنا فأستروا تقصيرنا، فنحن في النهاية أبناء بلد واحد».

« يعتذر وقد تذكر أننا أبناء بلد واحد»، تمتمت بسري، ما عدت أسمع وكيل الضابط:

«كل ما أطلبه منكم الآن هو التوقيع على تعهد».

مد لنا ورقة فيها تعهد وإقرار بأنه لم يسأ إلينا أثناء التحقيق معنا ثم خلال فترة السجن، وتعهد آخر بعدم العودة إلى مزاولة أي نشاط سياسي هدام يتعارض مع أمن وسلامة الدولة!

وقع حكمت قواص، وقعت بعده، وثالثنا كان أبو أحمد.

رفع الورقة، حشرها في ملف أمامه، وقف، وقفنا، مشى إلى الباب، فتحه، بقي واقفاً حتى طوانا الممر، فغبنا عن ناظريه.

VI

الساعة السابعة والنصف مساءً.

رذاذ المطر لم يتوقف، أنتعشت به لأول مرة منذ مئتي وثمانين يوماً أتنشق الحرية، تدخل الحرية إلى رئتي، وقفت في الباحة الخارجية للأمن السياسي أنتظر سيارة أجرة تنقلني إلى البيت، توقفت واحدة، فتحت بابها، أرتميت منهكاً على مقعدها الخلفي، أستدار السائق، صوب عينيه في وجهي، أنتظر، تنبهت إلى أنني لم أعطه العنوان الذي أقصده، إرتبكت، نسيت أسم الشارع، نسيت عنوان بيتي، في السجن يجعلونك تنسى كل شيء، تعيش في هيولى مطلقة، تتجرد من حواسك، تفقد ذاكرتك لا تحفظ إلا أشكال الحيطان والقضبان، وما عداها أنت لست من هذا العالم، أغمضت عيني، تلعثمت وأنا أردد له على مهل أسم الشارع ورقم البيت، وددت أن أشرح له سبب عدم تذكري عنوان بيتي، لم أثق بوجهه، ربما ظن أني قاطع طرق فينزلني من سيارته، تصنعت عدم المبالاة، مسحت بكم سترتي حبيبات المطر التي تفجرت على جبيني، تماسكت نفسي، أنطلقت السيارة، حشرت عيني في زجاجها، أكلت معها الشوارع بنهم، كأنني أراها لأول مرة، عادت ذاكرتي تبتلع المشاهد، عادت ذاكرتي تتذكر الأشياء التي تركتها

خلفي قبل مئتي وثمانين يوماً.

توقف السائق أمام البيت، العتمة لفت شبابيكه، أين زوجتي وطفلتي؟ ساورتني الظنون، عدت أطلب من السائق أن يقودني إلى شارع المزرعة حيث منزل والدي، أمتثل على مضض، لم يعجبه هندامي الذي تفح منه روائح النتانة والعرق، أمتعض وهو يدير فم السيارة في أتجاه شارع المزرعة، أوقفته أمام الباب، توقف، بلعت يده أجرته، عادت دواليب سيارته المطاطية تكرج على الحفر المغطاة بالماء والوحل.

تولى الذهول وجه شقيقتي، صرخت، ركضت زوجتي، لحقت بها شقيقتي الثانية، خيم وجوم لم يعجبني، أنتظرت أن ترتمي زوجتي على صدري، أن تركض أمي تضمني إلى صدرها، أن تعانقني شقيقاتي بحرارة وشوق ولهفة.

بقيت هامداً، رميت الحقيبة من يدي، حط نظري على غرفة والدتي فرأيتها ممددة على السرير تخرج أنيناً متقطعاً، قبل أن أدخل، شدتني زوجتي من ذراعي:

«أمك في خطر طلبنا الدكتور ولم يحضر بعد...».

بالكاد رفعت رأسها، مدت يدها، لعبت أصابعها في خصلات شعري، شقت دمعة جفنيها، كرجت على خدها، قمت إلى الهاتف مذعوراً، أتصلت بالمستشفى الإيطالي، طلبت إسعافها، دقائق كنت في سيارة الإسعاف مع والدتي، وصلنا المستشفى، أدخلوها غرفة العمليات، أجريت لها جراحة مستعجلة، فقد كانت تشكو من عقدة في المصران الغليظ.

كانت الساعة الخامسة صباحاً لما أخرجوها إلى غرفة العناية الفائقة، فعدت إلى منزل والدي لألقى رفيقي عزيز مطانيوس وبعض الأصدقاء الذين عرفوا بخروجي من السجن ينتظروني.

« مات العقيد».

همس عزيز مطانيوس

«أي عقيد؟».

سألت بأستغراب أستغرب له عزيز مطانيوس

« شوباك... الجندي، العقيد الجندي».

تلفت يمنة ويسرة ثم عاد للهمس:

« يقولون... يقولون أنه أنتحر، أنتحر يوم خروجك من السجن ولولا ذلك ما أفرج عنك يا أستاذ...».

أنزوت الكلمات في حلقي، تفرس عزيز مطانيوس في وجهي، أكمل:

لقد عرف أنه أصبح مستهدفاً بعد أن تم تجريده تدريجا من العناصر التي كانت تحوطه ويثق بها، عشية 22 تشرين الثاني (نوفمبر) جرت مشادة كلامية على الهاتف بينه وبين علي ظاظا عرف خلالها أن الأمر قد قضي، وإن قرار القاء القبض عليه بات دانياً، والتحقيق معه حول جرائم عديدة أرتكبها بأسم النظام، فخاف أن يلقى من علي ظاظا وجماعته المصير الذي لقيه سليم حاطوم على يده، فسدد المسدس على رأسه وأنتحر، ولقد نقلوا جثته إلى براد المستشفى الإيطالي.

«جثة الجندي في المستشفى الإيطالي؟».
«إنهم مختلفون على مراسم التشييع، متعب في حياته ومتعب في مماته».

VII

27 تشرين الثاني (نوفمبر) 1968

كلهم كانوا إلا هو، فقد أرسل أكليل زهور بأسم وزارة الدفاع وبقي حافظ الأسد غائباً عن موكب المشيعين الذين مشى على رأسهم نور الدين الأتاسي وصلاح جديد ويوسف زعين، خرجوا به من المستشفى الإيطالي، نعشه كان محمولاً على عربة مدفع، مجلل بالعلم السوري، من شرفة أحد طوابق المستشفى وقفت والدتي التي عرفت عبد الكريم الجندي عندما كان يتتلمذ على والدي في مدرسة سلمية الزراعية التي أسس وأدار ردحا من الزمن، تنظر إلى النعش الذي أحتوى مَنْ أخذ منها وحيدها ورماه في سجونه، غير متحسرة على موته، مثلها مثل آلاف الأمهات اللائي حرمهن العقيد المنتحر والمجلل بالعلم السوري فلذات أكبادهن.

بعد أسابيع أنتحرت زوجة العقيد بدورها على قبره.

VIII

... تلفت يمنه ويسرة، أطللت على الوطن الذي أحببت وعلى الأرض الطيبة، فأدركت أنه لم يبق لي فيه أي مكان ومطرح، فلقد سيطرت العساكر والأجهزة على منافذ من مضيق بيلان إلى مسارب الرمثا، فقررت الرحيل، أضرب في مجال الأرض بعيداً عن الوطن والأرض والأهل والأصحاب و... ما زلت.

لكنني على الرغم من بعادي أشتاق إليه وأحبه.

فهرس الاعلام

أ

ب

ت

ح

ج

خ

د

ر

ز

س

ش

فهرس الكتاب



بعد مروياته عن زمان العقيد عبد الحميد السراج في سورية التي صدرت في كتاب «السلطان الأحمر» بطبعاته الأربع، يعود غسان زكريا لتدوين مروياته عن زمن رديء آخر بطله العقيد عبد الكريم الجندي، مع زمرة من المدنيين والعسكريين حكمت وتحكمت ببلاد الشام على مدى سنوات سبع إلى أن أنهت وجودها وعنفها والرعب الذي شهدته حركة تصحيحية قادها الرئيس حافظ الأسد قبل 29 سنة..

مرويات «في سجون البعث» تسلط ضوءاً ساطعا عن حالة القلق والتوتر التي عصفت في سورية خلال ستينات هذا القرن وفيها وصف دقيق لما كان يجري داخل الأقبية والسراديب والمعتقلات..

لقد أمضى المؤلف أكثر من عشرة أشهر سجينا مع مئات من المعتقلين السياسيين. كان بينهم رئيس جمهورية سابق ورؤساء وزراء ووزراء ونواب برلمان وقادة منظمات فلسطينية ورجال فكر وصحافة وقانون وأطباء ومهندسين وطلاب جامعيين وثانويين وعمال وفلاحين..

لعل هذه المرويات توثق بعض تاريخ نضال خاضه أحرار سورية من أجل غد أفضل.

الناشر

